كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

# أحمد عرابى

## الزعيم المفترى عليه

محمود الخفيف

# كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : الدكتور على الراعى

العدد ٢٤٦ جمادى الاولى ١٣٩١ – يولية ١٩٧١

No. 246 — Juillet 1971

**مركز الادارة**

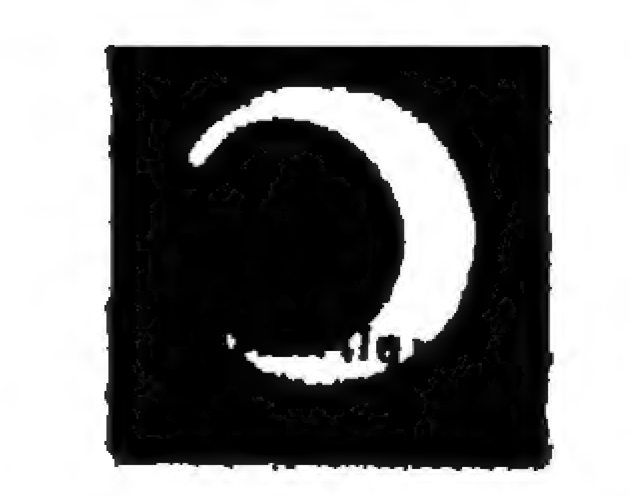
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ ( عشرة خطوط )

**الاشتراكات**

قيمة الاشتراك السنوى : ( ١٢ عدداً ) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٢ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م.) – والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــــــة .
الفنان حلمى التـــونى

محمود الخفيف

# أحمد عرابى

## الزعيم المفترى عليه

---

الجزء الثانى

دار الهلال

# العدوان الفاجر

هذا هو العدوان الذى لا نجد فى تاريخ الحروب أقبح منه أو أشد منه فجورا ، والذى سوف تنطوى العصور ويظل فى تاريخ الانسانية من أبلغ الامثلة على ما يفعل الاقوياء بالضعفاء ، وفى تاريخ الاستعمار المثل الرائع على ركوب أية وسيلة الى الغاية فى غير مبالاة بما يسمى الشرف أو الحق أو العدالة ...

هذا العدوان الغادر الشنيع هو اطلاق المدافع من الاسطول الانجليزى على مدينة الاسكندرية فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو سنة ١٨٨٢

وانه لتاريخ خليق بأبناء هذا الوادى وبنى الشرق جميعا أن يذكروه ، كلما تحدث متحدث عن الضمير والشرف البريطانى وعن الحضارة الاوربية بوجه عام فى هذا الشرق المسكين ...

وانه لعدوان خليق بأن يخجل منه ساسة الانجليز اذا نسوا أطماعهم فترة ، وفكروا فيما ينطوى عليه من غدر وقحة ...

وانه لثار جدير بكل أب وبكل أم فى هذا الوادى أن يتحدثوا به الى أبنائهم وبناتهم ، اذا أرادوا أن يغرسوا فى نفوسهم الغضب لكرامة وطنهم ، والاشمئزاز والنفور من الغاصب الدخيل ...

وما ندرى بأية وسيلة نعبر عما نحس به ازاء هـــذا العدوان الغادر وليس فى مقدورنا أن نعبر بالكلام عما يختلج فى ثنايا الصدور ...

***

قبل الخديو المذكرة المشتركة كما أسلفنا ، واستقالت وزارة البارودى فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو ، وظن المتربصون بمصر أن الحزب الوطنى وان الحركة القومية قد انتهى أمرهما بســقوط الوزارة ، ولكنهم ما لبثوا كما بينا أن تبينوا أن الامر أكبر مما يظنون ، واضطر الخديو الى اعادة عرابى بعـد يومين وزيرا للجهادية لحفظ الامن والنظام ...

ولكن مالت بدل أن يكف عن دسائسه أمعن فيها ، وبات همه الشاغل استعجال الحوادث التى تفضى الى احتلال مصر ، وكان جرانفل بالضرورة واياه على اتفاق ، وكان من ورائهما جلادستون أحد دعاة الحرية والمشتهرين بنصرتها !

وكانت السياسة الانجليزية قد حددت سياستها نحو مصر ، وتتلخص هذه السياسة فى الانفراد باحتلال مصر وتحين الفرصة لذلك ، وهى فى الواقع ســياسة قديمة ترجع الى حملة نابليون على هذه البلاد ، وقد نشطت نشاطا عظيما منذ فتحت قناة السويس ...

وكان أمام انجلترا فى الخارج عقبتان : موقف فرنسا من المسألة المصرية ، وحق تركيا صاحبة هذه البلاد ، وفى الداخـل عقبة كؤود هى الحركة القوميـة بزعامة عرابى ، وكان سبيلها فى الخارج المراوغة والتربص وسوف يكون سبيلها فى الداخل البغى والعدوان ...

ولتمض انجلترا اذن فى مراوغتها بعد المذكرة المشتركة ولتحرص أشد الحرص كما حرصت من قبل على أن

تظهر لفرنسا والدول جميعا أنها لا تنوى العمل بمفردها ولتدع تركيا الى التدخل ، ولتطع فرنسا فى كل ماتدعو اليه ، لتفعل انجلترا ذلك كله فليس يضيرها شىء منه ، بل انه لستار تختفى وراءه الى حين ، ولن تعدم ذريعة لانفرادها بالتدخل حين تحين الفرصة ، وانها لتفيد من تردد تركيا وتراخيها اذ يهيىء لها ذلك أن تقول انها اضطرت آخر الامر أن تضطلع بحماية الاجانب ومصالحهم وأموالهم فى مصر ...

وكانت انجلترا منذ ارسال المذكرة المشتركة الثانية الى وزارة البارودى تزعم دائما فى صلتها بالدول وخاصة فرنسا خطورة الحال فى مصر وتبالغ فى الانذار والتخويف

وبعد سقوط وزارة البارودى بأربعة أيام ارسل دى فرسنيه الى السفير الفرنسى بلندن يقول : « لم يعد من أمل فى حل سلمى بالضغط الادبى القائم على وجود الاسطولين الفرنسى والانجليزى وعلى المساعى الطيبة التى يبذلها عمال الدولتين فى القاهرة »

واقترح فرسنيه أن يعقد مؤتمر دولى لحل المسألة المصرية ، وكان غرضه من هذا كما فعل حين اقترح مجىء السفن الى الاسكندرية أن يحول بين انجلترا وبين الانفراد بالعمل فقد بات يتوجس خيفة من سياستها..

وقبلت انجلترا الاقتراح واخذت تعمل فى نشاط لتنفيذ الفكرة مدعية أن الاحوال الداخلية فى مصر تتطلب عملا عاجلا حاسما . ولن تخيب انجلترا فى أن تجعل من المؤتمر أداة تنتفع بها فى تحقيق ما تبيته ..

ومما يدل على حيرة السياسة الفرنسية أن فرسنيه كما أسلفنا كان يرى أبان أزمة وزارة البارودى الا داعى الى التدخل فى شئون مصر ، وأرسل رأيه هذا الى جرانفل على لسان سفيره فى لندن ...

على أنه ما لبث ان راى جرانفل يخطو خطوة صوب الانفراد بالعمل ، وذلك انه كتب الى اللورد دوفرين فى الثامن والعشرين من مايو أن ينصح للسلطان بمؤازرة توفيق وأن يرسل فى طلب عرابى وزميليه والبارودى الى القسطنطينية ، وكتب فى نفس الوقت الى مالت كى يشير على الخديو بطلب منـدوب عثمانى يحافظ على حياته ... ثم أنه بعد ذلك أخبر فرسنيه بما فعل (١)

وصرح السير ادوار مالت قبل ذلك بيوم أنه لا يعـد نفسه مقيدا باتباع الوسائل المنطوية على اللين والاعتدال والتى تضمنتها المذكرة المشتركة الثانية (٢)

وبعث أدميرال الاسطول الانجليزى الى حكومته بعد ذلك بيوم يخبرها أن مصر تنشىء طابيـة جديدة تجاه احدى سفن الاسطول ويطلب اليها زيادة السفن ، وقد أجابته حكومته الى طلبه دون أن تستشير فرنسا ...

من أجل ذلك اقترح فرسنيه عقد المؤتمر ظنا منه أن فى ذلك عرقلة لسياسة جرانفل ، ولم يشأ جرانفل أن يرفض المقترح فيكشف سياسته ولذلك رحب به ، بل وعمل على تنفيذه ...

وحرص جرانفل على أن يظهر بمظهـر من لا غرض له الا المصلحة الدولية العامة ، كما فعل حين كتب الى الدول غداة وصول السفن الى الاسكندرية يؤكد لها الا غرض لانجلترا من وراء ذلك الا اقرار السلام فى مصر وأنه ليس لها من مطمع ولا هى ترمى الى الانفراد بالعمل و « أن الحكومة البريطانية لم تفكر قط فى أن تنزل الى البر جنودا ولا أن تحتل البلاد احتلالا عسكريا . وفى عزم حكومة جلالة الملكة ، متى أعيدت السكينة الى مصر

(١) الكتاب الازرق مصر رقم ٨ سنة ١٨٨٢ ص ٤٢ .
(٢) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ . رسالة رقم ١٤٥ .

وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها وتسحب سفنها الحربية ، فاذا وقع عكس ما نرجو بأن تعذر حل المسألة حلا سلميا فانها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته هى والحكومة الفرنسية أنجع الوسائل (١)

وكان مظهر حرص انجلترا على التجرد من الغرض حين قبلت اقتراح فرنسا لعقد مؤتمر أن ابدت رغبتها فى أن تشترك تركيا فى المؤتمر ، ثم انها أرادت بهذه الرغبة أن تعرقل مساعى فرنسا لعقد المؤتمر اذ كانت تعلم أن تركيا لا تميل الى هذا الاتجاه ...

وكانت سياسة تركيا تجاه الدولتين فى مصر تدعو الى الدهشة والاسف ، ومردها فيما نرى الى انها كانت فى حيرة بين توفيق وبين عرابى ، فهى ان آزرت توفيق فكأنما توافق على انحيازه الى الدولتين وهو فى الواقع منحاز اليهما منذ أن خلع أبوه ، وهى ان آزرت عرابى وافقت على النزعة الدستورية الحرة فى مصر وقوت شوكة الفلاحين ضد الاتراك والشراكسة ، وقد كانت هذه اليقظة القومية التى تعد فى جوهرها موجهة ضد السيادة التركية تتمثل فى عرابى زعيم مصر الفلاح ...

والواقع ان اضطراب سياسة تركيا نحو مصر يرجع كذلك الى غفلتها عن كثير من دسائس الانجليز وعن السياسة الدولية بوجه عام ، ثم الى فساد رجالها وايثارهم مصالحهم الشخصية على مصالح الدولة ، وامكان توجيههم بالرشوة الوجهة المطلوبة ولو كان فى ذلك ضياع دولتهم ...

ورفض السلطان أن يشارك فى المؤتمر ، ولكن ذلك زاد فى حرج موقفه ، اذ كيف يرفض ارسال مندوب الى

---

(١) المسألة المصرية لروتستين .

المؤتمر وفى الوقت نفسه لايعمل عملا ما تجاه سياسة الدولتين فى مصر ؟ لذلك أوفد بعثة درويش ورأى فى ذلك سببا عمليا يحتج به على رفضه فكرة المؤتمر ...

وجاءت بعثة درويش وقد رأينا ما كان من سياستها المزدوجة كما رأينا عجز درويش ازاء الرأى الوطنى العام وتأثره بهدايا الخديو ، وتذبذبه بسبب ذلك بين حاكم مصر وبين زعيم مصر ...

ورأينا انعام السلطان على عرابى بالوسام المجيدى الاكبر ، وفى ذلك فضلا عما بيناه من معان ، معنى آخر هو أن عرابى لم يكن بالمتمرد ولا بالمتسلط ، بل انه الرجل الذى لاذ به الجميع لحفظ النظام ، وبذلك فلا وجه لما يذيعه الانجليز عن خطر الحزب العسكرى فى مصر ، ومن ثم فلا حاجة الى مؤتمر ، ولا الى تدخل من اى نوع كان ...

ولكن اين هذا الاسلوب من دهاء السياسة الانجليزية وخبثها وطول مرانها على اللؤم والمكر السيىء ؟ لقد دبر الانجليز وشركاؤهم ماساة الاسكندرية لتكون حجة لهم على صحة ما يقولون ... ومن هنا يتبين لنا خطر هذا الحادث المشئوم ...

ولذلك نعود بأشد اللوم على عرابى لانه أذعن لتوفيق حين جعل عمر لطفى رئيسا للجنة التحقيق ، ولانه تراخى بعدما كان من اقدامه أول الامر على اثر انسحاب الانجليز من اللجنة ، وكان عليه أن يتعقب الجناة مهما كان شأنهم وان يواجههم بالادلة ثم يضرب على أيديهم ، ولو انه فعل ذلك للعب لعبة بعيدة الاثر فى مجرى الأحداث اذ كان يفضح أعداءه ويحبط كيدهم ويردهم خاسرين ...

ولن يشفع لعرابى انه آثر الحرص على مودة الخديو،

ولا انه خشى أن يفسر عمله بالتحدى لسلطته فيهيىء لاعدائه دليلا على صحة ما يزعمون من تدخله وتسلطه

لن يشفع له شيء من هذا فقد اضطلع بحفظ الامن وتعهد بذلك وكان بعد استقالة البارودى الحاكم الفعلى بل الحاكم الوحيد ، وقد أعيد الى منصبه فى الوزارة لهذا الفرض بالذات ... الا انه لخطأ من أكبر أخطائه السياسية سوف يعود عليه وعلى مصر بأوخم العواقب

***

ولندع الآن موقف تركيا من المؤتمر لنعود الى ما كان بين فرسنيه وجرانفل ...

فى أول شهر يونية أى فى اليوم التالي لاقتراح فرسنيه ، أرسل اليه اللورد جرانفل يقترح مرة أخرى رجاء الدول العظمى أن ترسل الى السلطان تطلب اليه ارسال جنود تركيـة الى مصر ، ورد فرسنيه ان الاولى أن تنظر الحكومتان هل توافق الدول على عقد المؤتمر أم لا ، وأجاب جرانفل بأن سؤال السلطان ارسال جنود الى مصر ينبغي أن يكون مما يشار به على اللورد دوفرين فيما يتصل ببرنامج المؤتمر . وأظهر فرسنيه تململه من هذا الرد ، لأن أجوبة الدول على الدعوة الى المؤتمر لم ترد بعد ...

وكان جرانفل فى الواقع يماطل ويسوف عله يستطيع أن يتخلص من عقد المؤتمر وان تظاهر أمام فرنسا أنه يرحب به ...

ولما وقعت مأساة الاسكندرية عادت انجلترا الى تخويفها العالم من سوء الحال فى مصر علها تجد فى ذلك ذريعتها للتدخل قبل هذا المؤتمر الذى تشير به فرنسا

أرسل مالت الى جرانفل بعد المذبحة بيومين أى فى اليوم الثالث عشر من يونية يقول : ان بعثة درويش قد

فشلت فشلا تاما فى مهمتها ، وان منـدوب السلطان اضطر الى الخضوع لسلطة عرابى وانه ادلى الى ممثلى الدول بقوله انه تحت ضغط الظروف الملحة يشـارك عرابى باشا فى تنفيذ أوامر الخديو ، وانه وزع الاوسمة على العرابيين وعلى الخديويين ، وان تأثيره قد ذهب

وأراد فرسـنيه أن يأخـذ الطريق على السياسـة البريطانية بفكرة اخرى فأعلن انه بعد سيطرة عرابى على الموقف « قد تهيأ كل ما يمكن من تسوية المسـألة المصرية بالاتفاق مع عرابى »

وردت الحكومة البريطانية على ذلك ردا حاسـما صريحا قائلة : « انه لايمكن وضـع تسوية ثابتة مقبولة الا بالقضاء على عرابى باشـا والحزب العسـكرى فى مصر » (١)

واهتم الانجليز فى مصر ، أكثر من قبل ، باذاعة الانباء عما يزعمونه من سوء الحال وذلك كى يردوا على قول درويش وقول السلطان من ان الحال هادىء لايستدعى شيئا من القلق ...

وأراد جرانفل أن يستغل حادث الاسكندرية قبل أن تظهر حقيقته فكتب فى اليوم الثالث عشر من يونية دون الرجوع الى فرسنيه ، الى القناصل الانجليز فى الدول المختلفة بأن يعرضوا على هذه الدول اقتراحا مؤداه أن يطلب الى السلطان ارسال جنود الى مصر بشروط معينة أهمها عدم الاعتداء على الفرمانات المقررة ...

ورأى فرسـنيه الا يدع انجلترا تتصرف وحـدها فوافقها مرغما مشترطا ان يكون هؤلاء الجنـود خاضعين لاوامر الخديو العليا ، وقبل جرانفل هذا الشرط ، وانه ليجعل من هذا كله ستارا لنياته ... ثم كتب فرسنيه

(١) Comer P. 228.

الى قناصله لتفعل كما فعل القناصل الانجليز ...

واتفقت الدولتـان على عقد المؤتمر عاجلا بمشاركة انجلترا أو بغير مشاركتها ، اذ أن السلطان كان لايزال على رفضه بحجة أن درويش قد نجح فى مهمته ، وان وزارة شكلت فى مصر وعادت الامور الى مجراها العادى

وبعد شيء من الاخذ والرد اجتمع المؤتمر فى الآستانة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونية دون أن يحضر فيه أحد من قبل السلطان

ولندع المؤتمر ريثما ننظر نظرة فى الحال الداخلية فى مصر ...

فى اليوم الثانى عشر من يونية وهو اليوم التالى ليوم الفتنة ذهب قناصل الدول الى الخديو وطلبوا منه تامين أرواح رعاياهم بمصر وأموالهم ، وكان ذلك بحضـور درويش باشا ، فأرسل الخديو فى طلب عرابى وأخبره بذلك وطلب اليه « نشر التنبيهات والتأكيدات على كافة العساكر المصرية وضبـاطهم وأمرائهم الموجودين بمصر والاسـكندرية والاقاليم والبنـادر بزيادة الدقة والتحفظ » (١) .

وبناء على ذلك أرسل عرابى الى جميع قادة الجند يخبرهم بما طلب الخديو ويدعوهم الى اليقظة قائلا : « يحق لنا الامل فى هممكم التى علمت فيكم ونشاطكم الذى عرفتم به بحيث لايقع أمر من الامور صغيرا كان أو كبيرا فى أى نقطة من النقط التى انتم بها الا كنتم حصنا منيعا بينه وبين سكان ديارنا على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتبعيتهم ، كما يجب على حضرتكم بـذل الهمة ودوام السعى فى تسكين كل اضطراب ومنع ما يوجب قلقا أو تشويشا فى الافكار ، وفى كل هذا تتخذون

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة

حسن المعاملة مع جميع الاهالى والاجانب شعارا لوظائفكم مع التمسك بالآداب المدنية والحقوق الوطنية فى سائر الحركات والسكنات كما هو الواجب على كل وطنى محب لوطنه ساع فى حفظه ونجاح أهله ، وسأل الله تعالى أن يوفقنا لحفظ هذا النظام العائد ثمرته على الوطن العزيز » (١) .

وكانت الشائعات تنتشر فى الاسكندرية ولم يمض على الفتنة يوم أن الاوربيين يستعدون لهجوم جديد فاجتمع رؤساء الجند وكتبوا الى القناصل ليطلبوا الى رعاياهم السكينة والنظام ، وأصدر القناصل نداء للاوربيين يحثونهم فيه على التزام السكينة ...

وغادر الخديو القاهرة فى اليوم الثالث عشر من يونية الى الاسكندرية بحجة الاصطياف حسب عادته كل عام وصحبه درويش باشا ، وقد ودعه عرابى فى المحطة ، وقبل تحرك القطار أوصى الخديو عرابى بالسهر على الامن وأخذ الحيطة لمنع وقوع اى حادث ...

وقد استراب الناس فى سفر الخديو فجأة عقب الفتنة ، وفسروا ذلك بأنه أراد أن يبتعد عن عرابى وحزبه ليكون فى حمى الاسطولين بالاسكندرية ، وأحسوا فى هذا السفر المفاجىء شيئا من الخوف وقالوا ان الخديو على علم بقرب وقوع الحرب ...

والواقع ان الخديو كان يريد السفر الى الاسكندرية منذ مجىء السفن الاجنبية .. تجد الدليل على ذلك فى برقية قنصل فرنسا الى فرسنيه فى اليوم الثامن عشر من مايو اذ يقول : « ان أهم مسألة مستعجلة فى الوقت الحاضر هى اقناع الخديو بعدم السفر الى الاسكندرية

---

(١) الثورة العرابية للرافعى نقلا عن الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة رقم ١١٥ .

فان هذا السفر يشبه أن يكون فرارا ، وتركه العاصمة فى الوقت الحاضر معناه العدول عن العودة اليها (١)

ونجد دليلا آخر فى برقية لمالت سلفت الاشارة اليها يصف فيها موقف الخديو فيقول عن الانجليز انهم هم الذين صرفوه عن السفر الى الاسكندرية ومعنى ذلك انه لولا مساعيهم لسافر اليها .

وقد علق فرسنيه على سفر الخديو بقوله : «كانت رغبة الخديو متجهة منذ وصول العمارة الانجليزية الفرنسية الى الالتجاء الى الاسكندرية ليكون قريبا من مدافعها ، وعبثا أريد اقناعه بأن مركزه يجب أن يكون على رأس حكومته قريبا من وزرائه ليتسنى له توجيه أفكارهم وعلى الاخص ملاحظتهم ، ولكن مذبحة الاسكندرية كانت له فرصة يحقق فيها رغبته ، وقد زعم أنه قصد اليها بحجة تدارك الخطر مع أن النظام كان قد عاد الى نصابه » (١) .

وفى الاسكندرية قوبل الخديو بفتور وقد أطلقت المدافع تحية له واصطف الجند على الجانبين حتى سراى رأس التين ، وقد وجل الناس عند سماع المدافع ولم يكونوا يعلمون بمجىء الخديو وظنوها مدافع الحرب ...

وزاره القناصل فى سراى رأس التين عدا قنصلى فرنسا وانجلترا اذ كانا بالقاهرة ، فأعرب لهم عن أسفه لما حدث يوم الفتنة ، ووعدهم بأن يوجه عنايته حتى لا يحدث شىء من هذا فى المستقبل ...

وسرعان ما ذاع فى الاسكندرية أن الخديو أسر الى كلفن انه لايأمن تجدد الفتن وان بعثة درويش قد اخفقت وانه لابد من مجىء جنود عثمانية ، وكان ذلك ردا على

---

(١) المصدر السابق نقلا عن كتاب فرسنيه « المسألة المصرية » .

ما أثنى به درويش على رجال الجهادية (١) .

ويورد عرابى فى مذكراته أن الخديو طلب جنـودا انجليزية « لانه لا يصح أن يطلب جنـودا عثمانية من عامل انجليزى مثل كلفن » .

ووقع ما أسر به الخديو الى كلفن وقعا مؤلما فى النفوس وعادت اليها عوامل الخوف ، وزادت هجرة المهاجرين من الاجانب فى حالة أشبه بالذعر كأنما تنتظر الحرب بين ساعة وساعة ، أو ترتقب فتنة أشد هولا من الفتنة السالفة ...

وتتابعت هجرة الاوربيين من الاسكندرية والقـاهرة ومدن أخـرى ، حتى ضـاقت بهم عربات القطـارات وازدحمت القوارب والسـفن ، ورأى عرابى أن يدعو الناس الى الاطمئنان فأصدر بلاغا يقول فيه : « ناظر الجهادية أحمد باشا عرابى يعلن كل سكان القطر المصرى من المصريين والاوربيين رسميـا أن الحضرة الخديوية الفخيمة كفلت الامن والراحة فى جميـع جهـات القطر المصرى أمام حضرات قناصل الدول المتحابة ، وتكفل ناظر الجهادية أيضا بصيانة الارواح والاموال وحفـظ سكان البلاد على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم وقد انتقل الجناب الخديو الى الاسكندرية بعائلته لدفع الاوهام من الافكار واطمئنان القلوب . وبقى ناظر الجهادية بمصر لمراقبة الاحوال وصيانة البلد ، وكتب لامــراء العسكرية فى سائر الجهات ببث الراحة والسـهر على حفظ الامن وصـيانة النفوس . وعلى هـذا فديوان الجهـادية يعلن الجميع حفظـا للافكار من الاراجيف والاشاعات الـكاذبة » (٢) .

وظل عرابى فى القاهرة ، وكان بيته حسب المعتـاد

---

(١) مصر للمصريين ، لسليم نقاش . (٢) مذكرات عرابى المخطوطة

يمتلىءكل يوم بالناس وفى مقدمتهم زعماء الحركة الوطنية ومن أبرزهم نديم ومحمد عبده والهجرسي والشريعى والسيد حسن العقاد ، وكبار رجال الجيش مثل البارودى وعبد العال وعلى فهمى وكان حديث هؤلاء لاينقطع عن موقف توفيق من الاجانب وخاصة منذ سفره الى الاسكندرية ، وعن نيات درويش ، الذى كان يكرهه نديم أشد الكره ويوجس منه خيفة ، وطالما أعلن الى أصحابه انه لايأمن الاتراك بوجه عام ولا يدرى هل جاء درويش للقضاء على عرابى أم للقضاء على توفيق ...

وكان عرابى يغشى بيت البارودى كثيرا حيث يجتمع انصاره فيتحدثون أحاديثهم السياسية ، ويذكر صابونجى فى كتاب له أرسله الى بلنت : « ان الناس كانوا ينهضون وقوفا على جانبي الطريق اذا ابصروا عرابى فى عربته ويهتفون قائلين : « الله ينصرك يا عرابى » ...

ومما يذكره صابونجى كذلك انه بينما كان فى بيت الشريعى باشا حيث كان هو وعرابى وسامى ونديم والهجرسي وعبد العال وعلى فهمى ضيوفا على صاحب الدار ، اذ دخل ضابط ومعه كتاب من سيدة أجنبية تطلب حماية عرابى وقد نصح الناس لها بالهجرة من القاهرة ، فطلب اليه عرابى أن يكتب لها مؤكدا حماية عرابى اياها كما يحمى نفسه ...

ويقول صابونجى : « ان عرابى قد غدا بطلا عند كثير من الاوربيات وقد سمعتهن يثنين عليه لما يعلمن من استعداده لحمايتهن ، وانهن ليهرعن الى الشرفات والنوافذ اذا سارت به عربته فى الشارع » (١) .

وكان عرابى شديد الشك فى نيات توفيق ، فاذا تحدث عما تم بينهما من صلح قال انه من جانبه لا يخون عهدا

---

(١) S. H. Blunt, P, 341

ولكنه اذا وجد الخيانة من غيره نقض عهده واذا غشه الخديو « فسيدفع له من جنس عملته » .

وسأله صابونجي رأيه فى حليم فقال : انه يفضله على توفيق ، ولكنه يرى أنه لو تخلص توفيق من تأثير مالت فكل شيء يسير سيرا حسنا ، ولقد أضل كلفن صاحبه مالت ، ولقد سببا ضررا بليغا لدولتهما كما سببا ضررا بليغا لمصر وذلك بتشويههما الحقائق » .

وتحدث عرابى عما يتوقع من حرب فقال : « لن نكون نحن المعتدين ، ولكننا سنقاوم كل من يعتدى علينا نحن امة مخلصة نعترف بالجميل لمن يأخذ بأيدينا ويعيننا على اصلاح وطننا ونحن لا نبغى الا الاصلاح ، ولكن الذين يريدون أن يغشونا سوف يجدون منا كل غش »

ويصف صابونجي زيارته للشيخ الامبابى شيخ الجامع الازهر ذات يوم بصحبة عرابى ، فيقول : ان الشيخ كان جالسا على وسادة فنهض واقفا وتقدم خطوات يلقى عرابى محتفيا به ، وقد خلع عرابى نعليه عند دخول الحجرة أجلالا للشيخ وقبل يده ، وكان مع الشيخ نفر من العلماء فتقدموا وسلموا على عرابى وحفوا من حوله مرحبين ، وقد طلب عرابى من الشيخ ان يذيع فى الناس نداء يحثهم فيه على الهدوء والسكينة ويطلب اليهم وفق تعاليم الدين الاسلامى الا يمتدوا على أموال اليهود والنصارى ولا على أرواحهم ، ووعده الشيخ باذاعة هذا النداء ...

***

وكان يسر الانجليز ويهمهم أن تبقى البلاد بغير وزارة ففى ذلك ما ينتحلونه لاثبات مزاعمهم عن الفوضى الداخلية وتسلط عرابى وعجز الخديو وما الى ذلك من البهتان ...

وكان يرضى الخديو كذلك أن يشهد الدول على أنه طالما توجد السلطة فى يد عرابى فلا أمل فى تأليف وزارة ولا رجاء فى اصلاح الحال ...

وكذلك كان يرى توفيق ان تأليف وزارة معناه الرجوع الى حكم الدستور اذ لايمكن لوزارة ما ان تحكم البلاد حكما مطلقا ، وهو يتطلع الى اليوم الذى يقضى فيه على هذا الدستور الذى سلبه مشيئته والقى بها فى يد الامة ، وكان أكبر مايغيظ توفيقا أن يصل الحزب الوطنى أو حزب الفلاحين فى مصر كما كان يسميه الاتراك الى ما وصل اليه ، وبلغ به الحنق ان كان لا يطيق سماع اسم عرابى الذى تتمثل فيه زعامة الامة كما يتمثل مبدأ الحكم الدستورى ...

فلما وقعت الواقعة فى الاسكندريه أشفق قنصلا المانيا والنمسا ونصحا للخديو باسناد الوزارة الى رجل يرضى عنه العرابيون وقد فطنا الى لؤم السياسة الانجليزية وحيرة السياسة الفرنسية وعقم السياسة التركية ، وكانت دولتاهما غير مرتاحتين الى استئثار انجلترا وفرنسا بالمسألة المصرية ، وقد أظهر بسمارك شيئا من العطف على عرابى فى قوله : « ان عرابى قد غدا قوة يحسب لها حسابا » ولعله بهذا كان يرمى كذلك الى مناوأة الدولتين ..

ولم يكن ليقوى توفيق على تبعة بقاء مصر بلا وزارة ، فأقل ما يقال فى ذلك انه عاجز عن اقامة وزارة ، لذلك قبل على رغمه مشورة القنصلين الالمانى والنمسوى ، وعرض الوزارة على راغب باشا فقبلها فى اليوم السابع عشر من يونية وصدرت المراسيم بتأليفها فى اليوم العشرين منه ...

ولم يكن راغب باشا من الموالين للخديو ولذلك وافق

عرابى عليه ، فقد أرسل اليه الخديو ينبئه باسناد الوزارة اليه ويدعوه الى معاونتــه ، وجاء رد عرابى بالموافقة وبالثناء على راغب ، وظل عرابى فى وزارة راغب وزيرا للجهادية والبحرية ...

ولقد خاف جرانفل أشد الخوف من دخول المانيا فى النزاع ، فلم يكن بسمارك بالسياسى الذى يؤمن جانبه ، بل انه وحده بين ساسة أوربا الذى يلف لف الانجليز ويدور دورانهم ويمكر مكرهم أو اشد من مكرهم ...

لذلك أرسل جرانفل الى بسمارك يقول على لسان السفير البريطانى ببرلين : « ان حكومة جلالة الملكة لم يكن لها يد فى النظام الذى وضع بمصر حديثا (١) وانه اذا كانت الحكومة قد سلمت بضرورة هذا النظام لحفظ حياة الاوربيين وممتلكاتهم من الاعتداء فانها لا تعده حلا للمسألة السياسية بحال من الاحوال » ...

ولا يفوتنا ان نلاحظ مغزى أخبار توفيق عرابيا باسناد الوزارة الى راغب فكأنما يقول بذلك انه يستأذنه لانه هو المتسلط ثم انه يطلب معونته قال : « فليكن فى علمكم احالة مقام الرئاسة لعهدة الباشا المشار اليه ، وكونوا جميعا يدا واحدة فى المساعدة والمعاونة وصرف الاقتدار والامكان لما فيه انتظام الادارة وحسن السير فى الاعمال واستتباب الامن والراحة بأطراف واكناف البلاد » ..

وكان فى رد عرابى شىء من التحفظ يتضح فى قوله : « وحيث ان أوامر الحكومة انما تصدر لصالح البلاد ورفاهيتها وتمتعها بالراحة الكاملة ، فنحن مستعدون لتنفيذ تلك الاوامر وتؤدى واجباتنا فى ذلك بكل ما فى الوسع والطاقة ونسأل الله حسن التوفيق » (١)

ووضع راغب باشا فى كتابه الذى رفعه الى الخديو

---

(١) يقصد تأليف وزارة راغب باشا

منهاجا لوزارته يتضح منه انه كان ينوى أن يحكم البلاد حكما دستوريا قوميا ، يكفل للدستور الاستقرار والتقدم ، ويقطع الطريق على دسائس الانجليز ، فبعد أن أشار راغب باشا الى احترام الفرمانات المحددة مركز مصر واستقلالها ومراعاة الاتفاقات الدولية المتصلة بالديون واحترام مبدأ الدستور والسير وفق أحكامه قال : « فجميع هذه الاصول الثابتة التى روعيت قبل الآن بكمال الضبط ستراعى فى هيئة النظارة الجديدة بغاية الدقة بل ان هذه الهيئة ستأخذ بجميع الاسباب الموجبة لتثبيت هذه الاصول وتقوية جانبها فانها ترى فى ذلك توفيقا بين المصالح يعود على البلاد بأجل المنافع.

وأما الاصول التى يجب بذل الجهد فى ترتيبها على قواعد أساسية موافقة للأصول الثابتة توضع باشتراك هيئة النظارة مع مجلس النواب وتصديق عظمتكم فهى الاصول الاساسية التى تعيد حقوق الحكام والمحكومين من كل صنف والقوانين الادارية والقضائية وتنظيم حالة الادارة والقضاء على وجه يلائم مصالح البلاد ويحفظ لها صورتها المدنية فهذه الاصول ستأتى بما فى الوسع لاصلاحها ومنها ما نخصه بالذكر لضرورة الاحداث التى طرأت على البلاد أخيرا ويبتدىء العمل به من أول يوم يستلم فيه النظار وظائفهم وهو :

أولا — أن يصدر عفو عام ويدرج فى الجرائد الرسمية باللغتين العربية والفرنسية عن كل من عليه مسئولية أو له اشتراك فى الاحداث الاخيرة ، وهذا عدا المشتركين والمسئولين فى حادثة الاسكندرية وفى المواد الحقوقية ، فلا يشملهم العفو ...

ثانيا — لا يعامل أحد بجزاء الا بعد محاكمته فى مجلس بمقتضى القانون وصدور الحكم عليه ...

ثالثا ــ لا تجرى مخابرات فى المصالح السياسية من مأمورى الحكومة مع احد وكلاء الدول بالقطر المصرى الا من طرف ناظر خارجيــة حكومتكم فقط ، وعليه أن يستشير مجلس النظار فى الامور الهــامة وان حصلت مخابرة من أحد المأمورين فلا تعتبر ولا يعتد بها (١)...

رابعا ــ الاوامر التى تصدر بالاجراء والعمل يكون اصدارها على موجب الديكريتو العــالى المؤرخ فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ (٢) ...

ومما نرى الاهتمام به واجبا علينا ايجاد الوســائل لتوسيع دائرة المعارف والصنائع وتحسين احوال الزراعة والتجارة وكل ما يعود على البلاد بالثروة ، فهذه يامولاى هى المبادىء التى يكون عليها العمل فى هيئــة نظارتكم الجديدة .

ولاريب فى أنها تكون كافلة لاهالى الديار المصرية باتم الفوائد ، وأن لى ثقة تامة بأن الدول العظيمة ســتعد هذه الاصول ضامنة للراحة والهدوء الابديين ، وانها جميعها ستساعدنا كل المساعدة على القيــام برعايتها خصوصا دولتنا العلية العثمانية التى لايسرها الا أن ترى أهالى أوطاننا فى رغد العيش ورفاهية البال. فان حسن لدى مولاى(٣) ما أوضحته فى هذا البيان فليحسن بالتصديق على التقرير وانى لعظمتكم الخاضع والخادم المتواضع ... »

من ذلك نرى أن وزارة راغب باشــا كانت كفيــلة ببرنامجها هذا أن تعيد السكينة والهدوء الى مصر ، وأن

---

(١) يرمى بذلك الى منع تدخل القناصل

(٢) يرمى بذلك الى مبدأ مسئولية الوزارة لمنع تدخل الخديو فى شؤون الحكم

(٣) اراد أن يتيه الخديو فى هذه الوثيقة الرسمية

ترضى الوطنيين وتضمن حقوق الاجانب المالية ، ولقد وافق الخديو بكتاب رسمى الى راغب باشا على هـذا البرنامج الوطنى السليم . ولن يضيره أن يوافق فذلك كله فى نظره من الامور العابرة

وكان منهج هـذه الوزارة أبلغ رد على السياسة الانجليزية وادعاءاتها ، ولو أنها وجدت فى مصر حاكما غير توفيق لنجت البلاد من الكارثة المحدقة ...

ولكن ماذا كان فى طوق راغب أن يفعل ، وقد خاصم توفيق الدستور والوطنيين خصاما لن يجدى معه تفاهم ، وآثر الانحياز الى الانجليز حتى لقد أحرق القوارب جميعا من ورائه كما يقولون ...

وهل كان الانجليز يدعون راغبا ينفذ برنامجه ؟ واذن ففيم كانت دسائسهم الماضيةجميعا ؟ وهل هم انصرفوا عن احتلال مصر حتى يدعوا هذه الوزارة وشأنها ؟ لقد قابلوها بأشد الجفاء من أول الامر واخذت ابواقهم تذيع ما كانت تذيعه عن البارودى ووزارته واشد منه ، وعادوا الى نغمتهم القديمة المرذولة وهى ان الوزارة فى يد الحزب العسكرى ، وسوف يدأبون كما نرى على اختلاق الاكاذيب ، ووضع العراقيل فى سبيل هـذه الوزارة ، وخاصة ليؤثروا على المؤتمر الذى انعقد فى الآستانة بعد تأليف وزارة راغب بثلاثة أيام ...

وكانت أولى هذه العراقيل امتناع كارتريت بأمر من جرانفل عن تمثيل انجلترا فى لجنة التحقيق التى ألفتها الوزارة للبحث عن مدبرى حوادث الاسكندرية ، ولم يكتف كارتريت بذلك ، بل راح يثير الشكوك حولاللجنة متهما أعضاءها بممالاة العرابيين خوفا من نفوذ الحزب العسكرى ...

وكان توفيق لما علم بعزم الوزارة على تحقيق أسباب

هذه الفتنة وتاليف لجنة جديدة بدل اللجنة الاولى التى انحلت بانسحاب الانجليز منهـــا ، قد كتب الى راغب يطلب اليه الاهتمـــام بهـــذا الامر ويستنكر حـــوادث الاسكندرية ، وفرضـه من هذا أن يظهر بمظهر المحايد الذى يريد تحقيق العدالة ...

***

اجتمع المؤتمر بدارالسفارة الايطالية بالآستانة ورأسه الـكونت كورتى سفير ايطاليا بصفته أقدم السفراء .
وكانت الجلسة الاولى فى اليوم الثالث والعشرين من يونية كما أسلفنا القول وفيها قرر المؤتمر ارسال مذكرة الى حكومة السلطان ينبئها باجتماعه ويعبر عن أسفه لعدم انعقاده برئاسة وزير خارجية تركيا وعن أمله فى اشتراك تركيا فى الاجتماعات المقبلة .
وعقد المؤتمر جلسته الثانية فى الخامس والعشرين من يونية وفيها وضع ميثاق «البراءة من الفرض» وهذا نصه : « تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا انها فى كل تسوية يقتضيها عملها المشترك لتنظيم شئون مصر لا تسعى الى امتلاك شىء من أراضيها ، ولا الى أى اذن بأى امتيـــاز خاص ولا الى أى فائدة تجارية لرعاياها الا ماكان مما يمكن أن تناله أية أمة أخرى» (١)
هذا هو الميثاق الذى وقعت عليه انجلترا على رؤوس الاشهاد ، والذى لم يمض عليه ستة عشر يوما حتى ضربت انجلترا الاسكندرية بمدافعها الضخمة ، كذلك على رؤوس الاشهاد ، ولقد وقعت عليه انجلترا التى لا تسكت قط عن التغنى بشرف سياستها ، بعد أن أعدت كل ما استطاعت لاحتلال مصر !
يقول رولستين : « فالطريقة التى انفذت بها انجلترا

---

(١) العبارة من تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

هذا الاتفاق تعد فى تاريخ القانون الدولى من أشنع المخازى . ولا عجب اذا عنى المؤرخون الذين يتنصرون لها بتحاشى ذكر ذلك الاتفاق القاطع لحججهم كلها »

والواقع ان انجلترا كانت قد فرغت منذ زمن طويل من تحديد ما تعمله فى المسالة المصرية ، يقول كرومر فى كتابه وقد جاء دور الكلام عن المؤتمر : « ليس من الضرورى أن نقف طويلا عند اجراءات المؤتمر المملة ، فقد كان من الامور الجلية كما قال اللورد سالسبرى فى مجلس اللوردات يوم ٢٤ يولية أن المجمع الاوربى ما هو الا وهم ، وفى أحد الجانبين كانت الحكومة البريطانية ويمثلها فى المؤتمر رجل من أقدر دبلوماسيى ذلك الوقت، وكان اللورد جرانفل واللورد دوفرين يفهمان تمام الفهم ماذا يريدان ، ولقد رغبا فى أن يوطدا النظام فى مصر ، وكانا يقظين الى تلك الحقيقة التى مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام » .

ومما يدعو الى الاسف والسخرية أن تركيا ظلت غافلة عما تبيت انجلترا حتى ذلك الوقت ، وظلت تأمل أن يفشل المؤتمر ، وكانت لا تفتأ تردد قولها على لسان سفيرها فى لندن أن وزارة الفت فى مصر وأن الحال فى غاية الهدوء وأن تقرير درويش باشا يدل على طاعة الجند وبعدهم عن أى غرض سيىء .

وكان من الممكن أن يكون لكلام تركيا قيمته وخطره لو أنها اشتركت فى المؤتمر واستطاعت أن تقنع به مندوبى الدول أو بعضهم فتأخذ الطريق على انجلترا .

على أن انجلترا لم تستهن بأقوال تركيا هذه ، فهى لا تأمن أن يلقيها فى المؤتمر مندوب دولة أخرى يكون لها غرض فى مناوأة انجلترا ، ولذلك حرصت كل الحرص أن تصور الحال فى مصر حسبما تريد هى من السوء ،

لا كما يشهد به الواقع .

ولقد وصل تقرير درويش الى الآستانة فى اليوم الذى اجتمع فيه المؤتمر ، وأنعم على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر بعد ذلك بيومين ، وأبلغ موزروس باشا وزير خارجية تركيا جميع وكلاء تركيا لدى الدول الاجنبية مضمون ما جاء فى تقرير درويش باشا ، وطلب اليهم أن يبلغوا الدول باهتمام تركيا بشئون مصر بحيث لا يدعو الحال الى تدبير خاص ، وكان يقصد بذلك عقد المؤتمر الدولى .

وكانت ايطاليا قبل عقد المؤتمر قد اهتمت بكلام تركيا ، ولعل مرد ذلك الى أنها كانت تميل الى المانيا والنمسا ضد انجلترا وفرنسا فى السياسة الاوربية بوجه عام وقد كان بسمارك يعمل على ايقاع الخلاف بين انجلترا وفرنسا فتدخل فى المسألة المصرية تدخلا ظهر فى نصيحة قنصله وقنصل النمسا للخديو بتأليف وزارة فى مصر .

ويتبين اهتمام ايطاليا فيما أرسله باجت السفير البريطانى بروما الى جرانفل من أن مانشينى وزير خارجية ايطاليا أفضى اليه بأن الكونت كورتى السفير الإيطالى بالآستانة تلقى من وزير الخارجية العثمانى ما يفيد بهدوء الحال فى مصر بتأليف وزارة راغب باشا وانه لم يبق هناك من داع للمؤتمر الدولى ...

ويقول باجت انه ما زال بمانشينى حتى صرفه عن ميله الى الاعتبار فى كلام تركيا « وقبل أخيرا أن ينتظر ما تخابره به سائر الدول فى هذا الشأن ليقف على آرائها » (١) .

وكذلك اهتمت روسيا بمسألة مصر ، يقول روثستين

---

(١) مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٩

« ان مسيو ده جيير وزير خارجية هذه الدولة قد اهتم فى التعليمات التي أرسلها الى سفرائه بمناسبة انعقاد المؤتمر بوجوب بقاء المؤتمر حتى يفصل فى أمر مصر ، قائلا ان كل حل للمسألة يأتى من غير هذا الطريق حل غير مقبول ، وانه اذا لم يكف التأثير الادبى فى تذليل الصعاب فان المؤتمر بأجمعه يقرر ما يراه من الوسائل الاخرى . فاذا اقتضت الضرورة هذا الامر فتركيا أحق الدول باعادة المياه فى مصر الى مجاريها. فان أبت تركيا ذلك فقد يعهد الامر الى انجلترا وفرنسا على شرط أن يرافق جيوشهما مندوبون من طرف الدول الاخرى .

فاذا استقر النظام فى نصابه اعيد النظر فى جميع التزامات مصر الدولية بقصد الغاء المراقبة الثنائية ووضع نظام دولى يحول دون عبث معتمدى الدول ويجعل كل تعرض آخر لشئون مصر الداخلية أمرا مستحيلا » .

لذلك كانت لا تأمن انجلترا أن تعود ايطاليا أو غيرها الى مناوءتها ، فعمدت الى التهويل فى تصوير خطر الحال فى مصر وانها تنذر بأوخم العواقب .

فمن ذلك ما أذاعوه من أن اربعة عشر ألفا من المسيحيين قد غادروا مصر ، وان ستة آلاف غيرهم ينتظرون فى لهفة وصول السفن التى تقلهم من البلاد ، ومن غريب امر هؤلاء الانجليز ان هذه الهجرة تمت بتحريضهم واذاعتهم انباء السوء فى الوقت الذى كان فيه عرابى يؤمن الاجانب على أرواحهم وأموالهم المرة بعد المرة والذى هدأت فيه الحال بعد الفتنة التى كانت من صنع أيديهم الا وهى مأساة الاسكندرية النكراء !

ومن ذلك ما أنذروا به الدنيا بالهول الا وهو ادعاؤهم ان عشرة من اليونانيين وثلاثة من اليهود قتلوا فى بنها

بأيدى المتعصبين من الوطنيين ، وقد أرسل كارتريت هذا النبأ الى جرانفل ، ولم يخجل من أن يقول انه سمعه من مصدر موثوق به (١) وهـذا كل أدلته على ما يزعم !

ومنه ما أشيع عن عرابى انه عرض على مجلس الوزراء أن تصادر أملاك كل مصرى يغادر مصر ، ومما يدعو الى الضحك قول كرومر معقبا على ذلك بأن عرابى يسلك فى ذلك مسلك اليعاقبة فى الثورة الفرنسية على غير وعى منه ، ثم يعود فيقول : « انه من الممكن ان يكون عرابى قد فعل ذلك بوعى منه ، فقد أخبرت من مصدر يوثق به انه كان فى ذلك الوقت يوجه اهتماما كبيرا الى دراسة تاريخ الثورة الفرنسية ، وهكذا يكون عرابى عالما يقرأ ويطلع اذا شاء كرومر أن يكون العلم وسيلة لاتهامه ، ويكون جاهلا طائشا اذا كان رميه بالجهل وسيلة لتشويه حركته القومية ، وليس وراء ذلك فجر أو لؤم ...

ومنه ما أرسله كارتريت الى جرانفل فى اليوم السادس والعشرين من يونية يقول : « نظرا لما يلوح من أن فكرة تسود الآن فى الآستانة مؤداها ان وزارة راغب باشا تسير سيرا مرضيا ، وان نفوذ عرابى يتناقص ، وانه ليس ثمة ما يدعو الى تدابير لتهدئة الحال ، رأيت من الصواب أن أخبر سفير حكومة جلالة الملكة بالآستانة عما لا نزال نحسه هنا من عدم الأطمئنان الذى ترد كل أسبابه الى مسلك الحزب العسكرى .

وخير مايوضح لنا نفوذ عرابى الشامل هو تسلط الجيش تسلطا لايتوقف وادعاءاته التى لا هوادة فيها وسلوكه مسلك التهديد ، تلك الامور التى أدى الى ازديادها الاعتراف بعرابى فى الوزارة الجديدة » (٢) .

---

(١) مصر رقم ١٧ . ص ٣٧

(٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٥ .

وأطلق كارتريت فى برقيته هذه العنان لمزاعمـــه عن لجنة التحقيق ومن ذلك قوله : « ان يعقوب باشا العضو العسكرى فى اللجنة والذى هو وكيل وزارة الحربية قد عارض معارضة شديدة وصمم على ألا يجرى تحقيق مرض ، الامر الذى أدى الى انسحاب العضو الانجليزى . وان بطرس باشا وكيل وزارة العدل والعضو المدنى فى اللجنة قد قرر أكثر من مرة بانه ما من شخص يجرؤ على تقديم أدلة لايرضاها الحزب العســكرى وانه هو نفسه مضطر الى تأييد يعقوب باشا ولو انه يخالفه فى آرائه كل المخالفة ... وانه لايزال فى السجن عدد من الاوربيين ، احتجزوا هناك منذ ١١ يونية ، ويرفض يعقوب باشا اطلاقهم لان ذلك يغضب الجنود وفى مثل تلك الحال لا يسأل عن حفظ النظام » .

وقال عن راغب : « انه لايستطيع أن يعمل عملا فيه اغضاب للجيش على أية صورة ، واذكر تأكيدا لذلك ان لغة سعادته أصبحت مطابقة للغة عرابى » .

وقال عن عرابى : « ان انعام جلالة السلطان على عرابى باشا فى الوقت الذى كاد يكون فيه شخصه هو الوحيد الذى يبعث على القلق ، قد أدى الى زيادة ارتفاع مقامه زيادة عظيمة ، كما أدى الى ازدياد ثقة الجيش فى نفسه وسيادته ، وأينما ظهر عرابى باشا فى المجتمع أعدت المظاهرات لاستقباله وانه هو وحده بين الوزراء الذى يحيط به كوكبة من الفرسان كتلك التى تحيط بسمو الخديو » (١) .

ثم أخذ يبالغ فى وصف تسلط العسكريين فى جميع دواوين الحكومة وكيف يشـكو المـديرون فى الاقاليم وسائر الموظفين من تدخل الجند فى كل شىء .

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٦ .

وبعد ذلك بيومين أبرق كارتريت مرة ثانية الى جرانفل « يلقى راغب باشا صعوبة شديدة فى محاولته السيطرة على العنصر العسكرى فى وزارته ، وعلمت أن سعادته يشعر بالقنوط تلقاء ما يلقى من فشل ، ويجد الجند اكثر اشتغالا بمشروعاتهم الحربية وتدابيرهم من أن يوجهوا أى انتباه جدى الى الوسائل المؤدية الى الطمانينة أو الى الحاجة الى خطوات جديدة يقصد بها اقرار النظام » .

وعقد المؤتمر جلسته الثالثة فى اليوم السابع والعشرين من يونية ، وكانما عاودت ايطاليا الشكوك فى نية انجلترا فقد قدم العضو الايطالى اقتراحا هذا نصه : « ينبغى أن يكون معلوما انه ليس لاية دولة أن تقوم بعمل انفرادى فى مصر ما دام المؤتمر منعقدا » .

واحس اللورد دوفرين أن ايطاليا وقد قبل المؤتمر هذا الاقتراح قد ضربت مطامع انجلترا فى مقتل ولكنه بدهائه تدارك الامر ، فما زال بالمؤتمر حتى اقنعه باضافة تحفظ الى هذا الاقتراح مؤداه استثناء ما تقتضيه الظروف القاهرة كضرورة محافظة كل دولة على أرواح رعيتها ، وقد استعان فى دفاعه عن وجوب قبول هذا التحفظ بما قدمه من انباء عن سوء الحال فى مصر ، ومن أعجب العجب ان المندوب الفرنسى أيده فى هذا التحفظ بعد التشاور فيما بينهما !

وكتب دوفرين الى جرانفل ينبئه بهذا الانتصار قائلا : « ان الغرض من اضافة ذلك التحفظ اطلاق أيدينا فى العمل اذا طرأ طارىء ما ... واننا فى الحقيقة لم نعد اقتراح السفير الايطالى ذا شأن كبير بعد هذا التحفظ الذى نرجع اليه عند الحاجة » .

ولكن جرانفل لم يرض أن تكون الظروف القاهرة

مقصورة على محافظة كل دولة على أرواح رعاياها فذلك مجال ضيق ، وكتب الى دوفرين ليتدارك الامر وما كان دوفرين بالذى تعوزه حيلة اذا كان الامر أمر خداع .

وعقدت الجلسة الرابعة فى اليوم الثلاثين من يونية ، فتقدم دوفرين بسؤال : ماذا يكون الموقف اذا لم يعترف السلطان بالمؤتمر وارسل من تلقاء نفسه جنودا الى مصر؟ وقال قائل يمنع الاسطولان جنود السلطان من النزول ، واعترض مندوب فرنسا قائلا : انه ما دام المؤتمر منعقدا فليس للأسطولين ان يتدخلا بهذه الصورة . فقال دوفرين : « اذن نعد من الظروف القاهرة مثل هذا التدخل من السلطان ، كذلك لو هددت قناة السويس وطرأ فى الحال السياسية تغير فجائى أو مخيف يخشى منه على المصالح الخاصة (١) .

ومن غريب امر المندوبين أنهم قبلوا هذا من دوفرين، فألغوا بذلك المقترح الايطالى !

وفى الجلسة التالية للمؤتمر القى دوفرين خطبة عن الحالة فى مصر ، فملأها بالمطاعن على مصر وأهلها وحركتها القومية ، وكان مما ادعاه ، ان الفوضى قد شاعت فى مصر بسبب تمرد الجيش وخروجه على سلطة الخديو ، وقد اختلت الادارة وارتبكت الحال بوجه عام ، وشلت حركة التجارة ، وعجزت الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية ، وعجز الاهالى من سداد الضرائب ...

وعقب على فتنة الاسكندرية واتهم الوطنيين بتدبيرها ، وبالغ فى الكلام عما يتعرض له الاوربيون من خطر واشار الى هجرتهم المتزايدة كل يوم من البلاد ، ونفى ماذكرته تركيا من ان الحالة هادئة وان وزارة راغب قد اعادت الامور الى مجراها العادى وسمى هذه الوزارة ، الوزارة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٧ .

الهزلية قائلا انها اداة فى أيدى المتمردين ، وان الخديو سليب الارادة لا حول له ولا قوة ...

ثم قال : ان انجلترا وفرنسا لايسعهما السكوت على هذا الوضع فى مصر ، وكشف النقاب عن وجهه فصرح بوجوب التدخل المسلح فى مصر ، وأهاب بالدول أن تضرب على أيدى الثائرين وأن تأخذ الثورة بالشدة والا استفحل نفوذها واستعصى بعد ذلك قمعها ...

على انه يرى ان هذا التدخل يجب أن يكون من جانب السلطان، ثم قال انه علم من مصدر يوثق به أن درويش باشا اعترف باخفاقه فى مهمتـه ، وانه لايستطيع أن ينقذ الخديو من تسلط الجيش الا بقوة حربية لا تقل عن عشرين طابورا ، وان الوزارة المصرية الجديدة ماهى الا أداة فى يد عرابى وسيبقى الخديو سليبا من كل ارادة ما لم ينفذ اليه جيش يعيد اليه سلطانه ...

وكان يتلو دوفرين على المؤتمر البرقيات التى أرسلت الى جرانفل ويسوقها مساق الادلة ، ولن يكون عبث بالعقول أشد من هذا مدعاة الى السخرية والاشمئزاز! ألم تك تلك البرقيات من صنع الانجليز ؟ ولم تكون هى المصدقة وتكون أقوال تركيا المكذبة ، ولا فـرق على الاقل بين هذه وتلك فى قابليتها للكذب أو للصدق ؟

كان أعضاء المؤتمر يصغون الى دوفرين ولديهم من الانباء ما يحملهم على عدم تصديقه فى كثير مما يقول ، وقد صرح بعضهم فعلا انهم لا يستطيعون قبول هـذه الآراء ...

ولكن المؤتمر رأى ما تبيته انجلترا من نية الانفراد بالعمل فى مصر فمال الى تقييدها بآخر قيد بقى لديه وهو أن يكون التدخل على يد تركيا ، ولهذا قبل الاعضاء النظر فى اقتراح دوفرين وقرروا ابلاغ دولهم بشأنه على

أن ينظر فيما بعد فى تفاصيله ، الا العضو الفرنسى فانه صرح بما يشبه التحفظ على الاقتراح المذكور (١) .

وابرق دوفرين بزف نبأ انتصاره الجديد الى جرانفل فقال : «أبلغتك فى رسالتى السابقة عما ينزع اليه المؤتمر فى سير أعماله ، وأبلغك ان ما أطلعته عليه من أنباء المذبحة فى بنها قد كان عظيم الوقع فى نفوس زملائى ، وكذلك أحدث مثل هذا الاثر فى نفوسهم ماسردته من الامثلة على طغيان الحزب العسكرى وعلى مظاهر الخراب المالى الذى جاء تفصيله فى برقية مستركارتريت بالامس وقد كان لزميلى الفرنسى اليوم الزعامة اذ أصر فى حماسة عظيمة على ضرورة اتخاذ علاج ناجع للفوضى المتزايدة فى مصر ، تلك الفوضى التى يخشى كما قال أن تؤدى فى وقت ما الى استحالة الاقاليم الافريقية على سكنى الاوربيين .

ولما رأيت من الاعضاء الآخرين ما يشعر بتسليمهم بخطورة الحال أكثر من زميلهم الفرنسى أو أقل ، بدا لى أن الوقت ملائم لاتقدم باقتراح صفته ، مؤداه دعوة السلطان لان يرسل تحت شروط معينة ومن أجل غرض خاص ، جنودا تركية الى مصر لها من القوة ما تسيطر به على الموقف وتقضى على استبداد العسكريين . ولاحظ زملائى واحدا بعد الآخر انهم لايستطيعون ابداء الرأى فى اقتراح هام كهذا دون الرجوع الى حكوماتهم ولكنهم فى الوقت نفسه أعلنوا استعدادهم لدراسته فى جميع احتمالاته ، وفى ظنى انه يحق لنا ان نرضى بالصورة التى قوبل بها مقترحنا . ولقد وافق كل شخص على انه لابد من عمل شىء ، ولم يجرؤ أحد على أن يقترح خلاف ذلك » (٢) .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٥٦ .

(٢) مصر رقم ١٧ ص ٤٧ .

ظن المؤتمر كما ذكرنا ان خير وسيلة يقيد بها انجلترا هو اقراره مبدأ تدخل تركيا بقوة حربية، وكانت انجلترا على يقين من ان السلطان لن يفعل ذلك لتردده وارتباك شئونه المالية والسياسية ، وبعد ذلك يسهل عليها وهى لا تكف عن الانذار بالويل من سوء الحالة فى مصر ، أن تضطلع هى بعبء التدخل متظاهرة انها تفعل هذا لا على انه ضرب من القرصنة أو الخروج على قرار المؤتمر ، وانما على انه عمل توجبه الانسانية والشهامة لانه دفاع عن الرعايا الاجانب فى مصر ودفاع عن الاوربيين كافة ، وما أسهل عليها وهى التى دبرت بالامس مأساة الاسكندرية أن تخلق ما تدعى انه من «الظروف القاهرة»! الا ساء ما يفعل الاقوياء وما ارذل مايتبجحون به من الشرف والحق فى هذا الشرق الذى لاندرى متى يفيق!

أخذ المؤتمر يدرس كيفية التدخل التركى ونظر فى ذلك ثلاث جلسات ، وكان دوفرين يستعجل المؤتمر ليموه عليه أن الحالة فى مصر لا يقبل معها إبطاء ، وانه يقظ الى كل ماعساه أن يحبط سعيه ، وانه ليوحى الى شياطين الاستعمار فى مصر ان يحرضوا على هجرة الاوربيين وأن ينشطوا فى نشر الرعب والانباء الكاذبة .

وفى آخر شهر يونية ارسل دوفرين الى حكومته يقول : « أن المؤتمر لم يفعل شيئا حتى ذلك الوقت ، وانه ما لم تتخذ خطوة عاجلة فان اطالة مدة وجوده تظهر أنه عديم الجدوى » ..

وفى اليوم الثانى من يولية قرر المؤتمر« انه اذا رفض السلطان الدعوة الموجهة اليه لارسال جنود الى مصر فان المؤتمر يحتفظ بحق التعبير عن رأيه فيما عسى أن يتخذ فى الفرصة المناسبة » .

وقد أبرق كارتريت الى جرانفل فى التاسع والعشرين

من يونية يقول : « ان هجرة الاوربيين واعدادهم العدة للهرب بعد أن خفت زمنا عادت الى الزيادة فى صـورة شديدة . وان الفنادق تغلق ابوابها وعمال السفن قد نقلوا مقرهم الى مقربة من الشاطىء ، وان ما بقى من المصارف يعد العدة لنقل الموظفين الى السفن ، ومن المستحيل تصور الانهيار والخراب ، الذى دهم البلد هكذا فجأة .. ان الوطنيين حتى شيوخ الدين منهم ، يرفعون أصواتهم اليوم ضد الحزب العسكرى ، ويغادر القطر عدد كبير من ذوى الاحترام من العرب كما يتزايد بصورة شديدة رحيل الاسر التركية » .

وابرق اليه أول شهر يولية يصف سوء الشعور فى القاهرة تجاه الاوربيين ويستأذن أن يسمح لهم بالهجرة

وابرق اليه ثانى أيام الشهر يقول : « لى الشرف أن أبلغكم انه فى جلسة مجلس الوزراء بالامس ألح عرابى باشا وزير الحربية على زملائه ليقرروا اعلان التجنيد العام توقعا للأعمال العدائية ، وقدعارض بشدة محمود باشا الفلكى وزيرالاشغال وعبدالرحمن بك وزيرالمالية ، وعلى ذلك لم يتخذ المجلس هذا القرار وفى نفس الوقت يستدعى الاحتياطى وعساكر الرديف فى نشاط » .

وفى اليوم السادس من شهر يولية أصدر المؤتمر فى جلسته السابعة هذا القرار الخطير وذلك بعد أخذ ورد بين دوفرين ودى نواى العضـو الفرنسى « ان الدول الكبرى مقتنعةكل الاقتناع بأنه اثناء وجود الجندالعثمانى بمصر سيحتفظ بحال البلاد المعتادة ولا يتعرض للأمور التى أعفيت منها مصر ، ولا لما خصت به من الامتيازات بموجب الفرمانات السابقة ، ولا لعمل الادارة المعتادة ، ولا للنظم والاتفاقات الداخلية المبنية عليه . وأن تكون مدة بقاء الجنود الشاهانية التى سيعمل ضباطها بالاتفاق

مع الخديو ثلاثة اشهر ما لم يسأل الخديو مد هذا الاجل، فاذا فعل ، حدد الاجل الجديد بالاتفاق مع تركيا والدول الكبرى ، وأن تتحمل مصر نفقات الاحتلال... وانه اذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فان انفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضوع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا»

وارسل المندوبون هذا القرار الى حكوماتهم ولبثوا ينتظرون ما ترد به ...

وظنوا أنهم قيدوا انجلترا، وحالوا بينها وبين الانفراد بالتدخل فى مصر ، كما ظنوا أنهم حالوا بينها وبين الانفراد بتركيا والضغط عليها ، وفاتهم ان انجلترا قد أعدت عدتها لجميع الاحتمالات ...

كان على انجلترا أن تخلق هذا الظرف القاهر قبل أن تعتمد الدول هذا القرار المشترك وتقدمه الى الباب العالى وأن تضرب الاسكندرية فتضع المؤتمر أمام الامر الواقع ، وتذر قرار المؤتمر قصاصة من الورق لا قيمة لها ، فليتدبر فى ذلك الذين يسخطون ويتكلمون كما تتكلم الببغاوات كلما ذكر عرابى فيردون سبب الاحتلال اليه . ليتدبر هؤلاء فى مسلك انجلترا فها هى ذى على الرغم من كل شىء تصمم على احتلال مصر تنفيذا لسياستها المرسومة سواء وجد عرابى أم لم يوجد ، فلو لم يكن عرابى لكان أى رجل غيره من الناس أو أى حادث ذريعة لها ...

وكانت انجلترا قد فكرت فى الظرف القاهر فعلا قبل ذلك واعدت له كثيرا من الصور فان لم تفلح هذه لجأت الى تلك ...

ولم يتوان الانجليز فى مصر عن اذاعة انبائهم المختلفة ومن ذلك ما أبرق به كارتريت فى اليوم الخامس من يولية

قائلا : « فى مجلس الوزراء الذى عقد بالامس تكلم عرابى باشا كلاما عظيم العنف ضد السلطان ، ووفوق ذلك فانه امر ضباط الجيش المصرى أن يقطعوا كل صله بدرويش باشا الذى يجب أن يفضى اليه بان بعتته سى مصرانسهت»

وبعدخمسة أيام فحسب من قرار المؤتمر اى فىاليوم الحادى عشر من شهر يولية ذلك التاريخ الاسود وقع من الانجليز عدوانهم الغادر على مصر ، رغم انف الدول جميعا ، والمؤتمر قائم فى الآستانة لايدرى ماذا يفعل ، وتركيا لم تبت فى الامر بعد ...

وستبلغ مهزلة المؤتمر تمامها حين يعقد جلسته بعد ضرب الاسكندرية بأربعة أيام لينظر فى الامر !

فكر المؤتمر طويلا فى التدخل المسلح فى مصر وقد اتخذ قراره كيف يكون هذا التدخل ، وبحثه ما سر بحث، انه يتدخل لقتل حركة قومية صادقة فى مصر قوامها الحرية ، والحكم الدستورى ، واذا كانت انجلترا موطن الحكم النيابى والديموقراطية قد اذهلتها عن مبادئها أطماعها الاستعمارية فجعلتها كعادتها فى كل مواقف الاستعمار ، ذات سياستين : صراحتها ونزاهتها فى حكم نفسها ، ونفاقها وفجرها فى معاملة الامم وخاصة أهل الشرق ، واذا كانت روسيا والنمسا والمانيا قد انصرفت بحكم أوتوقراطيتها عن نداء الدستور والحرية فكيف غفلت عن ذلك فرنسا موطن الثورة الكبرى ومبعث الحرية والاخاء والمساواة ؟ وكيف ذهلت عنه ايطاليا المجاهدة ، بلد مازينى وجاريبالدى العظيمين ؟ ولكن الانسان هو الانسان مهما اهتدى اليه عقله من مبادىء ، ولن تزال الاثرة هى أساس كل تعامل بين أفراد هذا النوع من الحيوان مهما تبجح بعلمه وسموه ، ولن تزال هى الرابطة التى تقترنه على رغمه بدواب

الارض من العجماوات ...

كانت انجلترا قد أعدت بالفعل تدبير «الظرف القاهر» قبل ان يقترحه دوفرين فاقرأ خرافة الذئب والحمل فى صورة جديدة هى قصة النزاع بين بوارج الاسطول الانجليزى وقلاع الشواطىء بالاسكندرية .

فى اليوم التاسع والعشرين من مايو ، أى قبل تحفظ دوفرين بنحو شهر ، أبلغ السيربوشامب سيمورادميرال الاسطول البريطانى بالاسكندرية اللورد جرانفل ، كما سبق ذكره ، أن المصريين يقيمون تحصينات فى شواطىء الاسكندرية وان هـذا يعد عمـلا عدائيا موجهـا الى الاسطول ، وطلب زيادة السفن وقد اجابته حـكومته الى ما طلب دون استشارة فرنسا ...

وسألت انجلترا الباب العالى عما يراد بهذا الاجراء ، فردت تركيا بأنه لا تحصين هناك ولا استعداد وانما هو اصلاح فى بعض الحصون المتهدمة ، ومع ذلك فقد أمرت تركيا بوقفه ، واعربت تركيا عن أملها فى أن يتجنب قائدا الاسطولين ما عسى أن يثير أدنى نزاع ... ووقفت المسألة عند هذا الحد ...

ولكن الادميرال سيمور عاد فى أول يولية فأبرق الى سكرتيرية الادميرالية ان عرابى يستعد بجمع السـلاح والرجال وانه يعلن أن النبى يوحى اليه كل ليلة ، وانه سوف يضع الاسـطولين فى فخ وذلك بسـد البوغاز بالاحجار (١) .

وفى اليوم الثانى من يولية أبرق كارتريت الى جرانفل بأنه سـمع ان مجلس الوزراء المصرى قرر اسـتئذان السلطان فى العودة الى اعمال التحصين بشـواطىء

(١) مصر رقم ١٧ ص ٦٢ .

الاسكندرية ، وابرق جرانفل الى سيمور فى نفس اليوم يبلغه ذلك ويطلب اليه أن يأخذ حذره (١) ٠

وتلقى سيمور فى اليوم الثالث هذه البرقية الخطيرة « امنع كل محاولة لسد البوغاز الى الميناء ، واذا استؤنف العمل فى التحصينات أو اذا وضعت مدافع جديدة ، فبلغ القائد الحربى بأن لديك أوامر بمنع ذلك ، فاذا لم يوقف ذلك فورا فحطم التحصينات واسكت البطاريات اذا اطلقت نيرانها » (٢) ٠

وتلقى كارتريت فى الوقت نفسه نبأ ما أرسل الى سيمور ، مشفوعا بالتنبيه عليه انه فى حالة ما اذا أقدم سيمور على عمله فيجب أن يخطر الرعايا البريطانيون فى القاهرة وغيرها ليغادروا مصر قبل فوات الوقت »(٣)

وارسلت برقية أخرى الى سيمور هذا نصها : «قبل أن تأتى عملا عدائيا أدع الادميرال الفرنسى الى التعاون معك ولكن لا تؤجل العمل كما طلب اليك لان الفرنسى رفض الانضمام » (٤) ٠

وفى اليوم الرابع من يولية ابرق كارتريت الى جرانفل انه توجه وبصحبته القنصل الفرنسى الى راغب باشا ، فأجابهما اجابة شبيهة بما اعتاد أن يجيب بها فى مسائل أخرى مؤداها انه ليس ثمة ما يدعو الى الخوف وذكر كارتريت انه أنذر الرعايا البريطانيين ليكونوا على أهبة للسفر (٥) ٠

وفى اليوم الخامس ابرق كارتريت الى جرانفل : « انه رغبة فى أن يهيىء زمنا للرعايا البريطانيين كى ينسحبوا من القاهرة فقد اقترحت على الادميرال السير

(١) المصدر عينه ص ٦١
(٢،٣) مصر رقم ١٧ ص ٦٩ ٠
(٤،٥) ص ٧٤

بوشامب سيمور أن يؤجل الى يوم الخميس اتصاله بقائد حامية المدينة بشأن مسألة وضع البطاريات فى الحصون ، ذلك انى أخشى أن يؤدى الاتصال السريع الى تعجيل سير الحوادث وبذلك يجعل من الصعب انسحاب البريطانيين من القاهرة (١) .

وفى نفس اليوم ابرق كارتريت يقول : « لى الشرف أن أبلغكم ان وكيل وزارة البحرية قابل الادميرال السير بوشامب سيمورامس بعد الظهر وذكر له تاكيدات بشأن عمل اصلاحات فى مدخل الاسكندرية وبعد ذلك بقليل تلقى الادميرال من قائد الحامية اجابة مكتوبة صيغت فى عبارة شبيهة بعبارات صاحبه ، وتلقى الخديو صباح اليوم برقية من السلطان ينبئه بانه سيعد هو ووزراوه مسئولين اذا لم توقف أعمال التحصينات ، لان هذه الاعمال اذا استمرت سوف تؤدى الى ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول البريطانى ، وسيجتمع مجلس الوزراء اليوم للنظر فيما جاء من السلطان » (٢) .

وفى اليوم السادس ، وهو اليوم الذى اتخذ المؤتمر فيه قراره النهائى أبرق كارتريت الى جرانفل يقول : « لى الشرف كذلك أن أبلغكم ان الادميرال (٣) السير بوشامت سيمور قد أرسل لتوه الى قائد الحامية يطلب اليه ايقاف التحصينات والمبانى الشاطئية ، وقد أرسلت تبعا لذلك تحذيرا رسميا أخيرا الى الرعايا البريطانيين ليغادروا القاهرة ، وسوف أبلغ فى الحال القناصل الاجانب بما اتخذ من الخطوات » (٤) .

وأرسل سيمور للمرة الثانية الى طلبه باشا قائد

---

(١) ص ٨٠ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٨١
(٣) ص ٩٢ (٤) ص ٩٢

حامية الاسكندرية فى اليوم السادس من يولية يقول :
« البارجة انفنسبل فى ٦ يولية سنة ١٨٨٢ : سيدى ،
لى الشرف أن أحيط سعادتكم علما بأنى علمت من مصدر
رسمى ان مدفعين أو أكثر أضيفا بالامس الى خطوط
الدفاع البحرية ، وان استعدادات حربية يجرى عملها
فى الواجهة الشماليه للاسكندرية ضد الاسطول الذى
تحت قيادتى ، وأرى لزاما على ، والحالة هذه ، أن أنبه
سعادتكم الى انه اذا لم توقف هذه الاعمال ، أو اذا
أوقفت ، ثم استؤنفت ، فان واجبى يقضى بأن أطلق
مدافعى على الاعمال الجارى بناؤها » ...

ورد طلبه باشا بقوله : « عزيزى الادميرال الانجليزى
لى الشرف أن أبلغكم انى تلقيت كتابكم المؤرخ ٦ يوليو ،
الذى تخبروننى فيه انكم علمتم من مصدر رسمى وضع
مدفعين وان أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر ،
وردا على ذلك أؤكد لكم انه لا أساس من الصحة لهذه
الاخبار ، وانها من قبيل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز
الذى أبلغتم به وتحققتم من كذبه ..

وانى لمعتمد على مشاعركم الانسانية الصادقة وأرجو
أن تتقبلوا احتراماتى » (١) .

وأبرق جرانفل فى اليوم السابع الى سفير حكومته
بفرنسا يقول : « أرسل الى لوردات الادميرالية صورة
برقية وردت من السير بوشامب سيمور بتاريخ أمس
يقرر فيها أن قائد الحامية أكد له انه لم توضع حديثا
مدافع أو تجرى عمليات حربية ، وقد أكد هذا درويش
باشا أيضا . وقد قرر الادميرال انه لم يلاحظ عمليات
منذ يوم ٥ بعد الظهر ، ولكنه لن يتوانى عن العمل اذا
استؤنفت العمليات ، وقد ألقى الى الادميرال الفرنسى

---

(١) ص ١٠٣

أن ينسحب فى حالة الاعتداء » (١) .

وقد جاء فى برقية سيمور الى الادميرالية قوله : ان وقف العمليات منذ التاريخ الذى أشار اليه ربما كان تنفيذا لامر السلطان (٢) وفى هذا دليل بل اعتراف من سيمور بأن العمليات أوقفت ...

وفى اليوم السابع كتب القناصل بالاسكندرية الى سيمور يسالونه عما اذا كان مقتنعا برد الحكومة المصرية بشأن أعمال التحصين ، ويبلغونه بأنهم على استعداد لان يأتوا له بما يقنعه ، ويرجون منه أن يبلغهم ماذا بقي لديهم من وقت لحماية رعاياهم ، ثم يشيرون الى أن ضرب الاسكندرية على أية حال يفضى الى ضرر جسيم بالاجانب بالمدينة وبالوطنيين كذلك ، كما انه يحطم كثيرا من الممتلكات الاوربية ...

ورد الادميرال ردا رسميا حاسما قائلا : « انه اذا كان لهم من النفوذ ما يحمل قائد حامية الاسكندرية على الاخلاص فلا يستمر فى أعمال التحصين ، وانه مستعد لاجابة طلبهم ، أما التأكيدات الكتابية مهما كانت عبارتها فانها قليلة الجدوى لديه فيما هو بصدده ، وانه لا يقصد ضرب المدينة وان عمله اذا لزم الحال سيكون ضد الحصون ، وانه سوف يبلغ حكومته بكتاب القناصل ، علما بأنه ما يزال عند عزمه كما أبلغ قائد الحامية اذا لاحظ استئناف أدنى عمل دفاعى ، وعلى أية حال فسوف تكون هناك مهلة قدرها أربع وعشرون ساعة (٣)

وأبرق كارتريت الى جرانفل فى اليوم التاسع يقول : « لى الشرف أن أبلغكم بأن الادميرال السير بوشامب

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧ (٢) ص ٩٨
(٣) ص ١٠٠

سيمور تلقى نبأ بأن مدفعين أضيفا الى قلعة السلسلة تجاه الميناء الجديد ، ولن يستطيع الادميرال أن يتغاضى عن هذا العمل العدائى ، ولذلك صمم على أن يفتح أفواه نيران مدافعه فى مطلع شمس الثلاثاء ١١ الحالى، وسأبلغ هذا المساء القنصل العام والخديو ودرويش باشا وسأعد ما يلزم لنزول جميع الرعايا البريطانيين الى السفن الليلة أو صباح الغد » .

وأبرق سيمور فى اليوم التاسع الى سكرتيرية الادميرالية البريطانية يقول : « ايماء الى برقيتى المؤرخة ٤ يولية سنة ١٨٨٤ ، أقول : انه ليس لدى أى شك فى حدوث الاستعدادات الحربية ، وقد وضعت مدافع جديدة فى حصن السلسلة ، وسأبلغ قناصل الدول الأجنبية صباح غد وأبدأ بالضرب بعد ٢٤ ساعة ما لم تسلم الى الحصون القائمة فى شبه جزيرة راس التين والحصون المشرفة على مدخل الميناء » (١) .

وجاء فى برقية الى سيمور من سكرتيرية الادميرالية طلب اليه فيها أن يستبدل بكلمة « تسلم » الواردة فى برقيته عبارة «تسلم مؤقتا بقصد تجريدها من السلاح»(٢)

وفى صباح اليوم العاشر من يولية تلقى طلبه باشا انذارا نهائيا هذا نصه : « لى الشرف أن أخطر سعادتكم انه لما كانت الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الاسطول الذى أتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول نهار أمس فى حصون صالح وقايتباى والسلسلة ، فقد عقدت العزم أن أنفذ غدا ١١ الحالى عند شروق الشمس ما أعربت لكم عنه من عمل فى كتابى المؤرخ يوم ٦ الحالى وذلك ان لم تسلموا الى فى الحال قبل هذه الساعة البطاريات

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٥
(٢) ١١٦ .

الموضوعة فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى بقصد تجريدها من السلاح » (١)٠

هذه هى قصة النزاع بين بوارج الاسطول الانجليزى وقلاع الشواطىء بالاسكندرية أو أقصوصة الذئب والحمل فى صورتها الجديدة .

وما ندرى بأى كلام نعقب عليها وأى عبارات اللغة تفى بوصف سماجة السير بوشامب سيمور ذنب هذه الاقصوصة ؟

لقد قرر دى فرسنيه رئيس الوزارة الفرنسية فى كتابه المسألة المصرية أن المعلومات التى لديه « لم تكن بالخطورة التى تبدو من رسائل الادميرال سيمور بحيث أن ضرب الاسكندرية فى الظروف التى وقع فيها انما كان عملا هجوميا لا دفاعيا وقرر كذلك أن « سد البوغاز لم يشرع فيه فى وقت من الاوقات » (٢) ٠

وقد أرسل الادميرال الفرنسى كونراد الى حكومته يصف تحرش سيمور ويذكر أنه لم يشاهد أى عملية فى الحصون (٣) ٠

ويقول نينيه وقد حضر ضرب الاسكندرية : « انى أؤكد بشرفى ما تحققته اذ كنت أزور الحصون يوميا بصحبة كبار الضباط ، أنه منذ يوم مجىء أوامر السلطان بالكف عن الترميمات لم يطرأ أى تغيير على أية بطارية من جهة الميناء أو على البحر ، ولم يحصل أى ترميم فى الحصون ولم ينصب فيها أى مدفع جديد » (٤) ٠

ولايستطيع المرء أن يتصور كيف يكون تحصين أمة

---

(١) مصر رقم ١٦ ص ٤ ٠
(٢) المسألة المصرية ص ٢٨١
(٣) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٠ وثيقة رقم ١٦٢
(٤) الرافعى : نقلا عن كتابجون نينيه ـ عرابى باشا ص ١٤١

شواطئها تلقاء سفن اجنبية تتهددها عملا عدائيا يسوغ الشر والاعتداء ؟ ! ان مثل ذلك كمثل لص أراد أن يقتحم دارا وسلاحه فى يده والشر فى معارف وجهه ، فاذا تناول صاحب الدار شيئا يدفع به عن نفسه هذا العدوان ، عد ذلك منه حقا للص يسوغ له أن يقتله ويأخذ متاعه وداره ، وليس فى تاريخ العدوان كما ذكرنا اقبح من هذا ولا اشد منه فجورا ...

وكيف يجوز فى عقل أن تكون قلاع الاسكندرية هى المعتدية على بوارج الاسطول والقلاع لم تنتقل اليها لتضربها وانما جاءت السفن تهدد المدينة والمؤتمر الدولى قائم فى الآستانة ينظر فى المسألة المصرية ؟ !

أن من حق كل دولة ، بل من واجبها أن تعد وسائل الدفاع عن كيانها فى كل وقت وفى غير مناسبة معينة ، وتكون أكثر التزاما باداء هذا الواجب اذا هددها عدو ، ذلك ما لايستطيع أن يمارى فيه أحد .

ولكن الادميرال العظيم السير بوشامب سيمور ـ أو قل ولكن جلادستون زعيم الاحرار ـ وجرانفل السياسى القدير رأيا فى هذا الواجب الذى ثبت أن مصر لم تؤده فيما يتصل بحصون الشواطىء ، مسوغا لاطلاق نيران المدفعية على مدينة وادعة مسالمة كمدينة الاسكندرية . .
الا ما أتعس هذا الشرق المسكين !

ويزيد فى سماجة هذا التحرش السخيف من جانب الادميرال العظيم انه اعترف بأن أعمال الترميم أوقفت ، والحق أنه كان يظهر الهدوء ريثما ينقل الرعايا البريطانيون. فلما تم ذلك عاد الى انذاره ثم لم يكتف بما تقدم به أولى الامر حتى طلب تسليم بعض الحصون !

ولقد طلب تسليم بعض الحصون لانه من الممكن اقامة الدليل المادى على انه ليست هناك تحصينات وبذلك

تسقط حجته ان كانت هذه حجة ، وان ذنب الأقصوصة هذا ليعلم ان هذا التسليم لن يكون ، وبذلك تواتيه الذريعة السمجة المضحكة لضرب الاسكندرية ، ولقد ضربها سيمور وكوفىء على ذلك بأن أصبح اللورد السستر !

يقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية يصف عمل انجلترا : « ان عملها هذا كان يخشى منه عليها ، ولكنه افلح كما يفلح كل عمل وقح تقوم به دولة شديدة البطش والسلطان » .

وقال أيضا : « والحق انه لا شىء احط قيمة ولا اصرح نفاقا من الحجة التى شرع بها الانجليز فى ضرب الاسكندرية » .

وقال : « وهذه حجة أجاد تسخيفها المستر ريشردز فى البرلمان اذ قال : أجد رجلا يحوم حول بيتى وعلامات الاجرام بادية عليه ، فأبادر الى احضار الاقفال والمتاريس وأحكم سد نوافذى فيقول ان هذا اهانة له وتهديد ، ويحطم على أبوابى ، ويعلن انه انما فعل ما فعل دفاعا عن نفسه ليس غير » .

ولقد خطر لنا هذا الذى يذكره المستر ريشردز قبل أن نقع عليه ، ولا ريب انه يخطر على بال كل من يقرأ قصة هذا العدوان الغادر ...

ومما يزيد الامر غرابة ويزيد موقف انجلترا سخفا انها تجعل مما ادعته من اعمال التحصين «ظرفا قاهرا» لتدخلها فى الوقت الذى كانت قد فرغت فيه من نقل رعاياها من البلاد !

***

بعد أن أرسل سيمور انذاره النهائى الى طلبه عصمت ، أرسل كارتريت الى رئيس الوزارة المصرية يقول :

« سيدى الوزير : بناء على البلاغ الذى أرسله الادميرال السير يوشامب سيمور صباح اليوم الى قائد حامية الاسكندرية ، أرانى مضطرا الى أن أخلى قنصلية صاحبة الجلالة ، وأن اقطع فى الوقت الحاضر العلاقات التى كانت بين سعادتكم وبين شخصى بصفتى وكيل القنصل العام عن جلالتها فى مصر » .

والواقع ان العلاقات تعد مقطوعة بين الانجليز ووزارة راغب باشا منذ قيامها ، فقد قابلوها كما ذكرنا بالجفاء الشديد ، يتبين ذلك من ردهم على اخطار الحكومة المصرية اياهم بقيام هذه الوزارة اذ لم يزيدوا على قولهم انهم علموا بما أخطروا به ، دون أى عبارة من عبارات المجاملة المعتادة ...

وقد غادر مالت القنصل العام الاسكندرية منذ اليوم السابع والعشرين من يونية وأناب عنه كارتريت وغادرها أيضا كوكسن ابليس مذبحة الاسكندرية وشيطان يوم عابدين ، وأوعزت الحكومة الانجليزية الى أوكلند كلفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء ...

ويذكر بلنت فى كتابه أن رحيل مالت كان بمساعيه اذ كتب اليه صابونجى وكيله بالقاهرة يقول بضرورة اخراج مالت من مصر فكل الناس لاعنة وكلهم قاتله اذا بقى ، فذهب بلنت الى وزارة الخارجية والتمس نقل مالت الى احدى السفن وأجيب الى طلبه .

ومهما يكن من الامر فان الانجليز منذ مجىء سفنهم الى الاسكندرية كانوا يترقبون اليوم الذى يطلقون فيه مدافعهم على المدينة ...

اما الخديو فهو فى كنف الانجليز وحمايتهم منذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية بتاريخ اليوم الخامس والعشرين

من شهر مايو ، وذلك فى ظل السفن الاجنبية ، بل انه فى كنفهم منذ يوم عابدين ، أو فى الواقع منذ عملوا على تعيينه بعد خلع أبيه ...

لهذاكان يجارى وزارة راغبانتظارا لتدخلالانجليز، وكان فى الوقت نفسه يتعجل هذا التدخل وقد رأينا ما كان منه ومن عمر لطفى فى فتنة الاسكندرية ...

ولم يكن يضيره أى اتفاق مع راغب ، وهو يوقن أن العاقبة للانجليز ، بل لقد كانت مداراته راغبا ستترا لنياته أمام درويش حتى ينفض يده من كل ذلك عما قريب ويركن الى الغالبين ...

ولسنا نرسل هذا الكلام الخطير علىعواهنه ، ولسنا كذلك نكتفى بما سلف من مواقف الخديو وهى فى ذاتها براهين تثبت مانقول وخاصة قبوله المذكرتينالمشتركتين واحدة بعد الاخرى ، وقد جاء فى أولاهما اشارة الحكومتين الى بقائه على العرش و « ان سموه سيستمد من هذا التأكيد ما يحتاج اليه من الثقة والقوة لتدبير شئون بلاده وشعبه » (١) ، وقد كانت الثانية تدخلا فعليا فى شئون البلاد الداخلية ، ولا نقتصر على الاشارة الى موقفه من الحركة القومية الدستورية بوجه عام وشدة كراهته لعرابى بوجه خاص ، لا نكتفى بذلك كله وانما نعرض على القارىء نص البرقيتين الآتيتين :

كانت البرقية الاولى منكاتريت الى جرانفل فى اليوم السابع من يولية وفيها يقول : « اتشرف بابلاغ فخامتكم ان الخديو استدعى السير أوكلند كلفن هذا الصباح ليدلى اليه بالطريق الذى يقترح سموه اتباعه فى مواقف معينة تتصل بحركاته الشخصية . ان سموه يعتزم البقاء فى مصر اذا وقع الضرب ، فانه لايستطيع كما ذكر

(١) راجع ص ١١٦ من هذا الكتاب

ان يعتزل الذين وقفوا باخلاص الى جانبه أثناء المحنة ، كما لايستطيع أن يغادر مصر اذ تهاجمها دولة أجنبية لمجرد – كما يصح ان يقال – انه يريد ان يضمن سلامته الشخصية ، واذا حاولت تركيا الغزو ولقيت جيوشها مقاومة فان سموه ودرويش باشا سوف يعلنان الجيش انهما كرجلين من رعايا السلطان الموالين يعدان نفسيهما مقصرين فى أداء واجبهما اذا أقرا المقاومة وعلى ذلك فانهما يأويان بأحسن وسيلة ممكنة الى يخت درويش باشا ، وفى حالة ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول البريطانى سيأوى سموه الى قصر ترعة المحمودية حيث يرافقه درويش باشا . وكلما كان الفراغ من الامر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصيا . وقد كانت لهجة سموه أثناء المقابلة كلها هادئة وكان يضبط نفسه واختتم حديثه بأن رجا من السير أوكلند كلفن أن يطلع فخامتكم على ما اعتزمه ...

وانى أقترح فى حالة الضرب أن أبلغ درويش باشا قبل اقلاعى أن حكومة جلالة الملكة تلقى على عاتقه تبعة سلامة سموه الشخصية » (١) .

أما البرقية الثانية فهى من جرانفل الى كارتريت فى اليوم التالى وهذا نصها : « توافق حكومة جلالة الملكة على ما ذكرته فى برقيتك بالامس وهو انك ترى أن تبلغ درويش باشا فى حالة ما اذا أدت الضرورة الى ضرب الاسكندرية بأنك تلقى على عاتقه سلامة الخديو الشخصية » (٢) .

ولسنا بحاجة الى التعقيب بكلمة واحدة على كلام الخديو ، فما يأتى كلام أصرح من كلامه فى موقف كهذا

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩٧
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٠٢

الموقف وخاصة قوله : « انه كلما كان الفراغ من الامر كله أسرع قل الخطر الذى يتعرض له شخصيا » .

ولسوف يزداد شأن توفيق وضوحا فيما يأتى من الحوادث ان كان شأنه يحتاج الى وضوح ...

***

لم يكن هذا التحرش السخيف من جانب سيمور ليطرأ على بال أحد ، وخاصة لانعقاد مؤتمر الآستانة واتخاذه قراره بدعوة السلطان الى ارسال جيش الى مصر ، لذلك لم تأخذ وزارة راغب باشا أهبتها لتقوية مدفعية الاسكندرية واعدادها للقتال كما زعم الانجليز من مزاعم اتخذوها ذريعة لعدوانهم ...

وأراد راغب باشا أن يتلافى الخطب بكل ما فى وسعه فاستعان عقب تلقى الانذار بقنصل ايطاليا العام ليدعو زملاءه القناصل ابتغاء السعى لدى سيمور عسى أن يرجعوه عن عزمه ، واجتمع القناصل ولكنهم لم يستطيعوا عمل شيء لانهم كانوا على يقين ان ضرب الاسكندرية غدا أمرا مقررا ...

وأشار القناصل على راغب أن يذهب بنفسه لمفاوضة الادميرال ، فتوجه بصحبة عبد الرحمن رشدى بك وزير المالية ونجران بك سكرتير مجلس الوزراء ، وقابلوا سيمور على ظهر البارجة انفنسبل فوجدوا منه اصراره على انذاره فأعلنوه انهم سيرسلون ردهم فى المساء ، وتوجه راغب باشا لمقابلة الخديو ...

وعقد الخديو مجلسا من الوزراء وكبار رجال الدولة شهده درويش باشا ، لينظروا ماذا يكون جواب الحكومة على انذار سيمور .

وبعد أن تداول المجلس طويلا انتهت أغلبيته الى رفض ما طلب الادميرال ، وكانت المداولة فى أمرين : هل

تقبل مطالب الانجليز تجنبا للعدوان : أم هل ترفض ابقاء على الكرامة القومية وتفاديا للمذلة ؟

وكانت حجة القائلين باختيار الرأى الاول ان الحصون ضعيفة لا تجدى مقاومتها ، وان الحكومة اخذت على غرة فلم تأخذ للأمر أهبته ، وكان أصحاب الرأى الثانى يقولون ان العدوان واقع لا محالة سواء قبلت مطالب الانجليز أم لم تقبل ، فلن يعجز الانجليز عن تحرش من نوع آخر ...

ورجح رأى الفريق الثانى ، بيد ان الوزارة رأت أن تسلك سبيل الحكمة حتى آخر لحظة ، يقول عرابى فى مذكراته « تقرر بالمجلس المذكور بانه لايمكن اجابة طلب الاميرال المذكور لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين الى الابد حيث أن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما انشئت الا لحفظ الثغور ، والعساكر ما وجدت الا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية الى آخر رمق من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن . ولكن قفلا لباب الشر وقطعا لاحتجاجات الاميرال سيمور رئيس الدونمة الانجليزية رؤى أن يرسل له وفد مؤلف من عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وقاسم باشا وكيل البحرية السابق ومحمد كامل باشا وكيل البحرية حينذاك وتجران بك باشكاتب مجلس النظار ويتلطفوا معه فى المقال ويوضحوا بأن المصريين ليسوا أعداء للانجليز وانه لايمكن سد البوغاز بالاحجار كما قيل وانه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالاحجار عند شروعها فى العمل ان وجدت ... وأما انزال المدافع فهو أمر لايمكن قبوله

لما فيه من مخالفة قوانين البحرية ولما يتبع ذلك من الاهانة والمذلة . وانما يمكن اجابة لطلبه وفضا للاشكال تنزيل تلاثة مدافع من ثلاث طوابى أحداها طابية المكس والثانية طابية صالح والثالثة طابية برج السلسلة وأن يكتفى بذلك ردا لشرف الدونئمة كما يزعم ... فذهب الوفد وبلغ الرسالة ثم رجع وأبلغ بأن الاميرال المذكور لم يقبل ما عرضه عليه وصمم على وجوب انزال جميع المدافع ، كما طلب ، وانما تكرم بأن عافى عساكره البحرية من معاناة مشقة انزال المدافع وتخريب الطوابى وسمح للعساكر المصرية بأن يعانوا هذه الاعمال ويخربوا معاقلهم بأيديهم وزاد على ذلك انه يطلب من الحكومة أمرا صريحا باعطائه طابية المكس وما وراءها من الاراضى وطابية العجمى وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للعساكر الانجليزية وانه اذا لم يجب الى طلباته المذكورة باشر القتال عند طلوع الشمس فى يوم غد » .

ويؤيد ما ذكره عرابى ما أورده اللورد تشرشل فى اتهامه من هذا الموقف فقد اثبت نص برقية لمراسل المانشستر جارديان يذكر فيها ان الخديو عقد مجلس الوزراء برئاسته فى اليوم العاشر من يولية ، وكان عرابى غائبا عن هذا المجلس وقد قرر المجلس أن يرسل رئيس الوزراء الى سيمور يعرض عليه انزال ثلاثة مدافع اما من حصن واحد واما من ثلاثة حصون ، وابقاء على علاقات المودة بين الحكومة المصرية والامبراطورية البريطانية ، وكلف الخديو رئيس الوزراء بأن يكتب بهذا الى الادميرال فاذا رفض وأصر على ضرب المدينة فان الحصون لن تجيب الا بعد الطلقة الخامسة من البوارج ، وبعد ذلك يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين »(١)

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥

وأرســل الوزراء فى المســاء الرد الآتى على الانذار النهــائى : « لم تأت مصر شيئا يفضى بارســال هــذه الاساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمــل يســوغ مطالب الاميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الاســاطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا ، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانجليزية أنها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح، فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتلقى مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المبــاشرة التى تنجم اما عن هجوم الاساطيل أو من اطلاق المدافع على الامة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لاحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب »

وتأهب الادميرال العظيم لضرب المدينة ، ويجدر بنا قبل أن نصف هذه المأساة الشنيعة أن ننظر ماذا كان موقف فرنسا وقد كان لها أسطول بالاسكندرية ، ثم ماذا كان موقف تركيا وكان لها الحق فى مصر ...

فى اليوم الرابع من شهر يولية ابلغ اللورد لايونز سفير انجلترا فى باريس المسيو دى فرسنيه نبأ التعليمات التى أرسلت الى سيمور قبل ذلك بيوم باستعمال القوة ضد قلاع الاسكندرية ، وسأل السفير المسيو فرسنيه عما اذا كانت فرنسا سترسل مثل هــذه التعليمات الى الادميرال كونراد .

وكان كونراد قد أبلغ حكومته ما رأى وما علم ، وقد قرر ـ كما أسلفنا ـ انه لم يكن هناك أعمال فى الحصون كما ادعت انجلترا .

وعقـد فرسنيه مجلس الوزراء ، ولم تكن فرنسا رسمت لنفسها خطة بشأن هذا التحدى المفاجىء ، ولم يدر بخلد فرسنيه أن تجرؤ انجلترا على هذا العمل مهما بلغ من تطلعها الى الانفراد بضرب مصر ، وذلك لان المؤتمر قائم فى الآستانة يدرس كيف يكون التدخل فى شئون مصر ، وكانت تظن فرنسا أنها بهذا المؤتمر الذى اقترحته قد أخذت السبيل على انجلترا فجعلت المسألة المصرية مسألة دولية .

وكذلك كانت فرنسا مطمئنة الى أن الظرف القاهر الذى أضافه دوفرين الى مقترح السـفير الايطالى لم يظهر بعد ، وليس فى شئون مصر ما يدعو الى القلق ، وقد كان فرسنيه يقظا الى ان الانجليز يبالغون فى تصوير ما يزعمون من سوء الحال فى مصر ...

وقرر مجلس الوزراء الفرنسى لسـوء حـظ مصر الامتناع عن مشاركة انجلترا فيما هى مقدمة عليه ، وذلك لان هذا العمل يعد خروجا على مؤتمر الآستانة ، وهو يجر الى اعتداء لاموجب له على مصر ولايمكن عده عملا دفاعيا ، هذا الى أن الحكومة لم تعرض الامر على مجلس النواب الفرنسى ، ولايمكنها أن تدخل فى حرب بدون اقرار هذا المجلس .

وكتب دى فرسنيه الى السفير الفرنسى بلندن ليبلغ الحكومة الانجليزية قرار مجلس الوزراء الفرنسى وانه أرسل التعليمات للأدميرال كنراد ، انه اذا أصر القـائد الانجليـزى على ضرب الاسـكندرية فعليه أن يغـادر الاسكندرية بالاسطول الفرنسى ويرسو قرب بورسعيد.

وهكذا تخلى فرنسا السبيل لانجلترا لتنفرد بضرب مصر ، وكم لحقت بمصر النكبات من جراء ضعف السياسة الفرنسية ، ولم تنس مصر أن فرنسا بعد أن شدت أزر محمد على واغرته زمنا بالوقوف فى وجه انجلترا تخلت عنه أمام تهديد بالمرستون وتركته ينهار وحده ...

الحق أن فرنسا كانت تفطن الى أن انجلترا تريد أن تنفرد باحتلال مصر ، ولم تأنس فرنسا فى نفسها القوة لتناوىء انجلترا مناواة فعلية خشية ان يدب الخلاف بينهما وألمانيا التى ضربتها تلك الضربة القاصمة منذ اثنتى عشرة سنة فى حرب السبعين لم تزل لها بالمرصاد ولم يزل بسمارك يرمى الى اضعاف فرنسا حتى لا تنهض من كبوتها فتثأر لما لحقها من هوان .

لهذا تغافلت فرنسا على كره منها وأفسحت السبيل لانجلترا فأضاعت بذلك جهودها الدبلوماسية الماضية جميعا فى عرقلة السياسة الانجليزية ...

أما تركيا فقد تراخت وتهاونت فى الامر وأظهرت ضعفا وترددا وحيرة هى خليقة بدولة مثلها قامت على القوة والدسائس وعدمت الوسائل الدبلوماسية الصحيحة .

فى اليوم الثامن من يولية ابرق دوفرين الى جرانفل يقول : « أتشرف بابلاغكم أن وزير خارجية تركيا قد خرج لتوه من عندى ، وجاء يتوسل لاعتبارات انسانية أن تطلبوا الى الادميرال سيمور ألا يفعل شيئا يعجل الازمة فى الاسكندرية ، واجبته ان الامر كله بيد السلطات المصرية هناك ، وما عليهم الا أن يعملوا حسب ما طلب اليهم وبذلك فلن تطلق قذيفة واحدة ، ولاحظ سعادته انه ربما كان فيهم بعض ذوى النزق والحمق ،

فقلت : ولماذا لم يذهب السلطان بجنوده الى هنـاك ليجبرهم على النظام ؟ ثم ذكرت له انه اذا استطاع ان يدع لدى من الضمانات ما يؤكد لى أن السلطان سيفعل كما أردنا ، فان ما أدلى به الى فخامتكم بشأن مقترحاته سوف يلقى منكم الاعتبار الودى ، فى حين أن مجرد طلبه الذى أراد أن أبلغه اليكم لا يكون له الاثر المطلوب طالما انه لا يقوم على شيء ، فقال أنه لايملك أن يعطينى اى تأكيد فان المسألة تدرس الآن وأمله أن يستطيع يوم الاثنين أن يفضى الى بشيء ... ولم يقل أكثر من ذلك ولما الححت على سعادته قال : ان عرابى اتخذ سبيل العناد والواضح انه لا بد من عمل شيء »..(١) .

ومن هـذه البرقية يتبين لنا مبلغ ما فى السياسـة التركية من حيرة وتردد وما فيها من ضعف يتجلى فى هذا التوسل باسم الانسانية ، وترينا هذه البرقية الهامة كذلك مبلغ ما فى السياسة الانجليزية من لؤم وكذب ، فان استعداد الانجليز للرجوع عن ضرب الاسـكندرية اذا عمل السلطان كما يحبون فيه أبلغ دليـل على أن خوفهم من أعمال التحصينات المزعومة ومدهم ذلك ظرفا قاهرا للتدخل كان من أسخف الاكاذيب وأحطها ، وأن ضرب الاسكندرية كان نية مفروغا منها ...

وفى اليوم العاشر من يولية أبلغ دوفرين حكومة تركيا ما يأتى : « تتشرف سفارة حكومة جلالة الملكة بأن تبلغ حكومة الباب العالى بأنه بنـاء على استمرار السلطات الحربية فى مصر فى تسليح الحصون بالاسكندرية ، فان الادميرال الانجليزى سوف يعلن هذا الصباح أنه ما لم تسلم الحصون مؤقتا بقصد تجريدها من السلاح فانه

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٠٠٤

سيطلق مدافعه بعد أربع وعشرين ساعة » (١) .

وابرق فى نفس اليوم الى حكومته يقول : « أتشرف بأن أبلغكم انى ناشدت السلطان للمرة الاخيرة بكرة هذا الصباح ، وابلغته ان ما تلقت به حكومة جلالة الملكة تأكيداته من اقتناع قد قضى عليه قضاء تاما بسبب مسلكه بعد ذلك . وأجاب السلطان انه سوف يرسل الى فى الساعة الخامسة من صباح الغد اجابة مبوبة على رسالتى ، وفى نفس الوقت طلب أن يؤجل ضرب الاسكندرية فأجبت جلالته ردا على ذلك انى سأبلغ فخامتكم رسالته ، ولكن اذا رفضت الشروط التى طلبها الادميرال سيمور ـ تلك الشروط التى بلغتها الوزير صباح اليوم بناء على توجيهكم ـ فانه لايبقى لدى امل فى تعديل اتجاه ما اعتزم عمله » (١) .

وفى نفس اليوم العاشر ابرق جرانفل فى الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر الى سفرائه فى باريس وبرلين وفينا وروما وبطرسبرج والآستانة ، ليبلغ كل منهم الدولة التى يوجد بها أن « المسلك الذى سلكه أدميرالنا لم يكن الا عملا مشروعا لا أقل ولا أكثر للدفاع عن النفس ، وان عمله ، اذا أدى سوء الحظ الى العمل لن يكون رائده غير هذا دون أن يكون لنا اى مأرب خفى ، ولقد تبين من تقريره أن السلطات فى الاسكندرية مستمرة فى تدبيراتها العدائية على الرغم من أوامر السلطان ومن رغبة الخديو ، ومما ذكروه لنا مرارا من تأكيدات » .

وأضيف الى هذه البرقية عبارة لدوفرين خاصة وهى : « واننا نعتقد أننا نعمل وفق مصالح السلطان

(١) ص ١٢١
(٢) ص ١٢١

المفهومة حق الفهم ، وقد اغفلت سلطته فى مصر » (١) .

وللقارىء أن ينظر فيما فى هذه البرقية من حجة الدفاع عن النفس ومراعاة مصلحة السلطان ، واستمرار السلطات فى الاسكندرية فى تدبيراتها العدائيــة ، ليرى مثلا رائعا للسياسة الانجليزية كيف تلجأ الى الكذب الصريح فى سبيل تحقيق أطماعها الاستعمارية !..

وفى اليوم الحادى عشر ، وهو اليوم الذى حدث فيه الضرب ، ابرق دوفرين الى جرانفل فى الساعة الرابعة صباحا يقول : « حضر الى الآن سعيد باشا وزير الخارجية ليسلمني مذكرته المرسلة مع هذا... وليبلغني انه فى المساء يستطيع أن يقترح على حلا معقولا للمسألة المصرية ، وقد طلبت اليه ايضاحا ، فقال : ان كل ما عنده الآن أن الحل سيكون معقولا ، فقلت : انه لا مجرد دخول عضو تركى فى المؤتمر ولا مجرد العودة الى دعوه عرابى باشا الى هنا يكون حلا معقولا ، فعاد يكرر قوله ان الحل سيكون معقولا ، ورجانى ان ارسل اليكم والى الادميرال سيمور ما سلف فى الحال ومشفوعا بتوصية بقصد تأجيل الانذار لكى يدع ذلك متسعا من الوقت يسمح بأن تصل رسالة أخرى من الباب العالى الى فخامتكم ، فقلت : انى لم أمنح سلطة التدخل فى عمل الادميرال سيمور ، وان عبارة الحل المعقول من الغموض بحيث لا تدع لى أكثر من ان اعيد لفخامتكم ما قال بنصه ، وأضفت الى ذلك قولى انى على اى حال سوف أرسل الى السير بوشامب سيمور صورة برقية لمذكرة الباب العالى ولما طلبه منى أخيرا ، مقترحا انه فى حالة ما اذا كانت التعليمات المرسلة الى الادميرال تسمح له بالتأجيل ، أن يؤجل سعادته الضرب ثلاث ساعات أو

---

(١) ص ١١٤

أربع ابتغاء افساح الوقت لتصل اليكم رسالة الحكومة العثمانية اذا كنتم ترغبون أن ترتبوا عليها عملا ما ...
وقد جرؤت على أن أبين لسعيد باشا مبلغ ما كان فى التراخى الدبلوماسى من حمق وبين أيدينا مسائل عظيمة كهذه حتى أصبح من المستحيل ماديا أن نتدخل فى مجرى الحوادث » (١)

أما مذكرة الباب العالى فهذا نصها وكانت بتاريخ اليوم العاشر : « ردا على المذكرة الشفوية لسفارة صاحبة الجلالة البريطانية بتاريخ ١٠ الحالى والتى تلقاها الباب العالى بعد ظهر اليوم نفسه ، تتشرف وزارة الخارجية بابلاغ السفارة أنه وفقا لتلغراف أرسل اليوم من الخديو والماريشال درويش باشا ، قد أعلن سموه والحكومة المصرية أدميرال الاسطول البريطانى بالاسكندرية أن السلطات المحلية سوف لا تتعرض بمقاومة فى حالة ما اذا أقدم الادميرال على الضرب (٢)

ومن الجلى أن عملا كهذا اذا وقع يؤدى الى افتيات خطير على الحقوق الملكية لصاحب الجلالة الشاهانية السلطان وعلى مصالح الاقليم ، وان الحكومة الشاهانية لواثقة من أن مجلس وزراء سان جيمس اد ينظر الى ما ذكر نظرة الاعتبار الجدى يتخذ الخطوات التى تؤدى الى أن ينصرف الادميرال سيمور عن أى عمل من طبعه أن يفضى الى مثل هذا الوضع النهائى وأن يرسل اليه التعليمات بهذا المعنى ، وان الحكومة الشاهانية على أى حال سوف تتشرف باخبار سفارة صاحبة الجلالة البريطانية عن القرار الذى ربما وصلت اليه غدا الثلاثاء

---

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٣٢
(٢) يشير الى ان الرد على الانذار النهائى يكتفى بالقاء تبعة الضرب على الانجليز دون ان يذكر عدوانا بعدوان .

فى الليل بشأن رسالة السفارة السالف الاشارة اليها بأعلى هذا ، وبشأن البرقية الواردة من الخديو والمارشال .

وان الباب العالى ليرجو من مجلس وزراء سان جيمس أن يتكرم بسرعة ارسال التعليمات بما طلبنا أعلاه الى الادميرال » (١)

هذا كل ما فعلته تركيا ولا نجد فى المكاتبات الدبلوماسية أسوأ من هذه البرقيات التى تنطق بالحيرة والضعف والتسويف والارتباك ...

***

كانت مصر وحدها تتلقى ضربات الاحتلال الاولى ممثلة فى الاعتداء الآثم على الاسكندرية ، وسوف يبذل الوطنيون ما فى وسعهم تلقاء هذا الاعتداء وان كانوا ليوقنون أن قوتهم المادية أضعف كثيرا من قوة أعدائهم ، ولكن الحر اذا وجد نفسه فى موطن يوقن فيه أنه هالك لا محالة كان عليه أن يبذل ما فى وسعه من مقاومة انفة منه وحفاظا ...

ولكنا والاسف يملأ نفوسنا سنجد اول خطوة من خطى التخاذل فى مسلك الخديو توفيق منذ يبدأ الضرب وسوف يكون لمسلكه بعد هذا أبعد الاثر فى بث روح التردد والانقسام حتى يفضى الامر الى الهزيمة ، وعلى الذين يعنون بتاريخ مصر أن يذكروا أن وجود توفيق باشا على رأس حكومة مصر يومئذ كان العامل الجوهرى فى نجاح مدبرى الاحتلال ...

ثم انتقل الخديو فى عصر اليوم العاشر من يولية من سراى رأس التين فى موكبه الرسمى الى سراى الرمل ،

(١) رقم ١٧ ص ١٢٣

وسيبقى بها حتى يقع الضرب ويتبين عاقبته ثم يعود الى راس التين حيث يتلقاه سيمور ويعد له ترجمانا يلازمه ويضع البوارج على مقربة من القصر لحمايته .

وكان كارتريت قد أشار عليه قبل ذلك الحديث الذى أفضى به الى كلفن ، بأن يأوى الى احدى سفن الاسطول ولكنه رأى ان الوقت لم يحن بعد لهذه الخطوه الجريئة ، كما انه كان فى شك من العاقبة ...

يقول الشـيخ محمد عبـده : « ١١ يولية » أحد الميرالايات الذين فى معية الخديو قال له : ما مصـير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟

فأجاب الخديو : ستين سنة ... وهز كتفه .

فقال الضابط : لكن السكان سيحرقونها فارجو أن تتوسط لدى الاميرال ، والوقت لم يزل يسمح بذلك ، اطلب ذو الفقار وبلغه أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الـكفاية ...

فأجاب : فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس الفلاحين ، وسيذوق الاوربيون عاقبـة هروبهم مثل الارانب ...

ذهب الخديو من رأس التين الى الرمل ، والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا (١) .

ويقول بلنت فى كتابه بعد أن ذكر ما أفضى به توفيق الى كلفن : « كان هذا هو البرنامج الذى سار على وفقه الخديو ولم يخرج عنه الا فى انه لم يذهب الى قصر المحمودية وانما ذهب الى سراى الرمل على بعد ثمانية أميال من الاسكندرية وهو مكان أكثر أمنا فى حالة اطلاق النار من مدافع سيمور .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

وبعد الحرب بزمن قصير وقعت بطريقة غريبة على سبب تردد توفيق وذلك من مصدر له معرفته الوثيقة ، ولم يكن هذا المصدر غير اللورد شارلس برسفورد نفسه الذى قاد السفينة كندور من سفن المدفعية بالاسطول وقت الضرب والذى صار مارشال الاسكندرية بعد ذلك ، فقد ذكر لى أن الخديو فى لحظة من لحظات الصراحة غير عادية شرح له سبب بقائه فى المدينة أثناء الضرب . ولم يكن ذلك سوى انه كان فى حيرة شديدة اى المتحاربين سيصمد اكثر ازاء خصمه ؟ فقد كان الرأى السائد فى مصر ان السفن سوف تغرق ، ولقد ظل الخديو فى حالة من الشك الباعث على الخوف طول نهاره فى الرمل حتى لقد كان يهرول الى سطح القصر كل نصف ساعة ليرى ماذا كان من امرها ، ولما أن تبين فى المساء انها ظلت سليمة وان الحصون قد أسكتت ، عقد العزم عند ذلك فقط على أن يضع نفسه تحت حماية سيمور . . . وقد أدت تجارب برسفورد فى الاسابيع التى قضاها بالاسكندرية الى أن ينظر نظرة الاحتقار الى توفيق ، وأن يشعر بشىء من العطف على عرابى والفلاحين الذين نهضوا بأعباء الحرب على الرغم من انشقاق أميرهم » (١) .

فى الساعة السابعة من صباح اليوم المشئوم ، الحادى عشر من شهر يولية سنة ١٨٨٢ ، أطلق الادميرال العظيم السير بوشامب سيمور أولى قذائفه على مدينة الاسكندرية ، باسم الدفاع العادل المشروع عن النفس ، والدنيا كلها تشهد هذا البغى الاكبر ، وليس فيها دولة يتيقظ ضميرها لما تصبه انجلترا على الحركة القومية القائمة على السلام والدستور فى مصر !

---

(١) S,H' Blunt P,380;

كانت حصون الشاطىء تمتد من ناحية العجمى فى الغرب الى أبى قير فى الشرق وكان عددها نحو عشرين حصنا أو طابية كما كانت تسمى ويدخل فى ذلك اثنان فى داخل المدينة هما كوم الناضورة ، وكوم الدكة ...

واذا استثنينا الحصنين الاخيرين وهما من منشآت نابليون ، وقلعة قايتباى وهى ترجع الى القرن الخامس عشر كانت بقية الحصون من منشآت محمد على ، وقد ظلت على حالها منذ ذلك الوقت الا بعض اصلاحات أدخلها عليها اسماعيل ، وكانت مدافعها وتبلغ تسعة وعشرين ومائتين، قديمة الطراز ضعيفة ، قريبة المرمى، ولولا ان اسماعيل وضع فيها تسعة وأربعين مدفعا من المدافع القوية من طراز ارمسترنج ما صلح فيها للدفاع من شيء ...

وكان الاسطول البريطاني مكونا من ثماني مدرعات كبيرة وخمس مدفعيات وسفينة للطوربيد وأخرى لاعمال الكشف ، وكانت مدافع الاسطول ويبلغ عددها سبعا وسبعين من النوع الضخم القوى من طراز أرمسترنج .

والمعروف فى الحرب البحرية ان من أكبر الاخطار تعرض السفن للقلاع ذات المدافع القوية ، فشتان بين ما يستند الى الماء وبين ما يستند الى الصخر ، هذا الى ارتفاع القلاع وتمكنها وصلتها بما تطلب من العتاد والرجال ...

ولكن للسفن ميزة عظيمة على القلاع الضعيفة المدافع، فان السفن تستطيع أن تتجمع فتدك قلعة بعد قلعة ، فى حين أن القلاع لا تستطيع أن يدفع بعضها عن بعض... وكذلك كان الحال مع شديد الاسف فى قلاع الاسكندرية

وكان آلاى طوبجية السواحل يتألف حسب الاحصاء الرسمى من اثنين وستين وسبعمائة ألف رجل ما بين

ضابط وصف ضابط وجندى ، وكان يقودهم الاميرالاى اسماعيل بك صبرى... ولكنهم يوم الضرب كانوا دون ذلك كثيرا فقد ذكر عرابى فى مذكراته انهم كانوا لايزيدون عن سبعمائة .

وكان بالمدينة من قوات الجيش أربعة آلايات ، يكون اثنان منهما اللواء الثالث ويرأسه خورشيد باشا طاهر تحت قيادة الفريق اسماعيل باشا كامل ، ويكون الباقيان اللواء الثاني بقيادة طلبه باشا عصمت قائد حامية الاسكندرية ، وكان مجموع هذه الآلايات اثنى عشر ألفا من المشاة ...

أصدر عرابى باشا تعليمات الى صبرى فى الليلة السابقة للصباح المشئوم وأبلغه ان مجلس النظار قرر الا تجيب الحصون الا بعد الضربة الخامسة من الاسطول ، ووزع صبرى ضباطه على الحصون استعدادا للمعركة ، وكان يعاونه وكيله محمد بك نسيم الذى وكل اليه صبرى الدفاع عن الحصون الغربية ...

وكان عرابى ليلتئذ بالترسانة يصحبه محمود فهمى باشا وطلبه عصمت باشا ومحمد كامل باشا وكيل نظارة البحرية ...

ووزع عرابى حامية المدينة وراء الحصون من قلعة العجمى الى برج السلسلة وعهد الى أورطتين من الفرسان بالمراسلة بين الحصون ...

أجابت الحصون بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ، واستمر آلاى السواحل فى الدفاع وأبدى همة ونشاطا وحماسة وطنية شهد بها كثير من الاجانب ، وذلك على الرغم من عنف المدافع الانجليزية وشدة فتكها وعظم تدميرها ، ومهارة السفن الانجليزية فى الابتعاد والاقتراب والاعتصام بدخان كثيف يغطيها أثناء الضرب ، وشباك

قوية من الفولاذ كانت ترد عنها قذائف الحصون ...

واستمر الضرب من الجانبين حتى الساعة الحادية عشرة ، وكانت قذائف الانجليز تلقى النار والدمار على المدينة فى شدة مروعة ، وسكتت السفن قليلا ثم استأنفت الضرب وجاوبتها الحصون حتى الساعة الثانية بعد الظهر ...

قال صابونجى فى رسالة الى بلنت يصف هذا الضرب وقد كان فى سفينة على مقربة من الاسطول « فى صباح اليوم الثلاثاء عند الساعة السابعة تماما انبعثت أول طلقة على الحصون ، وقد كنت على ظهر السفينة سعيد على مقربة من الاسطول الانجليزى ... غادر درويش الاسكندرية بمجرد أن بدأ الضرب وأبحر الى حيث لايدرى أحد مكانه ، ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معى هذا الصباح وشهدوا الضرب كنت أنا وحدى الذى رجوت حسن الحظ والنجاح لعرابى وأنصاره. وعندما انبعثت أول طلقة تموجت فى الهواء القبعات والمناديل والايدى ، مشفوعة بالهتاف وعلامات الرضاء ، وكان الرجال والنساء وفيهم القساوسة على اختلاف درجاتهم متهللين جذلين يتنبأون بسقوط الحصون فى ساعتين ، ولكن شعورهم بالخيبة ما لبث أن ظهر . الساعة الآن الواحدة والنصف بعد الظهر ولم تنقطع النيران من الجانبين ، وان الدفاع يعد حتى الآن فائقا ، ولا يمكن لاحد أن يقول الآن ما عسى أن تكون النتيجة... أكتب اليك من ظهر السفينة وأنا أشاهد الضرب وأثبت كل ما أستطيع أن أراه ، ولكن ماذا عسى أن يرى المرء خلال سحب كثيفة من الدخان الا الرعد والبرق من المدافع.. لم يكن أصدقاؤنا وكذلك لم يكن حتى القناصل واثقين من عزم انجلترا على الحرب ، ولم أكن أنا واثقا من

ذلك » (١) .

واستأنف الاسطول الضرب بعد الساعة الثانية واستمر يرسل قذائفه الهائلة فى شدة حتى منتصف الساعة السادسة ، اى قبل غروب الشمس بنحو ساعة ، ثم نزل الليل وقد سكتت الحصون فلن تجيب بعد ، اذ قد دمرتها مدافع الاسطول تدميرا ... وتهدمت فى المدينة أبنية كثيرة ومساكن واحترق بعضها ، وقد هجرها كثير من أهلها منذ بدأ الضرب فى هرولة ورعب

وهكذا وقف المصريون وأن حاقت بهم الهزيمة موقف الدفاع والكرامة ، وليس يمارى أحد فى انهم فعلوا فعل القلة تحارب من تكاثروا عليها حتى تهلك او ينثلم سلاحها ...

وانه لما يذكر فى مواطن الفخر ما أظهره نفر من أهالى المدينة من الحمية والبسالة وخاصة النساء ، أشار الى ذلك عرابى باشا فى مذكراته فقال : « وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات »

وقال الشيخ محمد عبده : « تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الأميرال ومن أرسله » (٢) .

وقال محمود فهمى باشا : « ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حدث من غيرة الاهالى بجهة راس التين وام كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر

---

(١) Blunt, p. 556

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص٢٥٠

الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والقذائف هم ونساؤهم واولادهم وبناتهم والبعض من الاهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الاسطول » (١)

وقد وصف عرابى المعركة فى مذكراته فقال : «اطلقت الكسندرة مدفعها الاول فى الساعة السابعة والدقيقة أربعة وكان مركزها فى الطرف الشرقى من خط القتال موجهة نحو استحكامات رأس التين ...

وبعد ذلك بخمس دقائق بدت من جانب الانفنسبل علامة الحمل العام على استحكامات الاسكندرية فأخذت السفن مونارك وبينلوب والكسندرة وسلطان وسوبرب تطلق مدافعها على بطاريات رأس التين وطابية الفنار ، فأجابتها القلاع بنارشديدةحامية ، وقد أصاب السفينة مونارك من أسباب الانقطاع عن اطلاق النار أكثر مما أصاب غيرها ...

وكانت السفن الثلاث الكسندرة وسلطان وسوبرب تنتقل على التعاقب من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى وتطلق مدافعها علىالاستحكامات اطلاقا متواليا وتقدمت المدفعية سينت الى جهة رأس التين وأخذت ترميها بالنار .

وكانت السفينة انفلكسيبل تطلق مدافع أحد برجيها على رأس التين والآخر على حصن المكس وحذت حذوها المدرعة بينلوب وكذلك المدرعة تمرير .

ولقد أصاب طابية المكس نارا لا تبقى ولا تذر فتعطلت مدافعها ماعدا أربعة منها من العيار الاعظم فقد ثابرت على رمى سفينة الاميرال « انفنسيبل » وقد أحكمت مقذوفاتها الى هذه السفينة جيدا . وفى الساعة العاشرة

---

(١) البحـــر الزاخر فى تاريخ الاوائل والاواخر ص ٢٢٠

والنصف وقعت قنبلة على مخزن البارود الكائن فى طابية المكس فأشعلته وكان لدوى التهابه صوت هائل .

ولما بلغت حالة القتال الى هذه الدرجة عمد حصن مارابوت (١) الى الاشتراك فى الدفاع فوجه ناره على السفن الثلاث التى كانت مستقرة فيما داخل المضايق فانسلخت المدفعية كوندور عن المدرعة تمرير لعدم احتياجها اليها واندفعت نحو ذلك الحصن ترميه بنارها فاشتبك بينهما القتال شديدا ، وفى الساعة العاشرة والنصف قدم لنجدتها السفن بيترن وبيكن ودكوى وسينت واستمرت على القتال حتى تعطلت مدافع الحصن المذكور ولم يبق منها غير مدفع واحد صالح للعمل ...

ثم اتجهت السفن الاربع المذكورة الى ناحية الحصن واشتركت مع المدرعات فى تدميره فتركته أثرا بعد عين، وكذلك تقدمت السفن الكسندرة وسلطان وسوبرب على مسافة ٧٠٠ متر من حصن فاروس وطابية أطه واخذت فى اطلاق مدافعها عليها غير غافلة عن رمى بطاريات راس التين ببعض القنابل ...

وكان اسماعيل بك صبرى فى الطابية أطه يدير حركة القتال فى الحصنين المذكورين فصب على السفن السابق ذكرها من لهيب ناره ما اضطرها الى طلب النجدة من المدرعتين انفلكسيبل وتمرير وأبلى فى قتالها بلاء حسنا

وفى نحو الساعة الثانية بعد الظهر اندفعت قنبلة من السفينة انفلكسيبل نسفت مخزن البارود الكائن فى حصن طابية أطه . وعند الساعة الرابعة خمدت نار الحصنين المذكورين اثر تخريبهما وتعطيل أسلحتهما واستشهاد رجالهما .

---

(١) هو اسم آخر لقلعة العجمى

وفى الساعة الخامسة استأنفت المدرعتان مونارك وبينلوب اطلاق المدافع علىحصن نابليون والاستحكامات الواقعة فى داخل الميناء . وفى الساعة الخامسة والنصف انقطعت النار عن خط لقتال بناء على أمر الاميرال »...

وقال يصف المدافع المصرية : «ومنالاسف أنقاذفات المدافع القديمة كانت لا تصل الى السفن الانجليزية ومدافع الارمسترنج لم تكن لها المساطر التى بها تعرف المسافات وتحكم الاصابة بواسطتها اللهم الا مسطرة واحدة كانت فى محل التعليم بالعباسية «بالبوليجون» استحضرت ليلا وسلمت الى الشهم المقدام سيف النصر بك قومندان طابية الفنار فكان يطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل الى آخر ويحكم الاصابة بواسطةالمسطرة المذكورة ، فكانت معظم المدرعات التى تعطلت ، من جراء المقذوفات التى أحكم اطلاقها ، ولو كانت مدافع الارمسترنج كلها ذات مساطر لامكنها تعطيل المدرعات الانجليزية بما تقذفه من القاذفات الصائبة » .

ووصف جوننينيه ما فعله الادميرال العظيم فىقوله : « وكان رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفها فى احكام وحماسة أدهشت خصومهم الذين ظل عملهم الجهنمى متواصلا عشرساعات ونصف الساعة، دونأن يستطيعوا المباهاة بالنصر الحاسم ، وكانت تغطى المدبسة أثناء الضرب طبقات من الغبار والدخان وكان قصف المدافع يصم الآذان ... وكنا حين تبدد الرياح سحب الدخان نشاهد قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحرفىمنتصف المسافة بينها وبينسفنالاسطول ، وقد أدى رماة مدافع أرمسترنج عملهم على خير مايرجى وذلك على الرغم من ان مدافعهم كانت أقل عيارا من مثيلاتها من المدافع الانجليزية وقد اصابوا سبع مدرعات اصابات بعضها

خطير وبعضها ضئيل ...

وكانت سفن الاسطول تجرى ها هنا وهنا ترمى قذائفها وهى على مسافة بعيدة فتصيب الشاطىء ولا تستهدف للخطر ، وكانت كل قذيفة تزيد على المتر طولا وتزن ٤٨٠ رطلا وتحتوى على ٣٧٠ رطلا من البارود ، وكان ثمن كل واحدة منها ٧٠ جنيها ، وسقطت أولى هذه القذائف الضخمة فى قلعة رأس التين دون أن تنفجر فنظر اليها الجند والضباط ، وقال أحد الضباط مشيرا اليها : هلم أيها الاخوان لتشهدوا مثلا من انسانية انجلترا ، وقد ادى عبارته بلهجة تنم عن الذكاء والسخرية وضحك اخوانه جميعا ، وواجهوا ما يلقى عليهم باسمين

وكانت السفن الانجليزية تسير مثنى مثنى فى تؤدة وروعة تجاه كل طابية وتطلق عليها قذائفها حتى تدكها دكا ، وبعد ذلك تقترب منها شيئا فشيئا ، وتنسف ثم تفتك بالرجال فتكا ذريعا بنار المترليوزات المركبة فى ساريات البوارج ...

ولايسعنا الا ان نعترف بانها كانت مجزرة وحشية لا موجب لها ولا مسوغ ولم يكن الباعث عليها الا الشهوة الوحشية المتعطشة الى الدماء . وكنت أتوق الى ان أسال أولئك الذين كانوا يضربون ويطلقون مترليوزاتهم هل يستطيعون حين يعودون الى بلادهم ويتحلقون حول موائد الشاى فى بيوتهم أن يتحدثوا الى ذويهم عما فعلته تلك المجازر البشرية من الفتك والتخريب ؟ أنى لفى شك من هذا ، فأية اهانة لحقت الامة البريطانيه حتى تثأر من مصر على هذه الصورة الفظيعة ؟

ومع هذا فما كان أروع منظر الرماة المصريين الذين كانوا خلف مدافعهم المكشوفة ، كانما هم فى استعراض حربى لايخافون الموت الذى يحيط بهم ، وكانت معظم

الحصون بلا حواجز تقيها ولا متاريس ، ومع هذا فقد كنا نلمح هؤلاء البواسل من أبناء النيل خلال الدخان الكثيف ، كأنهم أرواح الابطال الذين سقطوا فى حومة الموت ، قد بعثوا ليناضلوا العدو ويواجهوا نيران مدافعه وكان القادة يزورون الحصون ويستحثون الرجال ، ولقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كبارا وصغارا ،

ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وانما كانت تثير الحماسة فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ، وهم فى مواقفهم البواسل المجهولون الذين لم يفكر أحد فيما تحملوا من آلام ...

وقد بدأ نقل جثث القتلى منذ الساعة العاشرة صباحا، وظلت عربات النقل حتى هبط الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة الى شارع محطة الرمل حيث المستشفى العسكرى ، وهناك كانت تدفن بعد المعاينة بغير احتفال فى المقابر المجاورة للمستشفى ...

وكان الجرحى ينقلون الى المستشفى على عربات النقل وكان مما يؤلم النفوس حقا منظر تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الاهالى أو الجند وقد شدوا بالحبال على ألواح من الخشب فوق العربات ، والدماء تقطر من أجسامهم ...

وكانت بعض الامهات يحتضن أبناءهن وهم يلفظون أنفاسهم وكانت النسوة يجرين جموعا خلف العربات نادبات صائحات ، يلعن من كانوا سبب هذه المجازر...

وكنت واقفا عند منعطف « الاجبسيان بار » فمرت أمامى عربتان تحملان جثث القتلى، ولمحتنى النسوة هناك فصحن مولولات واستنزلن على اللعنات ، اذ كن يلعن

كل انجليزى وكل أوربى ، وصرخن فى وجهى قائلات : اتقتلون ابناءنا وتتفرجون على جثثهم لا اقتلوا هذا ، اقتلوه» وكاد يحاط بى لولا ان رآنى أحد رجال الأمن فانقذنى وعاد بى الى دارى ، وقد قل رجال الحفظ ولم أعد ارى أوربيا واحدا فى الشوارع والحارات . فقد خيم السكون الرهيب على هذه الشوارع التى كانت عامرة من قبل بالناس زاخرة بالحياة حتى غدت كانما هى شوارع مدينة أودى بأهلها الوباء ...

وكانت الدكاكين والنوافذ والابواب مغلقة فى المدينة كلها ، وخيل الى اننى فى بلدة محاها الخراب الابدى ، وكانت قذائف الاسطول الضخمة تنصب على المدينة وتخترق أحياءها فى كل جهة ، وكانت تدور فوق رؤوسنا وهى تدوى فى صورة مفزعة ، وكانت تدمر المنازل هنا ، وتشعل النار هناك وترسل الموت الى كل مكان ...

وقد مرت من فوق سطح المنزل الذى كنت اقيم به تجاه حمامات كارتونى بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الانسانية الغربية » على حد تعبير أحد الضباط ، واصابت احداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض قصور الاغنياء على مقربة من شارع باب شرقى فهدمتها ، وقتلت الخامسة ١١ شخصا وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يقابل هذه القذائف الفتاكة شىء من جانب المصريين ، فقد رأى عرابى منعا للخراب الا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة فى الضرب لوجودهما وسط المدينة ...

وكنت أرى بمنظارى المقرب على بعد ١٨٠٠ متر على الاكثر طابية قايتباى أو ما تسمى قلعة فاروس ، قائمة بالمينا الشرقى فى اقصى حاجز الامواج الابيض ، وكانت هذه القلعة رائعة المنظر ببنائها الضخم وبروزها على

صخرة تحيط بها أمواج البحر ومخاطره فى ذلك البساط الازرق من مياه البحر الابيض المتوسط على صورة تنجذب اليها المشاعر... وكان يزينها مسجد بنى منذ سنة ١٤٥٠ للميلاد ، تعلوه مناره تعد من بدائع الفن العربى ومن تحفه ، مزدانة بالنقوش العربية الجميلة التى يقدرها أصحاب الفنون ... وكانت هذه القلعة هدفا لضرب شديد استمر منذ شروق الشمس حتى تخربت بين الساعة ١١ ووقت الظهر ... وكم كانت دهشتى اذ رأيت فى نحو الساعة الرابعة مساء سفينتين شامختين من سفن الانجليز ترابط غربى القلعة وتقذف نيرانها من جديد على هذا البناء الذى هوت معظم مدافعه وانقلبت على الارض ...

ولكن الانجليز الذين ضربوا قلعة برج السلسلة وقلعة كوم الدكة ولم تشتركا فى الدفاع ، قد أرادوا كما يبدو لى هدم هذا المسجد الجميل .

ولم يسكت المصريون تلقاء هذه الوحشية فأطلقوا بعض القذائف من مدفعين كانا لايزالان قائمين فى الجهة الغربية الشمالية من القلعة... ولكن قذائفهم لم تجدهم شيئا اذ قد انصبت عليهم القذائف الهائلة من السفن ، وقد أحصيت بنفسى اثنتين وثلاثين من هذه القذائف تصوب الى هذا البناء الاعزل الجميل وقد طاش نصفها فلم يصب الهدف تماما ، وكانت معظم القذائف تصيب الصخور فتنسفها وتذريها فى الهواء ، ثم اذا بها تنصب فى الماء وتنبعث ثانية فى دوى هائل فتبعث فى الهواء عمودا من الماء كأنه اعصار بحرى لا يقل ارتفاعه عن ٦٠ قدما ألا ما اشد روعة هذا المنظر ...

وهوى المسجد الصغير المسكين فى منتصف الساعة ٦ مساء وقد تهدم كله ووقعت أنقاضه على ١٢ جريحا

كانوا ياوون اليه فدفنوا تحت أنقاضه ...
ولقد شاهدت بمنظارى أولئك الجرحى التعساء وهم يأوون الى المسجد حيث ماتوا ، ولم يكن فى الامكان نقلهم الى المستشفى العسكرى نجاه برج السلسلة اذ كانت قذائف المترليوزات المعدة للاجهاز على الجرحى تنصب منذ الصباح متصلة كالمطر فتمنع الصلة بين القلعة والارض اليابسة على الرصيف الضيق الذى يصلها بالمدينة ...
وانفجر مخزن البارود فى قلعة الأطه بعد الظهر بوقت قصير فسكتت مدافع هذه القلعة التى امتازت بقوتها فى الدفاع ...
ووقف الضرب من جانب الاسطول فى نحو الساعة السادسة مساء ، وقد بث الادميرال سيمور الموت والدمار فى أنحاء المدينة وهو الذى تعهد الا يضرب الا القلاع ، ورأيت النيران تندلع السنتها فى جهات كثيرة دون أن يقوى أحد على اخمادها »
هذا ما ذكره جون نينيه السويسرى المحايد الذى شهد الحوادث بنفسه ، وأهم ما جاء فى كلامه شهادته ببسالة المدافعين وقوة روحهم المعنوية على الرغم من تفوق عدوهم عليهم فى عتاده ، ثم تقريره أن القذائف كانت تنصب على المدينة ذاتها وأنها أحدثت بعض الحرائق ، ولهذا القول أهميته ، لان الانجليز الذين دبروا من قبل مذبحة الاسكندرية والصقوها بعرابى وحزبه قد أحرقت قذائفهم المدينة اليوم فمادوا يتهمون بالحريق كذلك عرابى ورجاله !

***

اشتد ذعر الناس حين سمعوا المدافع ترعد وترسل صواعقها المدمرة على المدينة ولم يكن لهم عهد بمثل ذلك

من قبل وتعاظم الفزع حين سرت الشائعات بين الناس بما حدث من دمار وفتك وحين رأوا العربات تحمل جثث القتلى والجرحى ، ورأوا سحب الدخان من المنازل والابنية المحترقه تدفعها الرياح فى سماء المدينه . وزاد الامر هولا ما يصحب الانباء من مبالغات فى مثل تلك الاحوال ، على ان الهول فى ذاته كان يغنى عن التهويل، فحسب الناس أن تتساقط القذائف عليهم من السماء فتدمر بيوتهم تدميرا ...

لذلك لاذ الناس بالهجرة فهرولوا جموعا الى المحطة وتزاحموا على القطارات التى أعدت لنقلهم بالمجان ، ولم يتحمل كثيرون منهم التزاحم على القطارات فخرجوا من أبواب المدينة الى حيث يبتعدون عنها فحسب لايدرون أين يذهبون ولا يقعد بهم التعب من المشى عن طلب النجاة من الهول حتى نزلوا بالقرى والبنادر ، وبلغت أفواج منهم القاهرة فى حالة تبعث على الرثاء وتطلق عصى الدمع

وقد وصف الشيخ محمد عبده هذه الهجرة وكان مع عرابى بالمدينة يوم الضرب فقال : « نحو مائه وخمسين الفا من السكان مجردين من كل شىء أخذوا فى الحركة لغير قصد ولا لمأوى ، الموت والفزع ملء نفوسهم على شواطىء المحمودية الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة .

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة واخرى رقيقة ، متحركة فى كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا رعاية .. على طرفى تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة .

أما الهاربون فكانوا كالاعاصير أو كالماء انكسر سده فاندلق ، يتصل بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، فى

حالة عقلية أشبه بالجنون سائقين أمامهم او حاملين على ظهورهم ما خف حمله من أمتعتهم : حيوان ، أثاث ضئيل ، ثياب رثة ، حتى بعض المفروشات التى لا قيمة لها

فى هذه الحالة حالة شعب طرد من بيته ، كان الحر شديدا ، وغيم من الغبار سد الافق ، وأظلم الجو ، نساء يبحثن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ، يتضاربن فى أخلاط لايمكن التعبير عنه ، عربات بلا عجل استعملت مساكن ، عربات من كل نوع ، بعضها ساقط فى المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بالخيل وبعضها بغير خيل ، رائحة شواء اللحم ، صياح على المارة . الخبز ! الخبز ! » (١)

على أن بنى مصر قد أحسنوا ايواء المهاجرين وجادوا بالتبرعات أينما نزل فريق منهم ، وظهرت فى أجمل مظهر عواطف الوطنية المصرية فى القاهرة وفى القرى ، وعنيت الحكومة بأمر المهاجرين فاسكنتهم فى القاهرة مدرسة المبتديان بالناصرية وأمدتهم بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس ...

***

فى اليوم التالى عاودت الادميرال العظيم رغبة فى الضرب ، وقد أسكرته لذة النصر على تلك الحصون البالية كأنما هدمت مدافعه قلاعا اشتد خطرها عليه فأحس ما يحسه الابطال من نشوة بعد خوض الشدائد

وعادت مدافعه تضرب المدينة فى الساعة العاشرة وارسلت قذائفها على طابية قايتباى وطابية الاسبتالية

وكان مجلس الوزراء قد اجتمع فى اليوم السابق للنظر فى الامر برئاسة الخديو وحضره عرابى باشا ، وبعد أن تداول الوزراء والخديو قرر المجلس الاتصال بالادميرال

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ص ٢٥٢

وابلاغه ان ما كان يطلبه قد تحقق له بضرب الحصون فلا داعى بعد ذلك للضرب وانفض المجلس على أن ترفع فى الغد الراية البيضاء وهى راية طلب الهدنة للمفاوضة

ورفعت الراية البيضـاء على بعض الحصون وعلى وزارة البحرية ، فتوقف الضرب وذهب طلبه باشـا يصحبه ترجمان فصـعد الى ظهـر اليخت الخديوى «المحروسة» وهناك التقى بمندوب من قبل سيمور... فسأله هذا عما يريد من رفع الراية البيضـاء ، فأبلغه طلبه قرار مجلس الوزراء ، فأجاب المندوب فى صلف وسماجة بأن الادميرال يطلب الترخيص له بانزال جند من بحارة السفن لاحتلال ثلاث قلاع هى : العجمى ، والدخيلة ، والمكس ، فان لم يأته الرد فى الساعة الثانية بعد الظهر استأنف الضرب ...

وهكذا يأبى الادميرال العظيـم أن يتكلم الا بلسـان مدافعه ، فليس الامر أمر تفاهم وانما هو أمر قوى يملى ارادته على ضعيف لا يملك له دفعا ...

وطلب عصمت باشا ان يطيل الادميرال ما تفضل به من مهلة ليستطيع أن يبلغ الخديو رده ويعود اليه ... ولـكن سيمور رفض هذا الطلب ...

وذهب طلبه باشا فعرض الامر على الخديو، واجتمع لدى الخديو مجلس ضم الوزراء والكبراء ممن تصادف حضورهم واتفق رأى الحاضرين على انه لايجوز لمصر أن تسمح بنزول جنـود أجنبيـة الى البر ، وذهب وفد برئاسة طلبه باشا يبلغ سيمور هذا القرار ...

ولكن الوفد لم يجد أحدا يتصل به ، اذ عاد مندوب سيمور الىالسفن، وامر سيمور فى نحو الساعة الرابعة باستئناف الضرب فأرسلت انفنسبل قذيفة واحدة على قلعة المكس، فلم تجاوبالقلعة ، ثم رفعتالراية البيضاء

ثانية على بعض الطوابى ، فوقف الضرب ، وظلت السفن فى موقف القتال حتى الساعة السادسة مساء وأرسل سيمور سفينة الى الميناء وبها مندوب من قبله فلم يجد المندوب أحدا يتفاوض معه ، فعاد ينبىء الادميرال بأن المدينة تبدو وكأن ليس بها أحد ...

***

بلغ عدد الضحايا من المصريين فى الاسكندرية نحو الفين غير من جرحوا ، أما الانجليز فلم يزد قتلاهم عن خمسة وجرحاهم عن تسعة عشر ، وقد ذكر عرابى أنه استشهد من رجال الطوابى وحدهم مائة رجل ، وقتل هناك امرأتان من المتطوعات كانتا تعنيان بالجرحى...

أما السفن الانجليزية ، فقد أصيبت انفنسبل ثلاث عشرة اصابة عطلت ست الاجزاء غير المدرعة منها وجرحت واحدة ست رجال ، وأصيبت سلطان بثلاث وعشرين ضربة وأتلفت سواريها ومدخنتها ، واخترقت قذيفتان جدرانها غير المدرعة وتعطلت الزوارق الملحقة بانفلكسبل ، واخترقت قذيفتان درع سوبرب ومدخنتها وقد أصيبت عشر مرات وعطل فى بنلوب أحد مدافعها ، ولحق ضرر خفيف بالكسندرة على الرغم من انها أصيبت ثلاثين مرة وعطل مدفعان من مدافعها ...

***

وأما المدينة التى كانت تراوحها نسائم البحر الندية وتغاديها فقد اندلعت فيها ألسنة النيران فى صورة مروعة كأن الجحيم تزفر عليها بنارها ، وقد لبثت النار بها بضعة أيام ، وظلت سحب الدخان تتراكم وتنعقد فوق شوارعها الموحشة المتهدمة وخيمت الكآبة على الثغر الذى ماتت بسمته أياما طويلة نتيجة لعدوان سيمور..

ولقد ذهبت الآراء عدة مذاهب بشأن هذا الحريق ،

وقد حاول الانجليز أن يعزوه الى عرابى كما عزوا اليه من قبل مذبحة الاسكندرية التى اقترفوها ، على أن التحقيق فيما بعد قد براه منهـا كما براه من مذبحة الاسكندرية كما سيأتى بيانه فى موضعه ...

وذهب جون‌نينيه الى أن النيران‌كانت من فعل‌قذائف الاسطول ، قال عن‌اليوم الاول : « رأيت فى ذلك‌الصباح عددا كبيرا من القذائف يمر فوق دارى ، وسقطت بعض القذائف من ذات الحجم الاكبرتحمل‌اسم «الاسكندرية» فى الدار المجاورة لدارى ، وقد قتلت القذيفة الثالثة من القذائف التى مرت فوق دارى أحد عشر رجلا وجوادين عند باب محرم بك ، وهدمت وحرقت بيـوت كثيرة ومبان فى كل ناحية بفعل قذائف السفن » .

وقال عن اليوم الثانى : « كان عدد من قبيلة أولاد على ينهبون دكاكين المدينة وقد دخلوا اليها من ناحية القبارى أو باب عمود بمبى ، وقد رأيت كثيرين منهم قد قبض عليهم وصودر ما يحملون بأمر من سليمان بك سامى أثناء محاولتهم الهرب من المدينـة بمنهوباتهم ، وكان عرابى باشا قد أمر قبل مغادرته المدينة باغلاق هذا الباب لحراسة الشوارع الرئيسية وحفظ النظام فيها كما انه ترك فرقتين من الاحتياطى ...

وكان طلبة باشا فى الرمل بعد الظهر يفاوض الخديو، وكنت طوال ذلك الوقت فى حجرة ميس الضباط قرب باب رشيد ! وكان هناك‌كثير من‌الباشوات ، منهم محمود سامى البارودى ، ومحمود فهمى باشا ، وقد غادرت‌المدينة معهم وعدد من الاطباء والضباط عند الساعة السادسة لالحق بالجيش ... وبعد أن غادرت المدينة حملت الريح الدخان الى حيث كنا وكانت المدينـة تحترق فى عدة جهات ، ولم يكن فى المدينة نار حين‌غادرناها ، ولم يشعل

الجند نارا بالمدينة ، بل لقد بذلوا كل ما فى وسعهم لمنع امتداد النيران التى سببها الضرب ... ومن الممكن أن يكون بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا بالمدينة قد شاركوا البدو فى النهب ، وكان هذا مخالفا بالضرورة لاوامر عرابى باشا والضباط ... واستطيع أن أؤكد انه لم يخطر ببال عرابى باشا او احد من الضباط بأى حال أن مدينة الاسكندرية ستحرق بأيدى البدو أو غيرهم ، وانى أعلم أن عرابى ومن كان معه من الضباط أظهروا أسفهم ودهشتهم عند رؤية المدينة تحترق عقب مغادرتهم اياها وعبروا عن أملهم فى أن يبذل ذو الفقار باشا محافظ المدينة ومن اكبر أصدقاء الخديو ما فى وسعه لاخماد النار واعادة النظام » (١) .

ويقول نينيه فى موطن آخر من كتابه : «عرابى باشا» ان عدة عناصر اشتركت فى هذا الحريق ، منها بعض الاوربيين الذين بقوا فى المدينة بقصد النهب ، ومنها بعض الأروام والمالطيين من أصحاب الدكاكين كى يطلبوا بعد ذلك تعويضا كبيرا ومنها بعض البدو من قبيلة أولاد على وبعض عساكر الرديف ، وبعض الاشقياء الذين اخرجوا من سجن الترسانة ...

ويقول الشيخ محمد عبده : «بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد على ممن كانوا على صلة بالخديو ، ومنهم من أهالى الاسكندرية ، ومنهم أوربيون بقصد المبالغة فى التعويضات وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم » (٢)

وهناك من يذهب الى أن سليمان سامى داود قائد

---

(١) S.H. Blunt p. 557.

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص٢٥٢

الالاى السادس هو الذى أمر جنوده باضرام النـــار فى المدينة كعمل يقتضيه الدفاع اذ أراد به أن يعرقل نزول الانجليز الى المدينة ، أو لعله فعل ذلك بدافع الحمق والغيظ من عزم الانجليز على دخول المدينة . ولقد شهد عليه كثيرون أثناء المحاكمة ، وكانت أقواله هو دليلا عليه ففيها ما يشبه الاعتراف وخاصة اتهامه لعرابى بأنه هو الآمر بحرق المدينة ليتنصــل هو من التبعة يتبين ذلك فى مثل قوله :

س : هل كان عرابى أعطاك أمرا بالكتابة بحرق المدينة

ج . أمرنى شفويا ...

س : هل يجوز فى قانون الجهادية حرق مدينة بنــاء على أمر شفوى ؟

ج : لا يجوز .. وانا لم أفعل سوى ابلاغ ما نبه به « ثم قال أنه ليس متحققا ان كان القانون يجيز ذلك أم لا » (١) .

على أن عرابى فى مذكراته يعقب على أقوال ســليمان سامى فى التحقيق بقوله : « الحقيقة أن سليمان بك سامى لما شاهد هول تأثير مقذوفات ســفن الانجليز حدث له هلع وطيش اثر على مخيلتــه فصــار يتحفز ويميل لعمل غير العقلاء فبدرت منه كلمــات تدل على جنونه كقوله : احرق واضرب يا ولد فى حالة هياجه . وقوله : انى أمرته بكل ما يتخيله فى مخيلته . ولـكن اجمعت الشهود على انه لم يفعل من ذلك شــيئا وأنه خرج بالايه من المدينة قبل الغروب وانه ترك المنشية وخرج الى باب شرقى الساعة ١١ عربى ولم يعد اليهــا وأن الحريق لم يبتدىء الا بعد الغروب وبعــد خروج العساكر من المدينة كشهادة سعد بك أبو جبل وعلى بك

---

(١) محضر استجواب سليمان سامى

داود وغيرهم وان الحريق لم يكن الا من أوباش الخدم والبدو وغيرهم من الاوربيين والفقراء الذين تخلفوا فى مدينة الاسكندرية ليحصلوا على شىء من الصيد والغنيمة ولذلك لم يقل أحد بانه راى سليمان سامى يفعل الحريق بنفسه ولا بغيره ، وعلى ذلك يكون سليمان سامى ذهب شهيد شممه وغضبه والحساب على الله

وثمة راى على أعظم جانب من الخطورة ، وذلك أن سليمان سامى كان متواطئا وانه احرق المدينة بأمره ، وقد صرح بهذا الرأى فى مجلس العموم الانجليزى اللورد تشرشل فى حملته على وزارة جلادستون سنة ١٨٨٣ بعد اعدام سليمان سامى . قال صابونجى فيما أورده من كلام تشرشل ان هذا ذكر فى المجلس قوله : « ان الخديو الذى كان يرغب فى الذهاب الى الاسكندرية يوم الاحد ما استساغ الدخول اليها قبل موت سليمان سامى لا لكى يرى بعينيه شنق الرجل الذى أحرق الاسكندرية بأمره وطاعته « فلما قال اللورد تشرشل هذا الكلام قامت فى البرلمان ضجة أعقبتها دهشة » ثم قال لورد تشرشل : « ان الامر الصادر بحرق الاسكندرية كان مختوما عليه من الخديو نفسه وانا أطلب للميدان كل وزراء الحكومة الغلادستونية اذا كان فيهم من يتجرأ على أن ينكر هذه الحقيقة ، وانى أقول علنا ان مستر غلادستون ووزراءه وأحزابه قد ارتكبوا جناية من أقبح الجنايات فى قتل سليمان داود ، وان دم هذا الرجل على رأس مستر غلادستون وشركائه الى الابد وهم المطالبون به » (١) .

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة وقد أورد عرابى كلام صابونجى تحت عنوان : الفصل السادس فى أعمال البرلمان الانجليزى فى المسألة المصرية بقلم القس لويس صابونجى .

ومما ذكره تشرشل فيما أورده صابونجي أن الحكومة الانجليزية عجلت بشنق سليمان سامي قبل أن يبوح بأسرار خطيرة تدين الخديو ، وذلك لان محاميه طلب بدء التحقيق من جديد ومواجهته بمن شهدوا عليه ...

ومهما يكن من الامر ، فمن الخطأ أن يرد الحريق الى سبب واحد من الاسباب التى ذكرت ، والمعقول أن تسببه هذه العناصر جميعا ، وخاصة قذائف الاسطول وطيش سليمان سامي .

غادر عرابى الاسكندرية على رأس حاميتها ، فلندعه الآن ولننظر ماذا كان من أمر توفيق منذ أن أوى الى قصر الرمل ...

كان مما تحرص عليه الحكومة الانجليزية أن يظل الخديو منحازا اليها لتمشى عند الحرب بالتفرقة بين الامة ، لان من أكبر المخاطر عليها أن تكون الامة صفا واحدا حتى ولو غلبت على أمرها ، لان انجلترا فى مثل ذلك الوضع لا تستطيع أن تضرب فريقا بفريق كما تفعل فى الامم التى تستطيع أن تجعل منها معسكرين او أكثر

ويدلنا على اهتمام الانجليز بهذا الامر هذه البرقية التى وصلت من جرانفل الى كارتريت فى اليوم الثانى عشر من يوليو ، اى فى اليوم الثانى للاعتداء ، قال جرانفل : « رأيت أن ارسل اليك هذا لتعمل مع الادميرال السير ب. سيمور على بذل ما يمكن من المحاولات لاستحضار أنباء بشأن الخديو فان حكومة جلالة الملكة تحس كثيرا من القلق من جراء الاهتمام بسلامته ويشاركها أهل هذه البلاد » ...

وكان الخديو كما ذكر نينيه يهرول الى سطح القصر بين حين وحين فى اليوم الاول يستطلع أنباء القتال ، وكان يخشى جانب الجيش أشد الخوف لما يعرف منه

بينهم من أنه فى جانب الانجليز ، وقد نمى الى علمه أن عددا من عرب البحيرة بلغ نحو خمسمائة جاءوا فى اليوم الثانى للضرب الى مكان قريب من قصره ، فلما سئلوا عن سبب مجيئهم قالوا انهم جاءوا لنجدة الخديو فهم عبيده وخدمه ، ثم لم يقف لهم احد على أثر بعد ذلك

على أن هناك رواية مؤداها ان سليمان سامى قد أرسل الى القصر فى نفس اليوم نحو أربعمائة من الفرسان بقيادة البكباشى محمود منيب وكتيبة من المشاة وأحاط هؤلاء بالسراى ، فأوجس الخديو خيفة وأرسل يسأل القائد عن سبب وجود هؤلاء الجنود ، فأجاب بأنهم جاءوا لحماية الخديو والمحافظة على السراى .

وذهب بعض رجال السراى يذيعون فى انحائها انهم سمعوا من البكباشى منيب أن هؤلاء الجند جاءوا للقبض على الخديو وارساله الى القاهرة .

وذكر طلبة باشا فى محضر استجوابه أثناء المحاكمة أن وفدا جاء من قبل الخديو لمقابلة عرابى ، وأخبرهم عرابى أنه لا يعلم بما حدث وأرسل طلبه باشا لرفع هذا الحصار فرفعه ، ويقول طلبه انه قابل الخديو فقال له « لماذا احضرتم هؤلاء العساكر وحاصرتم السراى بهم هل انتم خائفون أن أهرب ؟ »

ويقول انه بعد عودته من السراى قابل عرابى وسأله عمن أمر بهذا العمل فأجابه بأن سليمان سامى هو الذى أصدر هذا الامر (١) ...

ويقول عرابى فى مذكراته : « وفى صباح يوم ١٢ يوليو جاءنا رسول من قبل الخديو يدعونا اليه فتوجهنا مع راغب باشا تلبية لدعوة الخديو وكان فى الرمل فأبلغنا بأنه قد حضر نفر من العسكر الى السراى وسألنى عن

---

(١) محضر استجواب طلبة باشا : مذكرات عرابى المخطوطة

سبب حضورهم فأجبته بأن لا علم لى بذلك ولعلهم حضروا لتقوية الحرس ، فقال : لا لزوم لذلك فان فرقه الفرسان الموجودة هنا كافية فأصدر امرا برجوعهم الى مكانهم . فتوجهت الى القشلاق ووجدت اربع بلوكات من آلاى سليمان بك سامى ومعهم الصاغ على افندى ابو غنيمة ـ أو هشيمة ـ فسألته عن سبب حضوره مع العساكر الى سراى الخديو ؟ فقال : ان حكمدار الآلاى سليمان بك سامى امره بذلك فحضر لتقوية الحرس الخديوى فأمرته بالعودة الى آلايه مع عساكره لعدم لزوم تلك القوة » .

وسواء كانت رواية طلبة أو رواية عرابي هي الصحيحة وقد تكونا صحيحتين معا ، فان ما يستخلص منهما ان سليان هو الذى فعل هذا ، ولقد كان سليمان من اكبر المتحمسين الساخطين على الخديو وعلى الانجليز ...

وفى اليوم الثالث عشر شاور الخديو من كان معه من الامراء والكبراء ماذا يعمل ازاء احتلال الانجليز مدينة الاسكندرية ، فلم يرض احد أن يبقى بها وأشار عليه درويش بالسفر الى بنها ثم الى السويس ، وأشار غيره بالذهاب الى العاصمة فما يليق بحاكم البلاد أن يظل مقيما فى بلد وقعت فى يد أعدائه .

ولكن هؤلاء كانوا يشيرون بذلك ، على أساس ان الخديو لا ينتوى شيئا ...

ولكن الخديو فاجاهم بقوله : « ان أهم الامور أن نجعل الاميرال سيمور على علم بأمرنا اذا أمكن لنا ذلك(١)

ويبدو أن الخديو ذهب بنفسه الى الميناء على ظهر يخت درويش باشا فى اليوم الثالث عشر من يوليو فقد أرسل سيمور فى هذا التاريخ برقية قصيرة نصها :

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

« علمت ان الخديو ودرويش باشـــا سالمان على ظهر سفينة فى الميناء » (١)

والذى نلاحظه ان الكتاب الازرق حريص كل الحرص على أن يقتصد ما أمكن فى ذكر حركات الخديو وخاصة ما يظهر نياته الحقيقية نحو الاحتلال ...

وفى اليوم الرابع عشر أبرق سيمور برقية جاء فيها : « لقد احتلت راس التين ووضعنا فيها بحارة ومدفعية كما وضعنا ست بطاريات تواجهها ، لاتزال الاسكندرية تحترق ، ولكنى أرفع الانقاض من الشوارع ، والخديو سالم فى قصره يحرسه ٧٠٠ من البحارة » (٢)

والواقع ان الخديو آثر أن يخطو الخطوة الاخيرة ، وقد اطمأن الى قوة الانجليز فانضم اليهم صراحة ، ونأى بجانبه عن السلطان ومندوب السلطان ، أما المصريون وقادة الحركة الوطنية فما كان يعترف بهم فى يوم ما

أرســل الخديو الى سيمور رسولا يخبره انه اعتزم الحضور الى سراى راس التين ومعنى ذلك انه اعتزم أن يكون فى رعاية الانجليز وحمايتهم وأنه اختار لنفسه ما يحلو له ...

قال بلنت يتحدث عن حصار قصر الرمل : « كان ذلك فى الواقع لكى يبقى توفيق تحت المراقبة وبقصــد أن يرسل اليه عرابى انه نظرا لان سيمور يهدد باعادة الضرب فانه يرى أن يسحب الحامية ، ويدعو الخديو الى أن يبتعد معهم عن مرمى مدافع الانجليز ومن ثم يذهب الى القاهرة... وكان يجب على عرابى بغيرشك أن يذهب بنفسه مرة ثانية ليرى ان هذه الدعوة لم تهمل لاى عذر من الاعذار ، وأن يحمــل معه توفيق بالقوة أسيرا اذا لزم الامر ، فان مثل باى تونس كان أمامه ،

---

(١،٢) مصر رقم ١٧ ص ١٤١ ، ١٤٢

وكان لديه مما جربه بنفسه من أساليب الخديو مايكفى لان يجعل من المستحيل أن يكل شيئا الى شرفه ... ولقد كان اهمال عرابى هذا الامر منالاخطاء الجسيمة.

على ان عرابى كان مشغولا فى الصباح بحركة اخلاء المدينة من الجند ، بحيث لم يكن لديه وقت ليذهب ثانية الى الرمل ، وتمكن الخديو بعد الظهر بما بذل من «بقشيش» — كما أخبر بذلك أصدقاءه الانجليز — أن يفلت من حرسه الى الاسكندرية فى نفس القطار الذى أرسل ليحمله الى القاهرة وهناك وضع نفسه صراحة تحت حماية سيمور ! وقد أخذ معه جميع من كانوا فى القطار بما فى ذلك درويش والوزراء ، وبذلك إظهرهم الى حد ما شركاء له فى خيانته » .

ويؤيد كلام بلنت برقية من كارتريت فى اليوم الثالث عشر من يوليو جاء فيها : « عاد الخديو من الرمل الى الاسكندرية فى الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم بعد أن ضمن ولاء الحرس والجند والفرسان الذين تركهم عرابى لمراقبته » (١)

وأرى ان اشارة بلنت الى « البقشيش » واشارة كارتريت الى ضمان ولاء الحرس تلقى ضوءا علىالرواية القائلة بأن البكباشى منيب انشق ومعه نحو ٢٥٠ من الجند الذين أرسلهم سليمان سامى ، وأعلن ولاءه للخديو وأقسم انه وجنوده يموتون بين يديه اذا دعت الضرورة (٢) ولئن صحت هذه الرواية ، رأينا فى هذا العمل أولى بوادر الانقسام وأولى خطوات الهزيمة فى الجيش المصرى .

وبلغ الخديو السراى فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٣ يوليو فاذا الحرس ببابها من جنود البحرية

---

(١) مصر رقم ٤ سنة ١٨٨٢ ص ١٥ (٢) مصر رقم ١٧ ص ٣٢٦

البريطانيين واذا بالادميرال سيمور يتلقاه فى ساحتها يحيط به عدد من كبار رجاله ، ولقد هنأوا الخديو بسلامته ، ودخل توفيق القصر ومن هناك سوف يعود الى عاصمة بلاده فى حماية جيش الاحتلال ، فيتلقاه فى قصره الثانى قواد الاحتلال مهنئين بسلامة الوصول كما استقبله فى الاسكندرية سيمور ...

وهكذا نرى الامة من أول الامر فريقين : أولياء الاحتلال وعلى راسهم الخديو ونفر ضئيل من المصريين، والمجاهدين الاحرار يقودهم عرابى ومن ورائهم الامة المصرية كبراؤها وعلماؤها وفلاحوها ... ونعود فنكرر القول ان موقف الخديو هذا سوف يكون أقوى عامل فى نجاح الانجليز ...

وبعد فهذه قصة العدوان الغادر على مصر ، قصة البغى الاكبر على بلاد كل ذنبها أنها تطالب بالحرية ، والحكم الدستورى اسوة باوربا المتمدنة ، ومن أعظم الامور اثارة للنفوس وادعاها الى الكفر بمدنية الغرب ومبادئه أن يأتى هذا العدوان على يد رجل مثل جلادستون... بيد أن المطامع الاستعمارية واقامة صرح الامبراطورية شىء ، ومبادىء القومية والحرية شىء آخر! ولكن متى يفهم ذلك المفترون بضلال أوربا ؟

على أن الحرية لا تعدم أنصارا حتى فى أحلك الساعات وان لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا، فقد استقال مستنكرا الضرب المستر جون برايت احد أعضاء وزارة جلادستون لان ضميره وذمته لم يتسعا لهذا العدوان الذى وصفه بانه « انتهاك صارخ للقانون الدولى ومبادىء الاخلاق»

ولقد احتج أحد نواب الاحرار على العدوان فى الثانى عشر من يوليو بمجلس العموم قائلا : « انه شناعة دولية وعمل ينطوى على القسوة والجبن والاجرام »

ويقول روثستين فى كتابه المسألة المصرية : « يا له من تدهور فى عالم الشهرة والمبدأ مؤلم للنفس وقد يكون أشد مما شاهدناه فى أيامنا مدة حرب البوير »
وقال كذلك : « ان انجلترا قد خرقت حرمة القانون الدولى واتت امرا همجيا لم يسبق له مثيل ، أمرا لو صدر من دولة أضعف منها لحوسبت عليه حسابا عسيرا » ...

***

وانه ليحلو لبعض الكتاب والمؤرخين أن يعيبوا على عرابى وانصاره انهم تركوا حصون الاسكندرية ضعيفة فلم تستطع مقاومة السفن الانجليزية بسبب ذلك ، ولا ندرى كيف يلقون هذا القول ولا يتذكرون انه طالما كان الخديو فى صف الانجليز والفرنسيين منذ حضرت سفن الدولتين ، لم يكن فى وسع الوطنيين عمل شىء ، ولقد قبل الخديو المذكرة المشتركة وقبل استقالة الوزارة الوطنية بمجرد أن واتاه شىء من القوة ...
الا فليعلم هؤلاء العائبون أن الخلاف الداخلى الذى فصلنا قضيته كان سبب كل ضعف ، وماذا عسى أن يصنع حزب وطنى فى البلاد يخاصمه الخديو من أجل تمسكه بالحكم المطلق ورغبته فى القضاء على الدستور؟
هل كانت تستطيع وزارة البارودى أن تعد العدة لمحاربة انجلترا والخديو الذى يملك حق ابعادها عن كراسيها فى صف الانجليز ؟
على أن عرابى قد بذل فى وزارته جهدا محمودا فى اصلاح الحصون ولولا اسقاط وزارة البارودى لكان يرجى أن يسير فى هذه السبيل حتى يتم ما بدأه (١)
لقد قامت القيامة وأنذر الانجليز الدنيا بالويل لنبأ

(١) راجع ص ١٣٤ من هذا الكتاب .

من مفترياتهم هم ، الا وهو ما زعموه من تحصين فى قلاع الاسكندرية واتخذوا من ذلك وسيلة لانذارهم مصر ثم الاعتداء عليها ، فكيف يجوز فى عقل عاقل أن يقال أن الوزارة ملومة لانها لم تقو الحصون ؟

***

فاذا أضفنا الى ذلك ان عمل انجلترا كان مفاجئا لا لمصر وحدها ولكن للمؤتمر الدولى القائم فى الآستانة تبين لنا مبلغ ما فى هذا اللوم من ضعف وسخف ...

على ان الوطنيين قد جاهدوا فى الوطن حق جهاده وأبوا أن يسلموا بما طلبت انجلترا الا مكرهين ، ولم يفروا أو يتخاذلوا من ضعف أو مباغتة ...

والآن بعد ان اقدمت انجلترا على عملها الاجرامى المعدوم النظير ، وبعد ان القى الخديو بنفسه فى احضانهم ستجاهد الامة المصرية اصدق الجهاد ، وستعد ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل ، وستبدو وطنيتها وحميتها قوية رائعة على الرغم من قعود نفر من بنيها من الامعات والمستضعفين والطامعين ...

# عرابى بطل الجهاد

رأى عرابى نية الخديو قبل عودته الى رأس التين ، وانه ليعلم ما يكنه توفيق فى نفسه للحركة القومية منذ يوم عابدين ...

لذلك أيقن عرابى وأصحابه أن الحرب غدت أمرا محتما بين الامة المصرية وبين انجلترا ، ورأوا أن الاسكندرية لا تصلح ميدانا للقتال ، وان الدفاع عنها بعد تحطيم حصون الشواطىء مستحيل : وهو أكثر استحالة بعد انضمام توفيق الى الانجليز ...

وكان الخديو يأمل ان يدافع عرابى زمنا عن قلعة العجمى ، وبذلك يستطيع الانجليز ان ينزلوا جندا يقطعون عليه الطريق ويأسرونه فى الاسكندرية ، يقول بلنت فى ذلك : « لقد كان جيشه جيشا مكسورا ، ولو انه لم يفقد روحه المعنوية الا انه كان من السهل ان يصل الى ذلك لو أن قوة صغيرة نزلت من السفن واستولت على السكة الحديد وقطعت طريق ارتداده ، ولقد كان من المؤكد فى خطة الانجليز انهم كانوا يريدون تطويق عرابى اذا أمكن ، وربما كانت تلك الحمية التى بدت فى الدفاع على غير ماكان منتظرا ، أو كانت خدعة الراية البيضاء هى التى حالت بين سيمور وبين انزال جنده » (١) .

---

(1) S.H. Blunt p. 390.

ولذلك حنق توفيق على عرابى لانسحابه ، ولم يكن مبعث حنقه انه ترك المدينة بغير دفاع كما سيزعم عند الضرورة . قال عرابى فى تقريره الذى كتبه الى محاميه المستر برودلى فى السجن : « أصدر الخديو أمره فى مجلس الوزراء الى جنودنا ليحتلوا قلعة العجمى ويمنعوا نزول الجنود البريطانية ، فافهمت سموه ان المشاة لايستطيعون ذلك لانهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيرا ويكونون عرضة كذلك لان يقطع عليهم الطريق الى الاسكندرية ، فظهر على الخديو الغضب وقال : « لماذا تسمون انفسكم جنودا اذا كنتم لا تستطيعون ان تمنعوا عدوا من ان ينزل جنوده فى بلادنا ! » (١)

لذلك انسحبت الحامية لتتخذ مكانا حصينا يصلح لاقامة خطوط الدفاع عن داخل البلاد ، وقد اتخذت جهة كفر الدوار موقعا لهذا الدفاع .

وهكذا ينتقل تاريخ الثورة القومية الى فصل جديد هو الحرب بين مصر الناهضة بالامس القريب مما رزحت تحته زمنا طويلا من الحكم الفردى المطلق ، والتى لم تستوف أسباب القوة المادية بعد ان حطمت الدول قوى محمد على ، وبين انجلترا ذات الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس !

ولم يكن أمام مصر الا ان تختار احدى سبيلين : التسليم بالاحتلال وما يقضى به على نهضتها القومية الحرة وقبول هذه المذلة طائعة مختارة ، أو الحرب التى تبذل فيها الاموال والانفس والتى تنتهى اما الى نصر يتحقق به كل شىء ، واما الى هزيمة تذهب بكل شىء الا الشرف والكرامة ...

واختارت مصر السبيل الثانية تحت راية عرابى ،

(1) How We Defended Orabi p. 127

وتركت للخديو ومن شايعه السبيل الاولى ، وما كان لعرابى وأصحابه أن يفعلوا غير ما فعلوا والا كانت حركتهم القومية ونهضتهم الاصلاحية هزرا ولعبا من أول الأمر ، وماكانت لعمر الحق الا الجد كأعظم وأجمل مايكون الجد

يقول بلنت فى هذا الصدد : « ان خير صفات عرابى كما اعتقد هى اصراره على الا ينصرف عن وضع كان هو الاصل فى اعلانه وذلك انه وان كان على استعداد لان يسالم الدنيا كلها ، الا انه كان يرى من واجبه أن يدفع عن وطنه كل عدو مغير .. وبهذا قد أدى لبنى وطنه فى تلك الاسابيع خدمة لا تقدر ، خدمة أرى أن من الحق أن يذكر بها ، فليس هناك شىء أكثر يقينا من أنه لو كان عرابى أقل عنادا مما كان فى رفضه التهديد أو الرشوة (١) عندما طلب اليه مغادرة مصر ولم تنشب الحرب تبعا لذلك ، لبقى الفلاحون كما كانوا سنة ١٨٨٠ عبيدا لسادتها الاتراك وعبيدا للأوربيين ، وماذا يرى أى وطنى ما كان يمكن أن ينتج من اذعان عرابى ؟ أهو حرية من أى نوع ؟ أهو استمرار لحكم الشعب نفسه ؟ أهو حكم أجنبى أخف وطأة مما هو عليه الآن ؟ (٢) لاشىء من ذلك يقينا . ان ما كان ينتج يتضح فى النظام الذى أقيم فى القاهرة عقب الحرب ، أنه كان لايخرج عن نوع من استبداد الشرطة والغدر والعقوبات الخفية ، دون أن يخفف من ذلك أى اهتمام بعد بالقومية المصرية كما ينظر اليها بالمعنى المفهوم فى أوربا ، ومن الممكن من الوجهة الشكلية انه كان يسمح لمجلس من الاعيان أن يظل يعقد بعض جلسات ، من قبيل ما يسمى هيئة استشارية ،

(١) قيل ان بيت روتشلد تعهد أن يدفع له معاشا ضخما اذا هو غادر مصر حسب المذكرة المشتركة .

(٢) يقصد الحكم الاجنبى بعد الاحتلال فقد صدر كتابه سنة ١٩٠٧

ولكنه لن يكون ذا قوة كما انه لن تكون اه قط روح وطنية . وكان يعاد الحكم الشركسي اشـــد مما كان ، وكانت تحرص الرقابة المالية ـ وقد قويت شـــوكتها بسلطة سياسية جديدة ، واهتمت بأمور مالية ومصالح أوربية بحتة ـ على ألا تحرر الفلاحين من سادتهم الاتراك وقد غدا هؤلاء الاتراك عبيدا لاوربا ، وكانت تذهب أسطورة الحركة القومية للفلاحين هباء فى صورة مشينة لان الشعب الذى لم يجرؤ قط على الدفاع عن وجوده جدير بالاحتقار... وكانت المطبوعات القومية تهوى الى مثل ما هوت اليه فى تونس ، وكان لا يجد المرء اثرا للحرية المدنية ولا للحرية الشخصية ولا لاى اعتبـــار للحقوق القومية ، وكانت مصر فى الواقع ترى كما رؤيت سنة ١٨٨٣ أرضا لايستطيع المرء فيهـــا أن يزيد على الهمس ولا يأمن جاره أن يشى به ...

وقد خلص عرابى بنى وطنه على اقل تقدير من هذا كله ... ولئن لم يتفق لهم أن يروا فيه جنديا كما راوا فيه وطنيا ، فانه انقذهم من وصمة شنيعة ، وتلك انهم لم يحاربوا قط فى المرة الوحيدة التى اتيحت لهم فى مدى تاريخهم حين واتتهم الفرصـــة ليـــدافعوا عن حريتهم » (١) .

وان عبارة بلنت هذه لتلخص القضيةكلها ابلغ تلخيص واجمله وما نجد خيرا منها نســـوقه للذين ينعون على عرابى انه حارب ، ويقولون فى سذاجة مثيرة انه حارب فجلب البلاء على مصر ، كانما كانت هذه الحرب لعبة طرات على خياله فلعبها ... او هكذا يفكر هؤلاء كما يفكر الصبيان ...

وقفت مصر اذن تدافع عن حريتها وعن شرفهـــا ،

(١) S. H. Blunt p. 283-84

وتخوض حربا لاول مرة فى تاريخها تحت قيادة فلاح من أبنائها يعاونه فى القيادة فلاحون مثله ، فاما الى النصر واما الى القبر ... وهى فى أقل ما توصف به مظاهرة للشرف والكرامة ...

***

أعلنت الاحكام العرفية فىمصر ابتداء من اليوم الحادى عشر من يوليو فقد أرسل راغب باشا الىجميع المديرين برقية هذا نصها : « حيث ابتدأت الحرب بيننا وبين الانجليز فبمقتضى القانون تكون الادارة تحت أحكام العسكرية ، والخيول والبغال الموجودة جميعها بالمديريات والمحافظات ترسل لديوان الجهادية بأثمان موافقة على الجهادية فليسرع بالمبادرة بارسالها » (٢) .

وهذه البرقية صريحة فى ان الحرب ابتدأت بين مصر وبين الانجليز ، وصدورها من رئيس مجلس الوزراء لن يكون الا باذن من الخديو ...

ومنذ أن قرر الخديو ومجلس وزرائه رفض الانذار النهائى تعتبر البلاد فى حالة حرب مع انجلترا ، وقد أصدر الخديو أمره الى عرابى باشا بدعوة ٢٥٠٠٠ من الاحتياطى بالاقاليم ، هذا وأن القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء فى اليوم العاشر من يوليو ، ذلك المجلس الذى كان عرابى غائبا عنه ، والذى أشار اليه اللورد راندلف تشرشل فى مجلس العموم متعجبا من أن الكتاب الازرق أغفل نشره ومبينا أن مرد ذلك الى أنه صريح فى أن توفيق أعلن الحرب على انجلترا ، نقول ان ذلك القرار كان ينص نصا صريحا على أن الحصون سترد على ضرب الادميرال بعد القذيفة الخامسة من جانب

---

(٢) الوقائع المصرية عدد ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢

السفن (١) ...

ولينظر القارىء بعد هذا فيما كان من راغب وتوفيق فى هذا الجهاد القومى الذى لم يكن لعبة لاعب وانما كان حياة أو موتا لامة ...

أرسل راغب باشا فى اليوم الخامس عشر من يوليو الى وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يطلب اليه أعادة المهاجرين الى الاسكندرية لان الحالة قد تحسنت وأن « جميع من خرجوا من البلد جار رجوعهم اليها وان أبوا العودة أرسلوهم ولو جبرا » (٢) .

وكان راغب باشا يريد ان يقول ان البلاد ليست فى حرب مع الانجليز مع أن الانجليز قد احتلوا الاسكندرية فعلا منذ غادرتها الحامية واتخذوها قاعدة يزحفون منها الى داخل البلاد ...

وهكذا ينقلب راغب فاذا هو من الامعات ، واذا هذا الشيخ الذى نيف على السبعين يختار أن يختم حياته اسوأ خاتمة ...

ولم يقف راغب عند هذا ، بل كتب فى اليوم السابع عشر من يوليو الى الادميرال سيمور يقول ، وما اسخف وأشنع ما قال ، لى حظ الشرف أن أعلن لحضرتكم أن عرابى يشتغل الآن باعداد وسائل للدفاع، وذلك مخالفة لاوامر الجناب الخديو ، وقد صدر له الامر بالكف عن هذه التجهيزات ، فكونوا اذن على علم بأن الجناب الخديوى عزم على عزله من وظيفته ، فهو لذلك وحده المسئول عما يحدث ، فأرجوكم أن تعلنوا

---

(١) أورد برودلى كذلك هذا القرار فى ذيل ص ١٢٤ فى كتابه كيف دافعنا عن عرابى

(٢) الوقائع المصرية ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢

مآل هذه الرسالة الى حكومة جلالة الملكة » (١) .

وان المرء ليتملكه العجب والاسف معا . بل الحزن العميق ، ان يرسل رئيس وزارة مسئول كلاما كهذا الى ادميرال دولة اجنبية معتدية لاتزال أرض الوطن مخضبه بدماء من فتكت بهم قذائفها فى غير مسوغ !

وهل غدا سيمور حاكم البلاد الشرعى حتى يكتب له راغب هذا الكلام ؟ كلا فلن يزال توفيق حاكمها الشرعى من قبل السلطان الذى عينه ، ولكن سيمور قد غدا صاحب النفوذ الفعلى فى الاسكندرية على الخديو الذى لاذ به وعلى الوزراء الذين أصبحوا منذ أن صحبوا توفيق الى رأس التين أشبه بسجناء فى المدينة ...

وليس أدل على ما بات لسيمور من سلطه من ذلك المنشور الذى أصدره باسم الخديو فى اليوم السابع عشر من يوليو يحث فيه الناس على الهدوء والنظام ويعلن اليهم انه مكلف بذلك من جانب الخديو ...

وهكذا أخذ الانجليز يخطون خطواتهم نحو احتلال البلاد والسيطرة عليها باسم الخديو والدفاع عن الخديو الحاكم الشرعى أمام العصاة الثائرين من بنى شعبه ، تلك الدعوى التى ادعوها منذ حضور سفنهم ، والتى ألقوها فى روع الخديو منذ يوم عابدين ...

ولن يفسر عمل راغب الا بأنه تم بعد اتفاق بينه وبين سيمور وتوفيق ، وهذه بديهية لا تحتاج الى دليل...

وأدهى وامر من فعلة راغب وادعى الى الاسف والالم والدهشة جميعا برقية الخديو الآتي نصها والمرسلة فى اليوم السابع عشر من يوليو الى عرابى بكفر الدوار حيث أخذ يبنى خطوط الدفاع عن الوطن فى نشاط وبسالة ،

---

(١) مصر للمصريين ج ٥ ص ١٢٧ . وقد اشار كارتريت الى هذا الكتاب كذلك فى مصر رقم ١٧ ص ١٦٨

قال توفيق ، وما اعظم ما تحس النفس من الم وثورة تلقاء ما قال : « اعلموا أن ماحصل من ضرب المدافع من الدونمة الانجليزية على طوابى الاسكندريه وتخريبها ، انما كان السبب فيه استمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها ، والآن وقد حصلت المكالمة مع الاميرال ، فأفاد أنه ليس للدولة الانجليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة ، وأن ماحصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونمة ، وانه اذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة الاسكندرية اليها ، ولذلك اذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الانجليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة ، فقد تحقق من هذا أن الدولة الانجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وانه تقرر من كافة الدول المعظمة بالقونفرانس (١) بأنه لايصير مس امتيازات الحكومة المصرية ولا حريتها ، ولا مس حقوق الدولة العلية ، بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت ، وأن يصير ارسال عساكر شاهانية لاجل استتباب الراحة بمصر ، فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا ، وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لاجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار » (٢)

وفى هذه البرقية العجيبة الذى لاينتهي عجبنا منها يحمل توفيق عرابيا تبعة ضرب الاسكندرية ويعلن حسن مقاصد الانجليز وأنهم لايبتغون الا الخير لمصر ! ويقول :

---

(١) المؤتمر

(٢) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

« أن سبب الضرب يرجع الى الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها » .

وتناسى الخديو انه أرسل برقية الى السلطان فى اليوم السابع من يوليو ينفى فيها حدوث هـذه الاعمال التى يشير اليهـا ، ويقول : « ان التـأكيدات ارسـلت الى الادميرال بنفيها » (١)

وكانت دعوة عرابى الى الاسكندرية خدعة مكشوفة لا تجوز على أبسط الناس عقلا ، بغية القبض عليه بحجة انه ثائر متمرد خارج على ارادة الخديو داع الى الفوضى ، ولسنا بحاجة الى تلمس الدليل على صحه ما نقول ، فحسبنا أن نورد نص البرقية الآتية التى ارسلها كارتريت الى جرانفل فى اليوم الخامس عشر من يوليو ، قال : « قلت النار قلة محسوسة ، بعود الاوربيون الى المدينة انشىء شرطة من الوطنيين ليعملوا مع البحارة الامريكان أبرق عرابى باشا هذا الصباح من كفر الدوار الى الخديو يقول انه سوف يسر سموه أن يعلم أن الرديف قادمون ليساعدوه فى محاربة الانجليز وأجاب الخديو بدعوته الى هنا ، اذا حضر فسيقبض عليه ، واذا رفض فسيعلن عصيانه وخروجه على القـانون ، القـاهرة هادئة كما نعتقد ، الشعور القومى الى أقصى ما نستطيع أن نراه فى جانب الخديو ، مع عرابى نحو ٤٠٠ جندى ، (٢) .

والواقع أن الخديو كان قد فرغ من عرابى وقضى فيه قضاءه بعزله من وزارة الجهادية قبل أن يستدعيه الى الاسكندرية بيوم ، تجد ذلك صريحا فى برقية لكارتريت بتاريخ اليوم السادس عشر من يوليو جاء فيها : «أتشرف

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠١
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٤٧

بان اخبركم أن الخديو عزل عرابى باشا من منصب وزير الجهاديه، وأصدر امره بمنع جميع المصريين من مساعدته وسيذاع هذا الامر بكافة الوسائل التي فى متناول سموه وبناء على اقتراح الخديو أنفذ الادميرال السير بوشامت سيمور سفينتين من سفن جلالتها الى أبى قير مخافة أن يقطع عرابى الساحل ويدع ماء البحر يطغى » (١) ·

وهكذا يعزل توفيق عرابيا قبل ان يستدعيه ، ولم يعلن قرار العزل رسميا الا فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو

ولندع لعرابى الرد على توفيق فقد ابرق اليه ردا على برقيته يقول : « مولاى ·· فى شريف علم مولاى المعظم أن الحرب التى وقعت بيننا وبين الانجليز وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رئاسة سموكم بحضور كثير من اعيان البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد استقر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو أدى ذلك الى الحرب ، وبناء على ذلك قرر المجلس لزوم زيادة ٢٥٠٠٠ عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم ، وقرر المجلس ايضا أنه لا تطلق المدافع من جهتنا الا بعد اطلاق خمسة مدافع من السفن الانجليزية ، ولما ابتدأت السفن بضرب النيران على مدينة الاسكندرية لم نقابلها الا بعد عشرين طلقة ؛ ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد ، لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد ، ثم بعد ذلك أعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الادارة بصيرورة البلاد حربا مع الانجليز وأنها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القانون زمن الحرب

---

(١) ص ١٢٧

... فلهذه الاسباب يا مولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدوننمة كما هو معلوم لدى عظمتكم، وانما كانت الحرب عدوانا من الانجليز على الحكومة التى لم يبـد منها أى شيء يستوجب الحرب ، فان كان الاميرال فى مخابرته مع سموكم اظهر انه عدل عن الحرب الى السلام فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبا للصلح وسعيا فى تجديد العلاقات ، ولا يجوز أن يكون انكارا للحرب بالمرة وتبرأ من العدوان بعد وقوعهما ، ولا شك فى انى أطابق أفكار سموكم فى الميل الى الصـلح مع حفظ شرف البـلاد والحكومة ، وان كان الاميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الانجليزية هدما وحرقا فها هو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه، مستعد لان يستلمها بعد سحب السفن عن مياه الاسكندرية ، وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعداد العسكرى كما وافق راى سموكم أولا حتى تنسحب السفن من السواحل المصرية خوفا مما عسى ان يحدث من قبيل ماسبق، فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على أن الوعد بالسلام من الانجليز لايمكن الثقة به ، وانما هو لاجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد ، واننى كنت أتمنى أن أتمثل بين يدى عظمتـكم لابداء هـذه الملاحظات، لكن من الاسف انه تحقق عندى من الاكتشافات الحقيقية أن مدينة الاسـكندرية مشغولة الآن بعساكر الانجليز ، فمن المعلوم عند مولاى أنه لايمكننى الحضور بتلك المدينة لهذا السبب ، فاذا حسن لدى مولاى ، فليصدر أمره السامى بحضور حضرات النظار أوسعادة

رئيس مجلس النظار الى مركز الجيش للمداولة فى هذا الامر لنكون على بينة من الحقيقة حتى يمكننا بعد ذلك صرف العساكر وترك التجهيزات الحربيـــة والحضور الي المدينة ، والامر لمن له الامر » (١) .

***

وقف عرابى فى خطوط دفاعه ، لا لينتظر شيئا من الخديو بعد ذلك ، ولكن لينتظر كلمة الامة المصرية تحكم بها بينه وبين الخديو واعوانه من الانجليز والخوارج من المصريين ، وعما قليل ستاتيه الانباء من اعماق مصر بان الامة التي مجدته بالامس زعيما قوميا مناضلا فى سبيل حريتها ودستورها ، ستنطوى اليوم تحت لوائه قائدا مجاهدا مدافعا عن الحرية التى استخلصها لها ، وعن الدستور الذى حرس مهده ، وعن شرفها الذى يمتحنه ببغيه الاحتلال ...

وحسبه مجدا .وفخرا وجزاء بما جاهد وصابر أن ترى فيه أمته رمز الخلاص وبطل الجهاد ...

---

(١) الوقائع المصرية ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

# نصرك الله ياعرابي

ما ذاعت فى القاهرة والاقاليم أنباء ما فعل الانجليز فى الاسكندرية وما كان من موقف الخديو بعد ذلك ، وما ذاع رد عرابى على استدعاء توفيق اياه حتى امتلأت القلوب عطفا على عرابى واجلالا له ، وازدادت محبة الناس له أضعافا مضاعفة ، وصار من الكلمات الشعبية التى يسمعها المرء فى المدن أينما سار فى شوارعها ودروبها وأينما حل فى مقاهيها ومنتزهاتها ، وفى القرى أينما وجدت شمالا أو جنوبا تلك الكلمة التى غدت شعار الشعب وهى : « الله ينصرك يا عرابى » (١) ...

ولم تقتصر الامة على الهتاف والدعاء ، فلسوف نرى أنها بذلت من أبنائها ومن أقواتها وأموالها ما هو خليق أن يسجل لها فى تاريخ الحركات القومية مثلما يسجل للأمم الأبية الكريمة من دواعى الفخر ...

***

فطن عرابى منذ أن جاءته برقية الخديو الى أن الانجليز من أول الامر سيتخذون من الخديو أداة لتحقيق أغراضهم ، وكان أول اتجاه نحو هذا أن يصدر قرارات

---

(١) اثبت محاميه مستر برودلى هذه الكلمة بالعربية مذهبة على غلاف كتابه الانجليزى « كيف دافعنا عن عرابى » واثبتها فى الصفحة الاولى منه بالعربية كذلك وكتب تحتها « هتاف الشعب فى القاهرة يوليو سنة ١٨٨٢ » .

ضد عرابى تذيع الانقسام فى البلاد ...

لذلك راى ان الظروف تحتم عليه أن يقضى على هذا السلاح ، فبادر بارسال برقية الى جميع المديريات والمحافظات يعلن فيها للناس انضمام الخديو الى الانجليز ويحذرهم من اتباع أوامره ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال (١) ...

وأرسل عرابى برقية أخرى يعلن فيها للمديرين أن الوزراء أسرى عند الخديو وانه يريد ان يتخذ منهم أداة لتنفيذ أغراضه فى شل حركة الدفاع عن الوطن وعلى ذلك فليعلم الحكام والمديرون أن ما يأتى من رئيس الوزراء من البرقيات بطلب الكف عن الاستعداد انما هو مجبر عليه فلا طاعة له ، وان الذين يخونون وطنهم لا يكون جزاؤهم العقاب وفق قوانين الحرب فحسب ، بل سيلعنون فى الآخرة (٢) ...

وأرسل كتابا خطيرا فى اليوم السابع عشر من يوليو الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الجهادية بالقاهرة يعلن اليه فيه خيانة الخديو للبلاد وانه سبب ما نزل بها من الكوارث ويدعوه الى عقد جمعية من الكبراء والعلماء للنظر فى الامر واصدار قرار بشأن الخديو ، وفيما يجب عمله لصالح الامة وتقرير مدى « صلاحية هذا الوالى عليها » (٣)

وقد اهتم الانجليز بأنباء هذه الاتصالات وغاظهم أن يسبقهم عرابى الى السلاح الذى ارادوا أن يحاربوه به ، وأبرق كارتريت الى جرانفل فى اليوم الحادى والعشرين

---

(١) الوقائع المصرية ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ومصر رقم ١٧ ص ١٨٤

(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٨٤ (٣) الوقائع المصرية عدد ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢ وقد أورد ترجمة كلام عرابى فى مصر رقم ١٧ سنة ١٨٨٢ ص ٢٧٥

من يوليو يقص عليه امرها ، فرد عليه جرانفل ببرقية فى نفس اليوم هذا نصها : « بالنظر الى لهجة عرابى باشا فى بلاغاته التى ذكرتها لى فى برقيتك اليوم ، رأيت أن أوجهك بشدة الى أن تؤثر على الخديو بضرورة اصدار بلاغات مضادة من جانبه الى الشعب المصرى ، وأن تخبر سموه بأن حكومة جلالة الملكة تعد المدة لارسال قوة كبيرة الى البحر الابيض المتوسط »

ومعنى ذلك أن انجلترا كانت تعد حملتها لاحتلال مصر وأنها خشيت من نشـاط عرابى وقطعه الطريق على أساليبها ...

وكان الخديو قد أعلن أمره فعلا بعزل عرابى فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وبنى قرار العزل على أمور نسبها اليه سوف نذكرها ، ولـكن الانجليز لم يكتفوا بذلك وأرادوا أن يستمر الخديو فى اصدار القرارات ضد عرابى ...

وكان يعقوب سامى باشا من المخلصين للثورة الوطنية وكان يكره أشد الكره من الخديو انضمامه الى الانجليز، ويرى أن ذلك خيانة منه للبلاد ، وكان يعقوب باشـا كذلك من أكبر أنصار عرابى المتحمسين له ...

فلما جاءته برقية عرابى اجتمع فى نفس اليوم فى مقر وزارة الحربية بقصر النيل مع عدد من صفوة أنصاره وتشاوروا فى الامر ، واستقر رأيهم على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفى ، وسيبقى يدير شئون الحرب والادارة طول مدة القتال.

وقرر المجلس العرفى فى نفس اليوم دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الاديان والعلماء ووجوه الامة ممن يوجدون بالقاهرة وكبار موظفى الدولة ، للنظر فى هـذه الامور

الخطيرة واتخاذ القرارات التي يراها صالحة للبلاد...

وانعقدت الجمعية العامة أومجلس العموم كما سميت في مساء الاثنين في السابع عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ الموافق غرة رمضان سنة ١٢٩٩ فى وزارة الداخلية، وشهد هذا الاجتماع الخطير نحو ٤٠٠ عضو، كان بينهم الامراء الموجودون بالعاصمة ورؤساء الاديان وفى مقدمتهم الشيخ الامبابى شيخ الاسلام، ثم كبار العلماء وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية والنواب ووكلاء الوزارات والقضاة وكبار الاعيان والتجار ...

وعرضت على أعضاء الجمعية البرقيتان المتبادلتان بين الخديو وعرابى، والبرقية التى ارسلها عرابى الى يعقوب سامى. وبعد أن تشاوروا طويلا فى الامر، اتخذوا قرارا خطيرا يدل على قوة روح الامة ومناصرتها المجاهدين من ابنائها، وذلك أن الجمعية رأت الاستمرار فى اعداد العدة للقتال ما دامت سفن الانجليز فى الشواطىء المصرية وجنودهم فى الاسكندرية، كما رأت استدعاء الوزراء من الاسكندرية لسؤالهم عن حقيقة الامر، وأوفدت لجنة من ستة مندوبين من أعضائها للسفر الى الاسكندرية لابلاغ الوزراء قرار الجمعية ...

***

وكان الخديو فى قصر رأس التين بالاسكندرية يحيط به أعوانه من الانجليز ويختلط بحرسه بحارة الاسطول البريطانى وانه لينتظر بصبر فارغ ذلك اليوم الذى يؤتى اليه فيه برأس عرابى حيا أو ميتا ...

أبرق كارتريت فى التاسع عشر من يوليو يقول: « أرسل الخديو فى طلب السير أوكلند كلفن صباح اليوم وطلب اليه أن يستحث حكومة جلالة الملكة لتخطو خطوة جديدة بلا ابطاء. ويقول سموه أنه من ناحيته يرى أن

هذا العمل ضرورى جدا ، وانه يسر سموه اذا احيط علما بالخطوات التي ينظر فيها ، وقد وصف سموه قوة عرابى باشا بأنها الآن بلغت من العظمة حدا ينشر الرعب ويبثه فى عقول الوطنيين جميعا ، وان سيطرته على البلاد وخاصة القاهرة يجعل عائلات جميع الموالين للخديو وأملاكهم تحت رحمته ، او الذين يستراب فى أمرهم انهم موالون ، ومن ناحية أخرى فان هناك اشاعة مستفيضة بأن انجلترا سوف يحال بينها وبين خططها بسبب الخلاف بينها وبين الدول . وستكون عاقبة هذين الاعتبارين أن يصبح من الصعب على سموه أن يحتفظ بمن يشايعونه متحدين » (١)

وهذه البرقية صريحة فى أن الخديو لاينضم الى الانجليز فحسب ، بل انه يستعديهم على مصر ويستحثهم فى صورة من القول لا تحتاج الى تعقيب ...

وجاء الى الاسكندرية من بورسعيد عمر باشا لطفى بطل مأساتها ، يقص على الخديو والانجليز مزيجا مهوشا من الاباطيل ليس فيه من الحق الا ما كان من صالح الخديو اعلانه ، وحتى هذا القدر من الانباء قد جاء به على صورة ممسوخة أملتها ضغائنه ومن ذلك ما ذكره عن حوادث اغتيال بعض الاوربيين داخل البلاد ...

ومن ذلك وصفه المجلس العرفى بأنه مجلس عدائى حضره نحو مائة من العلماء والباشوات والتجار، ومنه ما ذكره عن الشيخ حسن العدوى انه قال : انه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديو بعد اليوم وان الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد وافقه الشيخ عليش على ذلك ، ومنه أن أحد الباشوات اعترض على الشيخين وتشكك فى صحة ما ارسله عرابى من الانباء وطالب

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

بالدليل عليها فوثب اليه بعض الضباط وأرادوا قتله ، ولما أعيد النظام أبدى بعض الحاضرين أنه اذا كان للأمة أن تشكو شيئا من الخديو فان السلطان هو الذى ينظر فى شكواها وليس للمجلس هــذا الحق ، وقال بطريق الاقباط : اننا سمعنا من جانب واحد هو جانب عرابى ولم نسمع شيئا من الخديو ... الى آخر هذا الخلط المرذول ...

ومما أورده بطل مذبحة الاسكندرية كذلك مشــوها ممسوخا قوله : انه شاهد من القطار وهو مسافر الى القاهرة عقب ضرب الاسكندرية جثث كثير من الاوربيين ملقاة على الطريق وقد اغتالهم الجند وقطاع الطرق ، وانه شاهد فى محطة طوخ مقتل ألمانى وزوجته ، وان طنطا ودمنهور والمحلة نهبت نهبا تاما وقتل جميع من كانوا فيها من الاوربيين .

وانه بأمر عرابى باشــا قد ســجن من كبار الموظفين ابراهيم باشــا أدهم مدير الغربيــة وحسن بك مدير المنوفية وكمال بك مدير القليوبية .

وان الضباط يعقدون اجتماعات كثيرة برئاسة محمود سامى باشا فى قصر النيل ، وان عرابى باشا قد طلب الى المديريات ارسال سدسى عدد الذكور فى كل منها الى كفر الدوار مسلحين بالنبابيت ، كما أنه طلب للخدمة جميع الجنود القدامى من كل سن ومنهم من بلغ أرذل العمر حيث كانوا فى جيش محمد على نفسه .

وان الخيل والاقوات تجلب قسرا من داخل المديريات ، وان المديريات جميعا فى حال عامة من الفوضى التامة ، ويسود القاهرة ذعر عظيم وان لم يقع فيها حتى الآن ما يخل بالنظام ... (١)

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٨٦

وقد أبرق كارتريت بأقوال عمر لطفي هذه الى حكومته لتنتفع بها فى الحملة على عرابى فى كل فرصة دولية تسنح لها ...

وليس أدل على تشويه عمر لطفى الحقائق ، وبعده بعدا كبيرا عن الامانة من ايراده نبأ حبس الموظفين فى صورة تشعر المرء بطغيان عرابى ، مع أنه حبس هؤلاء الموظفين رهن المحاكمة لانهم تهاونوا فوقعت حوادث اغتيال فى أقاليمهم استاء لها عرابى أعظم الاستياء ، وكان فى مقدمة المتهاونين ابراهيم ادهم باشا مدير الغربية ، فقد تمارض وترك الغوغاء يعيثون فى الارض فسادا حتى لقد شاركهم بعض خفراء المديرية ، وكان من جراء ذلك أن قتل فى طنطا نحو ثمانين من الاجانب وفى المحلة نحو تسعة منهم ..

وقد أرسل عرابى فرقا من الجيش على الفور الى طنطا والمحلة وشبين الكوم ، وارسل قطارات تنقل من يرغب فى السفر من الاجانب بالمجان الى الاسماعيلية وبورسعيد ...

وممن كان لهم همة مشكورة فى اخماد هذه الفتنة ، احمد باشا المنشاوى فقد آوى فى بيته نحو ٣٠٠ من الاوربيين والمسيحيين وظلوا فى حمايته ورعايته حتى انتهت الحرب ...

وما أن بلغ الخديو قرار الجمعية العامة حتى أعلن قراره فى اليوم الثاني والعشرين من يوليو بعزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ، ذلك القرار الذى صدر منذ اليوم السادس عشر كما جاء فى برقية كارتريت الى جرانفل ، وكان الخديو فى هذه الايام الستة بين اصدار القرار واعلانه يحاول استدراج عرابى الى الاسكندرية كما بينا ، للقبض عليه غدرا وعدوانا ...

وقد أعلن الخديو أن هذا الامر بالعزل كان بناء على قرار من مجلس الوزراء وعين الخديو عمر باشا لطفى مكان عرابى ناظرا للجهادية .

أما قرار العزل فهذا نصه : « ان ذهابكم الى كفر الدوار مستصحبا العساكر واخلاء ثغر الاسكندرية من غير أن يصدر لكم أمر بذلك ، وتوقيف حركة السكة الحديد وقطع جميع المخابرات التلغرافية عنا ومنع ورود البوستة الينا ومنع حضور المهاجرين الى وطنهم بالاسكندرية واستمراركم فى التجهيزات الحربية ... وارتكابكم عدم الحضور طرفنا بعد صدور أمرنا بطلبكم ، كل ذلك يوجب عزلكم ، فقد عزلناكم من نظارة الجهادية وأصدرنا أمرنا هذا لكم بما ذكر ليكون معلوما » (١) .

وأذاع الخديو عملا بنصيحة كارتريت وتنفيذا لتعليمات جرانفل منشورا علق على الجدران بشوارع الاسكندرية فى اليوم الثانى والعشرين من يوليو وفيه يبرر الخديو عزله عرابى ، ومما احتواه هذا المنشور ، قول الخديو : « ليعلم كل من يقرأ هذا الامر سبب عزل أحمد عرابى باشا ، ذلك أنه بعد عشر ساعات من ضرب الشواطىء حطمت قلاعنا وحطم ٤٠٠ مدفع من مدافعنا وقتل القسم الاكبر من رجال مدفعيتنا أو عطلوا ؛ بينما لم يفقد الاسطول الانجليزى الا خمسة رجال ولم تصب سفنه أصابات ذات بال ، وجاءنا حينذاك أحمدعرابى باشا يعلن الينا النبأ المؤلم عن تحطيم حصوننا ، وقد طلب الادميرال الانجليزى منا اخلاء قلاع العجمى والدخيلة والمكس لتحتلها جنوده ، ولما كان مجلس الوزراء منعقدا بحضور درويش باشا فقد تقرر أنه لايمكن اخلاء القلاع الا بأمر من صاحب الجلالة الشاهانية السلطان ، وانه

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

على عكس ذلك صار من الضرورى العمل على تدبير وسائل الدفاع عنها وذلك بوضع حاميات جديدة تمنع نزول الجنود الاجنبية ، وفى نفس الوقت أرسلنا برقية بذلك الى الباب العالى ، ولكن عرابى باشا توجه الى جهة باب رشيد بالاسكندرية دون أن يتخذ اى اجراء حربى ، فارسلت اليه أحد ياورى ليذكره بأنه يجب عليه ارسال امدادات الى القلاع المذكورة ، فأجاب بأنه لايستطيع أن يرسل جنديا واحدا ، وأمر الجند ، بأن ينسحبوا معه وعسكر فى كفر الدوار تاركا المدينة بغير دفاع» (١)

وان المرء ليعجب حتى ما يفرغ عجبه من هذا الكلام! ويتساءل بحق : هل كان الخديو يقرأ هذا قبل اذاعته ؟ اذ كيف يجمع الخديو بين هذا القول وبين ما جاء فى برقيته الى عرابى بكفرالدوار اذ حمله تبعة الضرب نظرا « لاستمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها » واذ دعاه الى أن « يصرف النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية » !

ومن المضحك المؤلم معا أن يقول توفيق فى نفس الوقت : «ولولم يتحقق لدينا أن نية الانجليز والفرنسيين ليست نية استيلاء ، بل نية اصلاح أو كان عندنا أدنى شبهة فى ذلك لكنا اول من يقوم بالمدافعة بأرواحنا وأموالنا الى أن يقضى الله أمرا مفعولا » (٢) .

ولكن ماذا عسى أن يقول توفيق غير هذا وهو لايستطيع أن يجعل من الباطل حقا ، ولايستطيع فى الوقت نفسه أن يسكت ومن ورائه كارتريت وفى دخيلة نفسه شديد مقته لعرابى وعظيم سخطه على الثورة ؟

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧٢
(٢) الوقائع المصرية ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨١

وارسل كارتريت فى اليوم الثانى والعشرين كتابا الى جرانفل يقول : « ايماء الى رسالتى بتاريخ الامس بشان ماحدث فى قصر الرمل اثناء الضرب وبعده ، أفيدكم انى تلقيت من المصدر نفسه زيادة على ما سلف أن عرابى باشا حينما سأله الخديو ماذا ينوى عمله فى المستقبل أجاب بأنه سوف يلجأ الى تدبيرات غير نظامية حيث أنه لا قبل له بمقاومة الانجليز . وكأن عرابى بهذا يمهد لما كان من احراق المدينة وتخريبها وحبس الماء عنها (١) ، ولقد لمح عرابى باشا قبل ذلك فى حديث له مع رجل انجليزى الى ما سوف يتبعه من وسائل المقاومة .

ومن الجلى أن قوة عرابى الرئيسية كائنة فى وسائله البربرية التى لا وازع يصرفه عنها ، وانه ليسود بين موظفى القصر الآن خوف شـديد مما عسى أن يصنعه عرابى بأملاكهم فى القـاهرة وفى غيرها ، حتى ان ذلك ليشل عمل الخديو ، وان سموه ليحجم عن اعلان عصيان عرابى بسبب ما يفضى اليه ذلك من مكايلته بكيله ...

وفى مقـابلة لى مع سمو الخديو بالامس حاولت أن اصور له ما يحدثه مثل هذا الاعلان من اثر أدبى ، وما يبثه من الشجاعة فى قلوب من لايزالون موالين لسموه فى القاهرة وغيرها ، فأجاب الخديو بأنه ليس هناك مايدعو فى الاسكندرية الى القول بأن قوة عرابى قد ذهبت ، أما عن القاهرة فانه أبرق اليها الآن بعزل عرابى من بورسعيد ، وليس لديه وسيلة لاذاعة بلاغ ضده هناك . وأضاف سـموه أن المديرين فى الاقاليم لا يجـرؤن فى الظـروف الحالية اطاعة أوامره ، ولـكنه يتخذ الخطوات لاذاعة منشور فيهم بأيدى بعض البدو ...

---

(١) يقصد ما ذكره فى برقية سالفة من آن عرابيا اخذ يسـد ترعة المحمودية

وانه ليؤسفنى أن أقرر ، انه على نقيض ما يذكر الخديو بشأن الاسكندرية ، لايزال يغادرها كثير من العرب لينضموا الى عرابى ، وربما كان مرد ذلك الى خوفهم مما تهدد به من عقاب فى بلاغاته الاخيرة وان كان يمكن القول الى حد ما بأن ذلك يرد الى الذعر الذى استولى عليهم من نقصان الماء نقصانا واضحا » (١) .

ومن عجيب مايذكر فى هذا الصدد ، أن كارتريت قد اقترح على حكومته الاعتراف بوزارة راغب باشا بعد طرد عرابى منها وتجديد العلاقات معها على أساس المودة ، مع أن راغب يعد مسئولا عن كل شىء يسأل عنه عرابى ، بل هو بحكم كونه رئيس مجلس الوزراء أكثر مسئولية منه اذا سلمنا جدلا بأن فى الامر مسئولية ، ومما يزيد الامر غرابة أن عرابى كان نائبا عن المجلس الذى انعقد فى اليوم العاشر من يوليو بقصر راس التين برئاسة الخديو ، ذلك المجلس الذى قرر أن الحصون سترد على الاسطول بعد القذيفة الخامسة ... فكيف تجدد الحكومة الانجليزية علاقتها بوزارة راغب التى أصدرت هذا القرار وتمعن فى معاداتها عرابى الذى لم يشهد هذا المجلس ؟

وللقارىء ان يمعن النظر فى هذه البرقية التىأرسلها كارتريت الىجرانفل فى اليوم الثانى والعشرينمن يوليو قال : « بما أن الوزراء قد تجنبوا الآن كل فكرة عدائية وبما انهم يظهرون صراحة ولاءهم للخديو ، فقد طلب الى سير ا.كلفن أن أعرض على فخامتكم مايذهب اليه من انه مما ينصح به تجديد العلاقات الدبلوماسية معهم مع استثناء عرابى باشا بالضرورة من بينهم ، وان مثل هذه الخطوة كفيلة بأنتساعد الوزارة المصريةفى محاولتها

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٧١

كسب الشعب ثانية الى جانب توفيق باشا كما أنها تبث الثقة فى نفوسهم بشأن ما تنويه الحكومة الانجليزية ، وقد شرح السير أوكلند كلفن فى مقابلة شخصية بينه وبين وزير المالية سبب المعارضة التى كانت توجهها المراقبة الى الوزارتين اللتين اشترك فيهما عرابى، فذكر أن ذلك يرجع الى أن هاتين الوزارتين كان قيامهما خطرا على قانون التصفية ، ولم يكن فى الامر أى اعتبارات سياسية أو دولية ، ولما كان الخديو قد أسقط عرابى باشا، فقد أصبح من الامور الهامة أن نستعيد ثقة البلاد، وأن نثبت للملأ أن المعارضة التى كان يوجهها من قبل ممثلو حكومة جلالة الملكة لم يقصد بها الا العصابة العسكرية الذين كانوا يؤدون بسياستهم الى القضاء على الوضع المقرر والاخلال بمالية الدولة ! ولا يمكن أن تقصد بها وزارة تؤيد بولائها الخديو، وتجلس فى كراسيها بارادته ! ويقول السير أوكلند كلفن ان شرحه هذا قد صادف نجاحا كبيرا ، ويرى انه اذا لقيت الوزارة الحالية اعترافا من حكومة جلالة الملكة (دون أن يؤثر ذلك بالضرورة فى حرية الخديو فى العمل بشأن استمرارها أو تغييرها فى المستقبل) أدى ذلك الى تأثير حسن بوجه عام ، وفى حالة ما اذا صادف هذا الرأى قبولا لديكم فانه يقترح أن يسمح للرقيبين ثانية بحضور اجتماعات مجلس الوزراء» (١)

وفى هذه البرقية الخبيثة أبلغ الادلة على أن الحكومة الانجليزية لم ترم الا الى القضاء على الحركة الوطنية القومية التى يمثلها عرابى ، ان كان الامر لايزال يحتاج الى دليل ...

لم تحفل الامة بأمر الخديو القاضى بعزل عرابى ، بل لقد زادها ذلك تمسكا به والتفافا حوله ، وكان الناس

---

(١) ١٢٣

يتجهون بوجوههم الى السماء ويرفعون أكفهم كلما ذكر عرابى قائلين : « الله ينصرك يا عرابى »

وكره الناس انضمام الخديو الى الانجليز أعظم الكره ، ونظروا الى عرابى نظرهم الى المدافع عن كيان البلاد فى وجه الغاصب المعتدى الذى لم يرع حرمة القانون والذى اطلق مدافعه على الاسكندرية فى غير وازع من ضمير أو شرف ...

ولذلك أضاف الناس الى القاب عرابى رئيس الحزب الوطنى وقائد الجيش الوطنى ، لقبا جديدا هو «حامى حمى الديار المصرية » . وهذا ماخاطبته به الجمعية العامة ...

وفى هذا الذى فعلته الامة المصرية دليل على أن الثورة القومية قد تغلغلت الى أعماقها لا كما يقول بعض المؤرخين عن جهل مشايعين فى ذلك كتاب الاحتلال ...

وأما عرابى فلم يعبأ بقرار عزله وقد وطد نفسه على الدفاع عن مصر ووقف فى خطوط كفر الدوار معتمدا على تأييد الامة وعلى عدالة قضيته وشرف جهاده فى سبيل الحق والحرية ...

وأرسل عرابى الى يعقوب سامى باشا ليدعو الجمعية العامة ثانية للنظر فى الامر واجتمع المجلس العرفى وقرر دعوة الجمعية الى الانعقاد .

وفى يوم السبت الموافق الثانى والعشرين من يوليو اجتمعت الجمعية بوزارة الداخلية، وكان اجتماعا قوميا خطيرا أعظم وأشمل من الاجتماع السابق ، فهو مؤتمر وطنى عام شهده نحو خمسمائة من وجهاء الامة المصرية وفى مقدمتهم ثلاثة من الامراء هم : الامير ابراهيم باشا ابن الامير أحمد باشا ، والامير كامل باشا فاضل ابن الامير مصطفى فاضل وهو ابن عم الخديو توفيق ،

والامير أحمد باشا كمال ابن الامير أحمد باشا ...

وشهده كبار علماء الازهر وفى مقدمتهم شيخ الاسلام الامبابى وقاضى قضاة مصر والمفتى ونقيب الاشراف ، وكان من أبرز الحاضرين من العلماء الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى ...

وشهده كذلك بطريرك الاقباط ووكلاء البطريكخانات وحاخام اليهود ...

وشهده وكلاء الوزارات والنواب وعدد كبير من الباشوات وكبار الضباط وكبار موظفى الدولة الاداريين والقضاة ومديرو الاقاليم ...

ومن الاهالى شهده كبار التجار والاعيان ورؤساء العشائر من الاقاليم ...

ومن أهم ما امتاز به هذا الاجتماع التاريخى العظيم هو تمثيل الاسر المصرية الكبرى فيه من معظم مديريات مصر صعيدها وريفها (١)

فقد شهده من كل اقليم عدد من كبار العمد كانوا هم فى الوقت نفسه عمداء أسرهم وكبراء الجهات التى ينتمون اليها ، وبذلك كانت مصر كلها ممثلة فى هذا المؤتمر الوطنى العظيم ...

وفى ذلك أبلغ رد على الذين يزعمون أن الحركة القومية فى مصر كانت فتنة عسكرية لم تؤيدها الامة المصرية فها هى ذى الامة المصرية بجميع طوائفها تقول قولها الفصل فى موقف من أعظم مواقف الثورة ، موقف الجهاد والذود عن كيان البلاد تحت راية زعيم الثورة أحمد عرابى باشا

وكان الاجتماع برئاسة حسين باشا الدرمللى وكيل

---

(١) لم يتخلف الا جرجا وقنا وأسوان لبعدها ولصعوبة المواصلات بعد أسيوط .

الداخلية ، وتولى قراءة المكاتبات الشيخ محمد عبده ، وقد تليت فى الاجتماع فتوى شرعية من المشايخ حسن العدوى ومحمد عليش ومحمد ابو العلا الخلفاوى مؤداها أن الخديو بانحيازه الى العدو المحارب لبلاده يعد مارقا عن الدين ..

ثم تداول المجتمعون فى الموقف الحربى وانتهوا الى قرار خطير اجمعوا عليه وذلك هو عدم الاعتراف بقرار الخديو الصادر بعزل عرابى باشا من نظـارة الجهادية والبحرية ... وهكذا تأكدت لعرابى زعامة الامة ..

وهذا القرار الخطير فى الواقع مضافا الى فتوى مروق الخديو من الدين هو بمثابة خلع توفيق من منصبه ...

وسأل يعقوب سامى باشا أعضـــاء المجلس قائلا : « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه فى الوظيفة فأرجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصدر لى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات نظاره المقيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ »

وتداولت الجمعية فى هذا وأصدرت القرار الآتى : « بعد تلاوة الاوامر الصادرة من الخديو أولا وآخرا ، وفيها الامر الصادر بعزل أحمد عرابى باشا ... وتلاوة منشورات عرابى باشا ، وبعد سماعنا ما عرضه وكيل الجهادية (بصفة هذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لادارة أشغال الحكومة) على المجلس وهو هـل وجود الخديو فى الاسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الانجليز يقتضي عدم تنفيذ أوامره أم لا ، واذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها أم لا ، رأينا أن وجود العساكر فى الاسكندرية والسفن الانجليزية فى السواحل المصرية ، ووقوف عرابى باشا بمدافعة العـدو يقتضى

وجوب بقاء الباشا المشار اليه فى نظارة الجهادية والبحرية مداوما على قيادة العساكر ومتبعا فى أوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله من تلك الوظيفة، ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظاره الموجودين معه كائنة ما كانت لاى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث أن الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ، ويلزم عرض قرارنا هذا على الاعتاب العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات » (١)

أما المجلس العرفى برئاسة يعقوب سامى باشا فكان هو الذى يتولى شئون الادارة العامة فى البلاد وكان أشبه بمجلس الوزراء وقد أدى المجلس واجبه على خير مايرجى من الهمة والوطنية ، ومن أهم قراراته ، وضع الرقابة على الصحف والتلغراف ، ومنع السفر الى الخارج ما دامت الحرب قائمة ...

وكان الفيضان عاليا فى تلك السنة فبذل المجلس همة عالية فى حراسة ضفاف النيل حتى لا يدهم البلاد خطر الغرق فى وقت الحرب ...

هذا الى ما أمد به الجيش فى خطوط الدفاع بالذخيرة والرجال والعتاد فى نشاط وحمية واخلاص ، وما اظهره من كفاءة فى حفظ الامن والنظام داخل البلاد ...

***

وكان نفوذ الخديو لا يعدو الاسكندرية ، بل انه فى الواقع لم يكن له شيء من النفوذ هناك ، فقد كان الامر كله للانجليز ، ولم يعد الخديو الا اسما يستترون خلفه ويصدرون قراراتهم وأوامرهم منسوبة اليه ...

ونشط السير بوشامب سيمور كما زعم فى المحافظة على النظام والقضاء على الفوضى حتى لقد عاقب ثلاثة

(١) الوقائع المصرية ٣١ يوليو سنة ١٨٨٢

من الوطنيين وواحدا من اليونانيين بالقتل رميا بالرصاص بتهمة اثارة الفوضى، ولكن فاته أن يؤدب جنوده الانجليز الذين يستعين بهم على اقرار النظام والذين جاءوا مصر للقضاء على عرابى واصحابه من العصـــاه ، فقد سرق هؤلاء الانجليز قصر الخديو بالرمل وانطبق عليهم بذلك المثل القائل : « حاميها حراميها »

أبرق كارتريت الى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو يقول : « تلقى الخديو كتابا من الرمل بالامس فيه أن جندا بريطانيين اقتحموا قصر سموه وعاثوا فى أنحائه للسرقة ، وقد توجه الى هناك فورا الميجورجنرال سير ا. اليسون الذى أخبر بهذا الحادث لتحقيق المسألة... وقد أخبـــرنى صـــباح اليوم الميجور اردغ الذى رافق الجنرال أنه يعتقد أن القصة لا أساس لها ، وظهر أن مدخلا فتح خلال شباك فى الطابق الاسفل وقد أفرغت محتويات الصناديق والصواوين جميعا ، ولـــكن ليس هناك من ريب فى أن هذا عمل بضع ساعات وأنه وقع قبل وصول فرقتنا » (١)

وانظر الى هؤلاء الانجليـــز كيف يهونون الامر هنـــا وينفونه عن جنودهم بنفس الاسلوب الذى يتبعونه حين يهولون ويسرفون فى محاولة الصاق تهمة لا دليل عليها بالمصريين ، وبعرابى بوجه خاص ...

وتولى رئاسة البوليس فى الاسكندرية شارلز برسفورد، وقد أذن للتجار فتح دكاكينهم ليلا ، كما حتم على كل شخص يسير بالليل أن يحمل مصباحا والا قبض عليه ، وذلك ريثما تعود شركة الغاز الى عملها ...

وأخذت الحياة تعود الى المدينة شيئا فشيئا ، وبذل البوليس جهدا كبيرا فى ازالة الانقاض ودفن جثث القتلى،

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢١

ولم ينته شهر يوليو حتى اضيئت المدينـة بالغاز كما كانت وفتحت القنصليات ابوابها ...

على ان أشد ما خوف الانجليز والاجانب عموما هو تناقص الماء الآتى من ترعة المحمودية ، فقد سدها الجيش بالقرب من جهة كنج عثمان ، ولذلك أصـدر البوليس بطاقات لتوزيع الماء من الصهـاريج حسب الحاجة ،

ويتبين مبلغ خوف الانجليز من سد الترعة فى برقيـة ارسلها كارترايت بهذا الشـأن فى العشرين من يوليو ، يقول فيها : ان ذلك سوف يؤدى الى هجرة الوطنيين الى داخل البلاد والى التجاء الاوربيين للسفن ليشربوا من ماء الاسطول ... وكذلك ابرقسيمور يبدى تخوفه من هذا العمل ، ولعلهما بذلك كانا يستحثان حكومتهما لاعداد الحملة على مصر ...

***

واما تركيا فقد ظلت على حالها من التلكؤ والتردد ، ولم تصدر شيئا بشأن توفيق ولا بشأن عرابى ، على أن درويش باشا الذى غادر مصر خفية فى اليوم التاسع عشر من يوليو ، قد أعرب عن استيائه من موقف الخديو حتى من قبل أن ينضم صراحة الى الانجليز ، وذلك فيما أرسله الى كارترايت فى اليوم العاشر من يوليو ردا على تحميله تبعة سلامة الخديو فقد قال درويش بعد أن استعرض قضية الضرب كلها فى صراحـة وقوة وأظهر تعسف الانجليز وتنكبهم طريق الصواب « أما عن دعوتك اياى أن أعمل بكل ما فى قوتى على ضمان سلامة سمو الخديو فيجب على أن الاحظ انه ليس من سلامة المنطق أن يفرق بين الذات الفخمة ، ذات سمو توفيق باشا ، وبين حكومته ، وانه من الامور الطبيعية أن يشغل الخديو

نفسه بضمان أمن البلاد التي يحكمها وسلامتها أكثر مما يشتغل بما يهم شخصه » (١) .

***

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير الى خدعة ثانية أراد بها الخديو أن يتصيد بها عرابيا أو يبث فى صفوفه التردد والانقسام ، وذلك أنه أرسل اليه على لسان على مبارك باشا أحد أعضاء الوفد الذى أرسلته الجمعية العمومية الى الاسكندرية عقب اجتماعها الاول يقترح تأليف لجنة للصلح ممن ينتدبهم عرابى من رؤساء الجند لتنضم اليهم لجنة أخرى من الاعيان ...

وكانت خطوة على مبارك باشا خدعة لاريب فيها ، وان ذهب بعض المؤرخين الى انها كانت رغبة منه فى اصلاح ذات البين ، بل انا لنقول فى غير اسراف ان عمله بالنسبة الى عرابى وأصحابه من قادة الثورة القومية يعد ضربا من الخيانة ، وانا لنشعر بعظيم الاسف اذ نثبت هذا عن رجل له جلائل أعماله وله مكانته فى نهضة مصر الحديثة ، ولكن الحق فوق كل اعتبار ، وحسبنا أن نورد ما يأتى من الادلة على سوء ما فعل ...

أبرق كارتريت الى جرانفل فى الرابع والعشرين من يوليو يقول : « أتشرف بابلاغكم أن على مبارك باشا وزير الاشغال السابق فى وزارة رياض نجح فى الوصول الى الاسكندرية من القاهرة ، كان يسود الهدوء فى القاهرة وقت مغادرته اياها ، ولكن هناك قدرا من القلق بين الناس . وعند كفر الدوار رأى عرابيا باشا وهو يصف وصفا حيا ما رأى هناك من الامور . اعلنت الحرب المقدسة ، بتأثير الشيوخ . ويأتى اليه اعداد كبيرة من

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

المتطوعين القرويين ، ويوزع السلاح على القادمين ويبلغ المجموع الكلى للقوات الآن ۳۰٫۰۰۰ رجل ، وتتوفر لديه الاقوات والخيل ، ويقول ضباط عرابى : ان رغبة انجلترا هي طرد عرابى باشا نفسه وتسريح الجيش ، وتكوين فرق أجنبية أو تركية تحل محله ولكن هذا لن يكون ... ويقول على باشا مبارك : ان العلاقات بين عرابى والبدو ليست متينة ، وقد علمت من مصدر آخر أن البدو اعتزلوا معسكره كلية » .

وأبرق كارتريت بعد ذلك بيوم يقول : « ايماء الى رسالتي بالامس بشأن التقارير التى تلقيناها من القاهرة وكفر الدوار ، أبلغكم أن على مبارك باشا الذى جاء بها زار سير ا.كلفن صباح اليوم ، وأفهمه أن عرابى باشا وطلبة باشا يترددان فى الواقع فى السير فى الطريق التى يسلكانها الآن ... بل لقد استحثاه بصفة شخصية أن يجس نبض الانجليز بشأن شروط للصلح . وقد أجاب سير ا.كلفن بأنه لايملك عمل شيء ، وأنه يصح أن يذهب على باشا مبارك الى الادميرال السير بوشامب سيمور ، ولكن الامر على كل حال بيد المؤتمر ولايستطيع الادميرال أن يعمل الا عمل الوسيط ، وبعد سماع هذه التحفظات استمر على باشا مبارك فى كلامه فقرر ما يأتى : « انه يظن أنه بعد أن يزال فى الحال السد من ترعة المحمودية كدليل على الاخلاص سوف يقترح العصاة على السير بوشامب سيمور أن يسرح الجيش وأن يعود الجميع الى مواطنهم ويكتفى بنفى القادة المحرضين . فقال السير ا. كلفن : ان كان ثمة من شروط تقترح ، فيجب الا يضيع شيء ما من الوقت لان قوات عظيمة تعد الان ، ولما كان كل مخرج ممكن من البلاد محاصرا فان خاتمة المحرضين قد فرغ منها ... وأضاف الى ذلك أنه اذا

ابتدا القتال فانهم سيسلكون الطريق التى رسموها ...

ورد على باشا مبارك فأفصح عما فى نفسه بالتحديد قائلا : ان معظم الضباط وفيهم طلبة يتلهفون الى ضمان سلامتهم ، وأنهم اذا نجحوا فى الحصول على شروط لانفسهم بانسحابهم عن عرابى ، فانه وأشياعه الاقربين

مهما يبدو من اصرارهم سوف يضطرون فى عزلتهم الى طلب الصلح، ويعتقد انه بهذا يمكن بعثرة الجيش وبذلك تنتهى المقاومة ... وأكد له سير ا.كلفن ثانية أن كل مقاومة سوف لا تجدى ، وانه لايترتب علىاعمال التحطيم الا خراب مصر لانه لابد منفرضغرامة عليها ، وانصرف على باشا مبارك مصمما أن يتصل بطلبة باشا ، ولكن السير ا.كلفن كان حريصا فلم يذكر اى اقتراحات عما تكون عليه الشروط ولا عما عسى أن يتوقع اذا قبلت شروط من أى نوع ما ... وقد علم السير يوشامب سيمور بما حدث ، ومن الخير أن ترسل اليه بعض التعليمات ليهتدى بها فى حالة الضرورة »

ورد جرانفل فى نفس اليوم فقال : « تؤيد حكومة جلالة الملكة بقوة لغة السير ا. كلفن فى هذا الامر ، ولكنها ترى الا يشار الى شيء من هذا فى المؤتمر فى المرحلة الحالية . وحكومة جلالة الملكة على استعداد أن تنظر فى أى مقترحات من جانب عرابى على شرط أن يكون اساسها الاخلاص ، ولكن يجب أن يكون مفهوما بأنها لا تقبل الا الخضوع التام ... على أنه اذا نتحت ترعة المحمودية فسوف تعد هذه الخطوة من جانبه علامة على حسن مقاصده ، ولما كانت حكومة جلالة الملكة واثقة من ثبات السير ا.كلفن فانها تسند كثيرا من الامور الى حكمته . وفى الوقت نفسه فان حكومة جلالة الملكة لن تتراخى فى تدبيراتها الحربية . اتصل بالادميرال بشأن

موضوع هذه الرسالة » (١) . .

هذا ما صنعه على باشا مبارك الذى يؤسفنا اشد الاسف أن يكون مثله من دعاة التردد والهزيمة وأن يكون طليعة هؤلاء الذين سوف يكونون اشد خطرا على عرابى من أعدائه الانجليز ...

***

وعظمت دهشة عرابى أن يكون اقتراح الصلح على أساس قبول عرابى ماجاء فى المذكرة المشتركة الثانية التى استقالت بسببها وزارة البارودى ، ولذلك بادر برفض هذا الاقتراح السخيف معلنا انه لا يجوز تأليف لجان بعد قرار الجمعية العمومية

وأذاع عرابى من فوره بلاغا الى داخل البلاد حتى لا تثمر هذه الخدعة ثمرتها من الانقسام والتخاذل وذلك اذ يعلم الجيش وتعلم البلاد أن عرابى يطلب الصلح وقد جاء فى هذا البلاغ أن الخديو انضم الى الانجليز فلا طاعة له على الناس واختتم بلاغه بقوله : « وها نحن بجيشنا المظفر المنصور فى مراكز الحرب قد بعنا أنفسنا فى حياة بلادنا وحفظها من الاعداء ولا يردنا عن ذلك الا الظفر والنصر أو ارتحال العدو من مياه الاسكندرية بأساطيله ورجاله والا فاننا نقابل القوة بمثلها ولا نسلم البلاد لاحد وفيها ذو روح يتنفس والله يؤيد بنصره من يشاء» (٢) .

وكان يقرأ الناس هذا البلاغ فيرددون كلمتهم التى ألفوها والتى صارت شعار البلد كله : « الله ينصرك يا عرابى » .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣
(٢) الوقائع المصرية ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٢

# كفر الدوار

رابط عرابى عند كفر الدوار ، وهذا المكان هو مايعرف فى الثورة باسم الميدان الغربى ، ولقد اختاره عرابى عند انسحاب الحامية من الاسكندرية ، كما ذكر محمود فهمى باشا فى محضر استجوابه ، وكما ذكر عرابى فى التقرير الذى كتبه لمحاميه وهو فى سجنه : قال محمود فهمى باشا : « توجهنا الى كفر الدوار ... وطلعنا الى المحطه ومنها الى كنج عثمان وتقابل معنا حسن بك ابن كنج عثمان فوجدنا هناك تلا قديما ، فسأل عرابى عن اسم هذا التل فقال له حسن بك : اسمه تل الناصر ، فالتفت الى عرابى وقال : ان ابتداء استحكاماتنا يكون هنا . وامرنى بانشاء استحكامات وحرر بطلب العساكر وطلب الانفار للعملية »

وقال عرابى : « وجرت مناقشة فيما عسى أن نفعل اذا عاد الادميرال الضرب ؟ والى أى مكان ينسحب الجيش اذا اضطررنا لاخلاء المدينة ؟ وسمحت لمحمود باشا فهمى وخليل بك كامل أن يذهبا الى المحمودية ويفحصا الجهة ابتداء من حجر النواتية الى كفر الدوار ويضعا رسما للموضع الذى يريانه أليق من غيره » (١)

---

(١) How We Defended Orabi p. 269.

وقال فى مكان آخر : « امرت قوادهم أن يتجهوا بفرقهم صوب ترعة المحمودية ... وعند الغروب بلغت جسر السكة الحديد الذى يعبر الترعة وهنالك وراء الجسر مباشرة اخترت مكان المعسكر ، وتوافد الجند من الاسكندرية والرمل أثناء الليل ، وكانت الساعة الثانية صباحا حين وصل الجند الذين تركتهم بالاسكندرية فقد تأخروا بسبب الزحام الشديد من الناس والدواب والعربات فى الطريق... وفى الصباح وجدنا أن معسكرنا معرض للضرب من السفن فانتقلنا مبتعدين بجنودنا الى مكان يسمى عزبة خورشيد على بعد نحو خمسة آلاف متر من محطة الملاحة » (١)

ويعزو بلنت اختيار هذا الموضع الى محمود فهمى باشا ويصف المكان فى قوله : « وكان الفضل فى اختيار هذا المكان المنيع الواقع على الخط الحديدى الى القاهرة والذى تكتنفه من الجهتين بحيرة مريوط الضحلة وبعض المناقع راجعا فيما اعتقد الى مهارة محمود فهمى الهندسية ، ولم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيرا من اتخاذه هذا المكان مستقرا لمعسكره الجديد ، لقد كان بعيدا البعد الكافى عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه الا عن الطريق الضيق الذى مهده خط السكة الحديد. وبهذا لم يكن يمكن اقتحامه من جهة الاسكندرية فى حين انه من جهة الارض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بامداداتها التى لا تكل ، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة . وهنا استطاع الجيش المصرى أن يثبت أمام الانجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات بل يدفع العدو بهجمات مضادة الى ما يقرب من أبواب الاسكندرية ، ولو لم يكن هنالك باب آخر لدخول مصر

(١) المرجع السالف ص ١٢٩

لغير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بالنجاح » (١) .

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة : « ان الاستحكامات فى كفر الدوار كانت تمتد من عزبة خورشـــيد الى كفر الدوار ، وأنشأوا فى كفر الدوار استحكامات من ترعة المحمودية الى الملاحة وحفروا خندقا عرضه أربعة أمتار ، وجعل خط الدفاع فىالمقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخطمن المحمودية الى الملاحة ، وجعل ما وراء هـذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع حصينة ركبت فيها مدافع كروب ، وكذلك التلال الكائنة بين المحمودية وسد أبو قير .. وقد تم اجراء هذه الاعمال الدفاعية بمعرفة المهندسالحربى العظيم محمودباشافهمى ورجالالهندسة الحربيين ومساعدة خمسة آلاف رجل من الاهالى من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية » .

وممن كان لهم عظيم فضل فى بناء هذه الاستحكامات الميرالاى محمد بك شكرىأحد الضباط المصريينالنابهين فى أركان حرب الجيش المصرى

وكانت خطوط الدفاع فى هذا الميدان ثلاثة ، يبعد كل واحد عن الذى يليه بأربعة آلاف أو خمسة آلاف متر ، وكان بين كل خطين خندق عمقه ١٥ قدما ، وبنيت على جميع المرتفعات الصالحة قلاع وضع فيها نحو٥٠ مدفعا

***

وأقام عرابى خيمته عند كنج عثمان ، وكان يفد اليه فيها غير ضباطه وأركان حربه ، الاعيان والعلماء وكبار التجار وغيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وكانت خيمة فخمة هائلة وحسبك أنها خيمة سعيد باشـــا نفسه ، تفضلت أرملته فقدمتها الى عرابى هدية قومية مشفوعة

---

(1) S. H. Blunt, p. 389.

بأصدق امانيها أن يؤيده الله بنصره (١)

وكانت مصر كلها حينذاك فى قبضة عرابى ، تدين له طوعا لا كرها ، شعارها : « الله ينصرك ياعرابى » . لان انتصار عرابى كان فى نظر الامةخلاصها منجشع الاجانب ومن استبداد الترك والشراكسة .

واستجابت الامة لا بالدعاء فحسب ، لهذا الفلاح من أبنائها الذى يقف موقف الشرف والكرامة ، وأمدته بسخاء بما طلب من مال وعتاد ورجال

وقل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتى قامت على ما بذل الشعب طائعا من أقواته وأمواله ودمه

وان المرء ليتملكه شعور الاعجاب والفخار تلقاء هذه الصفحة المشرقة التى هى بحق أنصع صفحة فى تاريخ هذه الحرب ، والتى نسوقها دليلا جديدا على قوة روح هذه الامة وكرم عنصرها ، وعلى أن ثورتها القومية كانت منبعثة من أعماق القرى ، وانها كانت تهز مشاعر أبنائها هزا ، وتنفض عنهم سبات القرون الطويلة .

هؤلاء فلاحون يعملون فى خطوط الدفاع ، الى جانب جند فلاحين من اخوانهم ، يقودهم مثلهم فلاحون ، وجميعهم تحت امرة فلاح مثلهم من قرية صغيرة ، ولم يكن أبوه من الباشوات ولا كان يفتخر بنسب شركسى أو تركى ، وانما كان هو محمد عرابى شيخ بلدة هرية رزنة

وكان هؤلاء الفلاحون يدافعون عن مبدأ استشعرته أنفسهم وان لم يدرك أكثرهم كنهه كما يدرك المتعلمون منهم والمثقفون ، وكانوا فىحملتهم اشبه حالا بأبناء فرنسا أيام ثورتها الكبرى فالبذل والتطوع كان قوام الحركتين، ولكن ثوار فرنسا كان وراءهم تاريخ طويل من المعرفة

---

(١) S. H. Blunt p. 39.

والثقافة ، فى حين لم يكن وراء ثوار مصر الا ما عانوه وما عاناه آباؤهم وأجدادهم زمنا طويلا من الجهل والمذلة على ان ذلك لن يضير المصريين شيئا ، بل انه ليحسب لهم لا عليهم ، فحسبهم ان يعفوا وقفتهم هذه ونهضتهم بنت الامس ...

وقال الشيخ محمد عبده فى تقريره الذى كتبه لمستر برودلى وهو بالسجن : « هل يقدر احد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا بعد أن ازره رجال من جميع الاجناس والاديان ؟ فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدته بحماس غريب ، وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانجليز... انى لم اعلم انه قيل ان الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس ان الحرب وقعت برضاه وبامره ، وقد رسخ هذا الاعتقاد عندما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه لانه لم ينفذ أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز أتقاء لنزول غزاة من البحر ...

وفى أثناء ذلك طفق العلماء يقرأون البخارى فى الازهر ومسجد سيدنا الحسين، ويدعون بالنصر لعساكر عرابى والهزيمة للانجليز ، وكان أمام الخديو الشيخ الصالح العالم الابيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنيه ، فنشر قصيدة ابراهيم دريد فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم ، وهى عبارة عن دعاء وابتهال وقد أضاف اليها أبياتا من نظمه فكان من الناس من يقرأها ويتلوها بعد قراءة البخارى ...

وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية ، حتى النساء ، بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش ، وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف طبقاتهم والكتبة غيرة وحمية فى جمع الميرة

المطلوبة وحشد المتطوعين للجيش ولسائر الاشغال العسكرية ...

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لقتال الانجليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلا يتغنون بمديح عرابى ، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالبين النصر لجيوشنا » (١) .

وقال نينيه : « كانت ترد كل يوم الى كفر الدوار امانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية ، وقد أبدى أعيان الوجهين البحرى والقبلى شهامة عظيمة فى امداد الجيش، وفى مقدمتهم أحمد باشا المنشاوى زعيم طنطا الوطنى ، الذى أنقذ من الموت فى حوادث ١٣ و ١٤ يوليو عددا من المسيحيين واليهود ، وقد بدا من الاهالى ما يدل على شدة تعلقهم بالدفاع عن وطنهم وظهروا بمظهر الشرف»(٢)

وقال عرابى فى مذكراته المخطوطة تحت عنوان : «كرم المصريين وسخاؤهم » . قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لان المراقب الانجليزى المستر كلفن أخذ الاموال من خزينة المالية . وانزلها فى الدونمة الانجليزية قبل اعلان الحرب بأيام ، وكذلك الاموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق الى السفن الحربية حيث امنوا عليها ...

وبناء على ذلك أرسل المجلس العام الى المديريات

---

(١) ورد هذا التعريب لكلام الاستاذ فى كتاب الشيخ رشيد رضا وقد راجعناه على الاصل الانجليزى

(٢) « عرابى باشا » ص ٢١٦

بتحصيل الاموال من الاهالى عشرة قروش عن كل فدان ؛ ومن شاء أن يتبرع بشيء اعانة للجند المجاهدين فى سبيل الدفاع عن الوطن وحفظ الكرامة والشرف يقبل منه مع اعلان الشكر ...

ولما أعلن ذلك للعموم جادت الامة على اختلاف طبقاتها بالمال والغلال والخيل والجمال والابقار والجاموس والاغنام والفاكهة والخضروات ، حتى حطب الحريق..

وقد تبرع موسى بك مزار الرجل الوطنى بـ ١٣٠٠ ثوب من البفتة و٣٠ عجل بقر عن طيب خاطر، ووالدة الخديو اسماعيل تبرعت بجميع خيول عرباتها وجاراها فى هذا المضمار باقى أفراد العائلة الخديوية ، وكذلك حرم خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وحرم رياض باشا وكثير غيرهم من الذوات رجالا ونساء ، كل ذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الاقمشة والاربطة اللازمة لتضميد جروح الجند وغيرهم .وتبرع بعض الاهالى بنصف مايملكونه من الغلال والماشية ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجمله فان الامة المصرية عن بكرة ابيها قدمت من التبرعات واظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الماضية ، أسال الله سبحانه وتعالى أن يجزى الامة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » (١)

وجاء فى كتاب أرسله عرابى من منفاه الى صابونجى فى يوليو سنة ١٨٨٣ ، قوله : « ارجو ان تذكر صديقنا المستر بلنت ، فضلا عما كتبناه اليه بتاريخ ١٥ الحالى أن جميع النفقات التى لزمت لمائة الف جندى مصرى

---

(١) فرغ المرحوم عرابى باشا من كتابة هذه المذكرات سنة ١٩١٠ اى قبل وفاته بسنة ، جعل الله الجنة مثواه .

أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الامة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدات الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من الف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من الف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينـا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والاقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الامة لجيشها المدافع عن وطنها ... ولم ينفق على الجيش اثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » (١)

وتجلت حماسة الامة للثورة وللحرب فيما ألقاه نفر من أبنائها من الخطب وما كتبوه من المقالات وما نظموه من الشعر وكلها ناطقة بنضج هؤلاء وحرصهم على الحرية والدستور ونفورهم من الاستبداد والعبودية ، وان الذى يقرأ ذلك ليوقن انه حيال حركة صـادقة قوية جديرة بكل ثناء واعجاب ، ولو اتسع المجال لاوردنا طائفة منها ، فلنكتف بذكر أسـماء نفر من أصحابها ، وقد كان فى مقدمة هؤلاء عبد الله نديم خطيب الثورة وكاتبها الاشهر وصاحب جريدة «الطائف» لسان حال الثورة ومرآتها ، والشيخ محمد عبده أحد أفذاذ الحركة الاعلام والاستاذ الشاعر الشيخ أحمد عبد الغنى من علماء الازهر والشيخ على المليجى والشيخ محمود ابراهيم خطيبا أسيوط ، والشيخ محمد أبو الفضل خطيب مسـجد الحنفى ، والشيخ حميدة الدمنهورى والشيخ عبد الوهاب أبو عسكر والشيخ محمد فتح الله والملازم على أفندى غالب

---

(1) S. H. Blunt p. 541

والشيخ أحمد سيف البارى وغيرهم من الخطباء ورجال القلم ...

***

وكان جيش مصر العامل تحت السلاح عند بدء الحرب لايزيد عن عشرة آلاف كما ذكر عرابى ولعل عرابى يقصد القوات التى كانت فى كفر الدوار، فقد ذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته احصاء عدد الجيش فقال : « كان الجيش مؤلفا من ٨٠٠٠ منظمة مع ٨٠ مدفعا من كروب ، وكان

يوجد فى أبى قير ثلاثة آلاف وخمسمائة ، وألفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، المجموع احد عشر ألفا ، أما الخيالة فلم يكن لهم وجود الا قليلا » (١)

واحصاء الشيخ محمد عبده قريب من احصاء عرابى لانه كان يقصد بالثمانية آلاف التى ذكرها أولا الجيش القائم فى كفر الدوار ، فاذا أضيفت هذه الى تلك الآلاف الاحدى عشرة الموزعة على النحو الذى ذكر كان الجيش فى مجموعة نحو تسعة عشر ألفا .

ويقول بلنت : ان الجيش المصرى لم يكن يزيد عن ثلاثة عشر ألفا من الجنود النظامية كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار ...

وذكر نينيه أن الجيش النظامى لم يكن يزيد عن تسعة عشر الفا ، كان منهم ثمانية آلاف فى كفر الدوار، وثلاثة آلاف وخمسمائة فى أبى قير والفان وخمسمائة فى رشيد وخمسة آلاف فى دمياط ، ويتفق هذا الاحصاء مع ما ذكره الشيخ محمد عبده

أما الصحف الانجليزية فقد بالغت فى عدد الجيش ،

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٥٥

حتى كانت ترتفع بهذا العدد أحيانا الى ما يقرب من خمسين الفا ...

وانضمت الى الجيش النظامى أعداد من المتطوعين لم يتوصل الى حصرهم ، ولعل هذا هو السبب في اختلاف الآراء فى احصاء عدد الجيش المصرى وقت القتال ، والواقع أن المتطوعين كانوا أضعاف النظاميين وقد وزعوا على أعمال مختلفة تتصل بالجهاد ...

وقد عين عرابى باشا محمود فهمى باشا رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الاسكندرية ، وكان محمود باشا فهمى من أكفأ رجال الهندسة الحربية فى مصر ، وقد تخرج فى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ونبغ فى الفنون الهندسية أثناء التحاقه بالجيش المصرى ، ثم عين أستاذا لعلم بناء الاستحكامات والفنون العسكرية فى المدارس الحربية فى عهدى سعيد واسماعيل باشا ، وقد عهد اليه بتحصين الشواطىء المصرية الشمالية ، فأكسبه ذلك خبرة عمليـة ، كما أنه اشترك فى حرب البلقان التى نشبت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٦ ، فاكتسب مرانا وخبرة ...

وقد وضع محمود فهمى باشا خطة حكيمة للدفاع عن مصر كانت كفيلة بأن تصد الانجليز وتنقذ مصر من تدبيرهم وسوء مكرهم ، وسنرى مبلغ ما دخل على هذه الخطة من عوامل أضعفتها وأحبطتها فى النهاية ...

عين محمود باشا خمسة مواقع رئيسية للدفاع ، أولها فى كفر الدوار ، وثانيها فى رشيد ، وثالثها بين رشيد وبحيرة البرلس ، ورابعها فى دمياط ، وخامسها فى الصالحية والتل الكبير ، وكان الغرض من هذا الاخير صد هجوم الانجليز من ناحية قناة السويس

وقد سد محمود باشا ترعة المحمودية بالقرب من كنج

عثمان ووضع المدافع على السد لحمايته ، كما اشار بسد ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة عن الاسماعيلية والسويس وبورسعيد ، وبسد قناة السويس نفسها لمنع اتخاذها قاعدة عسكرية للانجليز ...

أما القيادة فقد عين طلبة عصمت باشا قائدا لفرقة كفر الدوار تحت امرة عرابى ، وخورشيد باشا طاهر على رشيد وأبى قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط وعبد العال باشا حلمى على دمياط ومحمود باشا سامى البارودى على الصالحية ، والفريق راشد باشا حسنى لخطوط الدفاع فى الميدان الشرقى .

وبعد .. فهذه أمة ممثلة فى مؤتمر وطني وقد نهضت نهضتها بالامس القريب ، وهذا جيش أمة يقوم على تطوع ابنائها ، وهذا قائد أمة يذود عنها فى وجه انجلترا صاحبة الامبراطورية العظمى ، ومالكة الاساطيل الضخمة ، وذات النفوذ السياسى العظيم ..

وقد واتت انجلترا الفرصة لتحقيق حلمها الذى ساورها منذ اخراج حملة نابليون من مصر ، والذى بدده محمد على سنة ١٨٠٧ حين أجبر فريزر على الانسحاب بعد ان أحبط كيده وقد كان يمنى نفسه أن ينضم اليه بعض زعماء المماليك كما ينضم الخديو الى سيمور اليوم ... والذى عاد يغازل خيالها حين فتحت قناة السويس وصار فيها النفوذ لفرنسا ، والذى باتت منه اليوم على قيد خطوات بعد ضرب الاسكندرية واحتلالها ...

ونحب من الذين لا يزالون ينكرون الحرب على عرابى أن ينظروا فى هذا الذى نقول ، وان يذكروا ما قدمناه فى صفحات هذا الكتاب من الادلة على ان نية انجلترا فى الاستيلاء على مصر كانت سابقة لعهد عرابى ، وأن يستعيدوا ما قلنا فى أكثر من موضع انه لو لم يوجد

عرابى لعمل الانجليز على خلقه ...

وليذكر هؤلاء حقيقة اخرى لا يخلق بمصرى أن يجهلها ، وهى ان الانجليز حاربوا الحركة القومية الدستورية فى مصر لانها قامت حين قامت فى أواخر عهد اسماعيل لتنقذ مصر من دسائسهم ومن شباكهم المالية ولانهم أيقنوا انهم لو تركوها وشأنها استعصى عليهم بعد ذلك قمعها وضاعت فرصة اصطياد مصر من أيديهم !

ونظن أنه لم يعد فى مصر من يمارى فى هذه الحقائق، وعلى ذلك فمن لغو القول ومن تفاهة التفكير وسخفه أن يردد انسان فى مثل نغمة الصبية قول الجاهلين بحقيقة هذه الثورة القومية وحقيقة أطماع الانجليز فى مصر ، انه لولا عرابى وثورته ما دخل الانجليز مصر ...

ما سعى عرابى الى هذه الحرب ، ولكنه لما رأى أن انجلترا قد ساقت البلاد اليها بسياستها ، وأيقن أن الامر بات أمر كرامة وشرف ودفاع عن حرية يراد بها أن تخنق ، لم يجد بدا من خوض غمرتها كما ذكرنا فاما نصر يتحقق به كل شىء ، واما هزيمة تذهب بكل شىء الا الشرف والكرامة ، ولم يكن ينتظر من وراء التسليم بلا قتال كما ذكر بلنت شىء يخالف ما حدث فعلا بعد الحرب ، وعلى هذا فضلت مصر أن تقف موقف الكرامة ، وما حملها عرابى على هذا الموقف كرها وانما كان ممثل ارادتها وقائد ثورتها ..

وقد حاول عرابى ورجال الحزب الوطنى أكثر من مرة أن يقنعوا جلادستون بعدالة قضيتهم وبان العدوان عليهم ليس طريق الصواب ، وكان سفيرهم فى هذا السعى صديقهم مستر بلنت ، ولكن المسألة كما ذكرنا فى أكثر من موطن فى هذا التاريخ لم تكن مسألة اقناع وانما هى نية مبيتة ، والانجليز فى سبيل امبراطوريتهم

ومطامعهم الاستعمارية لا يبالون بشيء ...

وكانت آخر محاولة من عرابي في هـذا السبيل ما أملاه على صابونجي ليرسله الى بلنت كي يحمله هذا الى جلادستون وكان ذلك في اليوم الثاني من يوليو أي قبل العدوان الغادر على البلاد بتسعة أيام ... قال عرابي بعد أن أنذر بسوء ما يترتب على نية انجلترا في الشرق الاسلامي كله : «لقد سمحت الحكومة الانجليزية لنفسها أن يخدعها وكلاؤها فكلفها ذلك مكانتها في مصر. وستجد انجلترا نفسها أنها عملت بنصح أسوأ اذا حاولت أن تستعيد ما فقدته بالقوة الوحشية ، قوة المدافع والحراب ... ومن الناحية الاخرى فان هناك وسائل انسانية ودية الى هذا الغرض ، ان مصر على استعداد بل انها لترغب في أن تصل الى تفاهم مع انجلترا على أساس أن تكون صديقتها وأن تحمى مصالحها في مصر كما تحمى طريقها الى الهند ، وتكون حليفتها ، ولكن يجب على انجلترا أن تظل في حدود ما تخوله لها القوانين ، فاذا آثرت انجلترا أن تظل على انخداعها وأن تتباهى علينا وتهددنا بأساطيلها وفرقها الهندية فلها أن تختار ما تشاء ولكن على الا تقدر وطنية الشعب المصري قدراً ينزل بها من حقيقتها ، ان ممثليها لم يطلعوها على التغيير الذي طرأ علينا منذ أيام طغيان اسماعيل

وان الامم في عصرنا هذا لتخطو خطوات مفاجئة هائلة في طريق التقدم ، وجملة القول : انه ينبغي أن تكون انجلترا على يقين من أننا عقدنا العزم على أن نحارب ، وأن نموت شهداء أوطاننا كما يقضي بذلك ما جاء به رسولنا أو ننتصر فنعيش سعداء مستقلين، وان السعادة في الحالين هي ما نوعد به ، وان أمة تؤمن بهذا لن يعرف

لشجاعتها حد » (١) .

واختارت انجلترا سبيل القوة وضرب أسطولها الاسكندرية واعتدت عدوانها الغادر على مصر والمؤتمر الدولي الذى انعقد فى الآستانة والذى قرر أن يكون للسلطان وحده حق التدخل فى مصر لايزال قائما لم ينفض ...

***

اختلقت انجلترا الظرف القاهر الذى اتخذته ذريعة لضرب الاسكندرية ، ثم فعلت ذلك فى غير تحرج من شناعة ما تفعل ، والآن بعد ان خطت الخطوة الاولى وأنزلت جنودها بالاسكندرية ، اتجهت سياستها الى اتمام ما بدأت وتحقيق حلمها القديم باحتلال مصر ...

وانحصر همها الآن فى أن تصل بسياستها الى أحد أمرين : أما أن تظفر من المؤتمر بتفويضها بدخول مصر وبذلك يلغى قراراته جميعا ، واما أن تفعل ذلك دون مبالاة بالمؤتمر كما فعلت حين ضربت الاسكندرية ...

وكان الخطر الذى زعمت أنه محدق بالاجانب هو الذى خوفت به المؤتمر بالامس فبماذا تخوف المؤتمر اليوم وقد رحل الاجانب عن داخل البلاد وبقى منهم من بقى بالاسكندرية ؟ ولكن هل يعدم الانجليز حيلة ؟ لقد راحوا يخوفون المؤتمر وينذرونه بويل جديد هو الخطر المحدق بقناة السويس ...

واحست انجلترا أن أمامها صخورا يجب أن تتجنبها فى حذق ويقظة ، فهى لا تأمن أن تراجع فرنسا نفسها فيما فعلت فتطرح حيادها ، وهى لا تأمن جانب الدول الاخرى كروسيا والمانيا والنمسا وايطاليا ، وهى

---

(١) S. H. Blunt p. 372

لا تستبعد أن توافق تركيا على الانضمام الى المؤتمر ؛ وقبول قراره الذى أصدره فى اليوم السادس من يوليو وارسال قوة تركية الى مصر بناء على هذا القرار ...

لذلك عادت انجلترا الى مراوغاتها ؛ وقد أعدت لكل أمر حسابه ، وسوف تعتمد هنا كذلك على سياسة الامر الواقع ، تلك السياسة التى نبغت فى اتباعها ، والتى تسبقها بمفاوضات ومراسلات تقصد بها الى التمويه ، ثم تباغت بالخطوة المبيتة ؛ كما تفعل سفنها اذ تثير الدخان من حولها ثم تضرب ضربتها ...

ماكاد يفرغ سيمور من ضرب الاسكندرية حتى ارسل جرانفل الى دوفرين بيانا مطولا ليفضى به الى زملائه ، وفيه تفصيل للحوادث التى ادت الى ضرب الاسكندرية واختتمه بقوله : « ان حكومة جلالة الملكة لا ترى الآن غير اتباع القوة للقضاء على حال لن تطيق بعد صبرا عليها ... وانها ترى أن أصلح وضع وأقربه الى مبادىء القانون الدولى والعرف أن يكون الجيش الذى يؤدى هذا الغرض هو جيش الدولة صاحبة السيادة ، فاذا لم يتيسر ذلك لتردد السلطان صار من الضرورى النظر فى طرق أخرى ... ولا تزال حكومة جلالة الملكة عند رأيها الذى أبدته فى منشورها بتاريخ ١١ فبراير ومؤداه أن كل تدخل فى مصر يجب أن يكون مظهرا لارادة أوربا وتضامنها » (١) .

اذن ترى انجلترا الاستمرار فى الحرب ولكن ماذا تقصد « بالطرق الاخرى ؟ » ذلك ما سوف تتكشف عنه سياستها ؛ وهل تكون الطرق الاخرى غير انفرادها بدخول مصر كما انفردت بضرب الاسكندرية ؟

---

(١) مصر رقم ١٠ سنة ١٨٨٢ ص ١٧٣

وفى اليوم الخامس عشر من يوليو ، أى بعد ضرب الاسكندرية بأربعة ايام اجتمع المؤتمر لاستئناف أعماله فبلغت المهزلة فى تاريخه أقصى ما تبلغه ، ففى ذلك اليوم تلقى أعضاء المؤتمر اعتماد حكوماتهم للمذكرة المشتركة وارسلت الى تركيا الدعوة للاشتراك فى المؤتمر وارسال جيش عثمانى الى مصر تنفيذا لقراره ...

وتباطأ السلطان وتلكأ وصار يقدم رجلا ويؤخر اخرى حتى بعد أن وصلت الامور الى هذا الحد ، ويبدو أن انجلترا كانت واثقة من أن السلطان لن يقبل ما طلبت الدول ، فقد أبرق جرانفل الى دوفرين فى اليوم التاسع عشر يطلب اليه اما أن يمهل السلطان اثنتى عشرة ساعة أو يشرع فى البحث عن وسائل أخرى (١) . وأخيرا فاجأ السلطان المؤتمرين فى اليوم التاسع عشر نفسه بأنه قبل الاشتراك فى المؤتمر للمباحثة فى اقرار الوسائل الكفيلة باعادة الامور الى وضعها السليم !..

ولعل تركيا كانت تتوقع أن تؤيدها المانيا فتضع العراقيل فى سبيل انجلترا ، اذ كانت المانيا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ تميل الى ملاينة تركيا واستدراجها الى جانبها تحقيقا لاطماعها فى البلقان والشرق ، ولكن بسمارك كان يرمى من جهة أخرى الى الايقاع بين انجلترا وفرنسا وذلك باطلاق يد انجلترا لتنفرد بالدخول فى مصر فتثير بذلك فرنسا ، كما انه فى الوقت نفسه كان يريد أن يوقع انجلترا وحدها فى سوء عملها ليحاسبها على ذلك عند الضرورة ، ولهذا رأى بسمارك أن يترك انجلترا وشأنها فلم يمنحها تفويضا كما فاوضته وساومته ولم يضع فى وجهها العراقيل كما توقعت تركيا أن يفعل ،

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٧٥

ففى اليوم العشرين من يوليو أبرق دوفرين الى جرانفل خلاصة حديث جرى بينه وبين القائم بأعمال السفارة الالمانية فقال : « انه بعد انفضاض الاجتماع أعاد على وعلى السفير الفرنسى ، القائم بأعمال السفارة الالمانية ما سبق أنذكره فىاليوم السالف ومؤداه أن دولالشمال لن ترضى بتفويض ما وانه خير لنا أن نتقدم وحدنا من غير ابطاء ، وان كل انسان يقر أن التحفظ الذى أثبتناه باسم الظروف القاهرة يشمل كل ما نضطر الى عمله فى مصر ، وقد حذا حذوه السفير النمسوى فى الاجتماع الاخير » (١) .

ولقد كان سفير النمسا أكثر صراحة من القائم بأعمال السفارة الالمانية وذلك أنه قال : « انه لا يعارض فى أن تعمل انجلترا أو فرنسا على شرط الا يفهم من ذلك أنها تعمل بتفويض من أوربا » (٢) .

ويبدو انه لما يئست تركيا من المانيا واحست ما كان بين مندوبها وبين دوفرين مالت أخيرا الى الاشتراك فى المؤتمر .

وكان عمل تركيا هذا خليقا أن يسبب ارتباكا شديدا للسياسة الانجليزية ، ولكن انجلترا سوف لا تبالى به ولن تعدم أن تخلق شروطا ومباحثات مع تركيا حتى تباغتها بالامر الواقع ...

ولم تنتظر انجلترا ماعسى أن يفعل المؤتمر ولا ماعسى أن تفعل تركيا ، فقد رأت فى موقف المانيا والنمسا ما يسهل لها عملها تسهيلا كبيرا .

ففىاليوم الثانى والعشرين من يوليو شرحجلادستون سياسة الحكومة الانجليزية فى مجلس العموم حيال المسالة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢١٦
(٢) ص ٢١٥/٢

المصرية فأدلى بتصريح جلي وصل به الى وضع المؤتمر أمام الامر الواقع ، وواضح أنه كان يقصد به الي الرد على قبول تركيا دخول المؤتمر وتنفيذ قراره قال : «اننا نشعر أننا لم نؤد واجبنا اذا لم نحاول أن نغير الحال الداخلية القائمة فى مصر الآن من الفوضى والفتن الى السلام والنظام، وسوف ننظر فيما تبقى لدينا من وقت فى تعاون دول أوربا المتمدنة وايانا اذا كان سبيل ذلك التعاون مفتوحا أمامنا » ثم أضاف الى ذلك بين هتاف النواب واستحسانهم قوله : « فاذا أعيتنا جميع الوسائل المؤدية الى التعاون فان هذا العمل سوف تضطلع به انجلترا وحدها » (١) .

ولكن انجلترا لم تكن تريد أن تذهب فى معارضة تركيا الي حد اغضابها وذلك لأنها كانت تدخرها لامر خطير ذلك هو أن يعلن السلطان عصيان عرابى فيذهب بذلك ما جاءه من مكانة فى نفوس الناس من ناحية أنه المدافع عن حقوق أمير المؤمنين ... لذلك سوف تعمد انجلترا الى المراوغة والمصانعة حتى تظفر بهذا التصريح الخطير ثم تدير ظهرها لتركيا آخر الامر فى غير مبالاة وفى غير هوادة ...

وهل يمنع انجلترا قبول تركيا تنفيذ قرار المؤتمر والاشتراك فيه من اعداد حملتها على مصر والسير فيها الى نهاية الشوط ؟ كلا بل ان ذلك كان حافزا لها على سرعة البت لتضع تركيا وغيرها حيال الامر الواقع ...

وما كانت معارضة تركيا سياسة انجلترا لتغنى عنها شيئا ، وان انجلترا لتفهم ما بين الدول من تيارات خفية يصعب معها اجماع كلمتها على مناهضتها ، وتدرك مبلغ استعداد كل منها للتدخل الفعلى فى شئون مصر ...

---

(1) M. E. Cromer p. 234

ومضت انجلترا فى سياستها ، ففى اليوم السابع والعشرين من يوليو وافق البرلمان علىالمبلغ اللازم للحملة وقدره ٢٣ مليونا من الجنيهات بأغلبية ٢٧٥ عضوا تلقاء ١٩ من المعارضين ...

وأعد خمسة عشر ألفا من الرجال للسفر الى مالطة وقبرص وأمر بارسال خمسة آلاف من الهنود الى مصر وعين السير جارنت ولسلى قائدا عاما للحمله الانجليزية على مصر « ليقضى على ثورة عسكرية فىتلك البلاد ورغبة فى تأييد سلطة سمو الخديو كما قررتها الفرمانات السلطانية والعلاقات الدولية القائمة » .

وكانت انجلترا قد أخذت تعمل على وضع الصعاب فى وجه تركيا منذ ان ثبت لديها أنها قبلت قرار المؤتمر فأرسل جرانفل الى دوفرين فى الحادى والعشرين من الشهر يطلب الى السلطان : « فى عبارات مناسبة أنه بعد المراسلات التى جرت والتباطؤ الذى حدث ، لم يبق له من أمل به يستعيد ثقة حكومة جلالة الملكة الا أن يعلن فى الحال بلاغا فى صالح الخديو وفيه قرار بأن عرابى يعد من العصاة » (١)

وكانت انجلترا ترمى بذلك الى المراوغة كما ذكرنا ريثما تعد العدة لحملتها وتتبين سياسة الدول الاخرى ولعلها كذلك تظفر بهذا البلاغ الذى سوف تعيد الكرة للظفر به مهما كلفها ذلك من جهد ...

أما عن موقف فرنسا ، فكان يتحكم فى سياستها نحو المسألة المصرية عامل قوى ، وذلك أنها كانت لا تستطيع اغضاب انجلترا ، لان سياسة بسمارك كانت موجهة فى نشاط الى وضعها فى عزلة سياسية ، وكانت تدرك فرنسا بعد أن انضمت ايطاليا فى مايو سنة ١٨٨٢ الى

---

(١) مصر رقم ١٨ ص ١٨٧ .

التحالف بين المانيا والنمسا ، ان سياسة بسمارك فى طريقها الى النجاح ، وانه خير لفرنسا أن تحرص على مودة انجلترا وروسيا ، وهي لا تامن ان شاركت انجلترا فى حملتها على مصر أن يؤدي ذلك الى الخلاف بينهما ، كما انها بالضرورة لا تستطيع أن تقف منها موقف المعارضة لهذا الاعتبار . .

وكان بسمارك لا يفتأ يلاين انجلترا فى المسألة المصرية ليثير بذلك فرنسا علها تتدخل فيصيب بذلك غرضين : أن يجعل فرنسا فى وضع لا يبعد فيه أن ينشب الخلاف بينها وبين انجلترا ثم توزيع جزء من قواتها فى مصر وقد وزع جزء منها فى تونس منذ احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١

لهذا انقسم الرأى العام فى فرنسا قسمين : فريق يرى التدخل فى شئون مصر ، وفريق يدعو الى عدم اثارة ما يمس التحالف بين انجلترا وفرنسا ... على أن كلا الفريقين اتفقا على وجوب اتخاذ الوسائل الفعلية للدفاع عن قناة السويس بقطع النظر عن دخول مصر .

وكان رئيس الوزارة المسيو فرسنيه يرى ان أسلم حل هو أن تتولى تركيا التدخل وفقا لقرار المؤتمر ، وبذلك لا تنفرد انجلترا باحتلال مصر ولايكون هناك مجال للخلاف بينها وبين فرنسا ولكن أنى له أن يظفر بهذا الحل ؟

وفى الثاني والعشرين من يوليو أرسل جرانفل الى السفير الانجليزى فى باريس يقول له : « قدم هذه المقترحات الى الحكومة الفرنسية ، أولا : ما لم يرد من الباب العالي موافقة من نوع يمكن أن تعول عليه فى الحال ، ففى هذه الحال ترسل تعليمات الى المندوبين الانجليزى والفرنسي ليقولا لبقية السفراء ان انجلترا وفرنسا لم تعودا تعتمدان على التدخل التركى ، ولما كانتا تريان

ضرورة العمل السريع لمنع اى خسارة جديدة فى الارواح ولمنع استمرار الفوضى ، فانهما تعتزمان ـ اذا لم يكن لدى المؤتمر خطة أخرى ـ أن تبحثا مع دولة ثالثة الوسائل المؤدية الى حل .

ثانيا : أن يطلب الى ايطاليا أن تكون هى الدولة الثالثة

ثالثا : أن نتشاور فى الحال فى تقسيم العمل

رابعا : أن تكون قناة السويس ضمن المشروع العام لهذا العمل الائتلافى » (١)

وفى الرابع والعشرين رد. القائم بأعمال السفارة الفرنسية فى لندن على هذه المقترحات « بأن الحكومة الفرنسية قد صممت على أن تفصل مسألة حماية قناة السويس عن المسألة التى عرفت بالتدخل فى مصر... وأنها ستبتعد عن أى عمل فى داخل مصر الا اذا كان لرد عدوان مباشر ، واذا كان الجيش الانجليزى يرى من الملائم أن يضطلع بهذا العمل فليس له أن يعتمد على مشاركة فرنسا ، وفى الوقت نفسه فان مسيو فرسنيه يرغب أن يكون مفهوما أن الحكومة الفرنسية لا تعارض فى اقدام انجلترا على هذا اذا عزمت على الاقدام (٢) .

وبعد ذلك بيوم أرسل السفير الانجليزى بباريس الى جرانفل يقول انه قابل فرسنيه فقال ان رد الحكومة الفرنسية « هو انها فى الوقت الحالى لا ترى الذهاب الى ما هو أبعد من التعاون المحدود على حماية قناة السويس، ذلك الذى تم الاتفاق عليه » واضاف السفير الانجليزى أن فرسنيه لم يبد اعتراضا على اعتزام الحكومة الانجليزية دعوة ايطاليا (٣) .

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٩٤ (٢) ص ٢١١
(٣) مصر رقم ١٧ ص ٢٠٩

وكان غرض انجلترا من دعوة ايطاليا فى الواقع أن تتمادى فى ادعائها أنها لا تريد الانفراد بالعمل وأنها لما لم تجد عونا من فرنسا التمسته عند ايطاليا ، وأنها تبذل ما فى وسعها فى سبيل التعاون الدولى الذى زعمه جلادستون فى تصريحه بمجلس العموم لكيلا يكون لاوربا بعد ذلك حجة على انجلترا ...

واشتدت المعارضة فى وجه فرسنيه فى المجلس التشريعى الفرنسى على اثر اتصال بينه وبين السفير الالمانى فى باريس ذكر فيه ذلك السفير أن ألمانيا ترى أن خير وسيلة لحل المسألة المصرية هو التدخل التركى ...

ورأى الفرنسيون أن بسمارك يريد بذلك أن يسند وزارة فرسنيه ، وعدوا ذلك تدخلا فى شئونهم الداخلية فغضبوا على وزارتهم أيما غضب .

وفى الوقت نفسه أرسلت انجلترا الى فرنسا تقول ، فى اليوم السابع والعشرين من يوليو : « ان حكومة جلالة الملكة وان كانت تقبل اشتراك تركيا فيما يتعلق بالتدخل فى مصر آلا انها ستمضى فيما شرعت فيه من الوسائل» (١)

لذلك حينما استمرت المناقشة فى المجلس التشريعى الفرنسى فى التاسع والعشرين من الشهر ، خذلت الوزارة بأغلبية ٤١٦ عضوا حيال ٧٥ ، فاضطرت إلى الاستقالة وخلفتها وزارة سوف تنفض يدها عما قريب من المسألة المصرية .

ففى اليوم التالى ردت الحكومة الايطالية على اقتراح اشتراكها فى التدخل برفضها هذا التدخل من جانبها تاركة انجلترا تتحمل تبعة التدخل وحدها .

ومما يحمل على العجب أن ايطاليا كانت قد ثارت ثائرتها أول الامر لرغبة انجلترا فى الانفراد بالعمل وحملت

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٣٤

الصحف الايطالية على سياسة انجلترا حملة شديدة وحملتها تبعة ما وقع فى مصر من ارتباك ونددت بمطامعها الاستعمارية ، وكانت ايطاليا الطامعة فى شمال افريقيا حانقة على فرنسا التى استولت على تونس وزاد حنقها على انجلترا التى همت بالتهام مصر . وكان من اسباب دعوة انجلترا اياها لمشاركتها فى مصر هذا الحنق ، ووجه العجب أن تنفض يدها بعد ذلك من المسألة بهذه السهولة .

***

وأشارت روسيا على مندوبها بعدم حضور المؤتمر فى نهاية يوليو وذلك « لانها اشتركت فيه على أن تكون قراراته ذات قيمة لا على ان يكون مسجلا لحقائق واقعة فحسب » (١) .

وبذلك أخلت جميع الدول سبيل انجلترا للعمل بمفردها ، وهى ان لم تظفر بتفويض من المؤتمر بتدخلها لن يضيرها ذلك ما دامت قد أطلقت يدها ، وما كانت انجلترا تعبأ يوما بالشكل دون الجوهر .

ولم تعد انجلترا تحفل بتركيا ، وانما استمرت فى خطتها التى راحت توهمها بها انها جادة فى دعوتها اياها للعمل على حل المسألة ، حتى تظفر منها باعلان قرار العصيان الذى ترمى عرابى به فتصميه ، وتنال به منه أكثر مما تنال بجنودها وأسلحتها ...

ولندع المؤتمر عند هذا الوضع من مهزلته لنعود الى خطوط الدفاع عند كفر الدوار ، ولنا بعد ذلك عودة لنبلغ بمهزلة المؤتمر نهايتها ولنتتبع سياسة انجلترا حتى نهاية الشوط ...

كان أول عمل من جانب المصريين هو سد ترعة

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٥٩

المحمودية كما سلف الاشارة اليه لمنع المياه العذبة عن الاسكندرية ، ولقد انزعج الانجليز من هذا العمل وأخذتهم منه حيرة ...

وفى اليوم السادس عشر من يوليو ابرق كارتريت الى حكومته أنه يخشى من هجوم ليلى على الاسكندرية . وأن الادميرال أرسل سفينتين الى أبى قير مخافة أن يقطع عرابى الشاطىء ويدع ماء البحر ينساب ، وقد سلفت اشارة منا الى ذلك ...

بقى الحال على ذلك بقية شهر يوليو وانجلترا تعد العدة لحملتها الكبرى وتبذل نشاطها السياسى فى المؤتمر وفى العواصم الاوربية حتى اطلقت يدها فى نهاية الشهر كما بينا ...

ففى اليوم الخامس من أغسطس بدأ الانجليز هجومهم ببعض ما لديهم من الجند قبل أن يأتيهم المدد ، فزحفوا من الرمل فى نحو ألفى مقاتل من المشاة يقودهم الجنرال أليسون ، فلما صاروا على بعد الف وخمسمائة متر من الخطوط المصرية ، تصدى لهم المصريون فى أورطتين فى مثل عددهم تحت قيادة البكباشيين احمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم ... ثم جاء خورشيد باشا طاهر على رأس ثلاث بلوكات من الفرسان ، وحمل المصريون على الانجليز حملة قوية ، وبعد ثلاث ساعات ونصف ساعة اضطر الانجليز الى التقهقر وفروا الى الرمل مهزومين (١) .

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة تعقيبا على هذه المعركة التى سماها واقعة أبى قير « ولم يستشهد احد من عساكرنا الابطال ، وكان ابتداء المحاربة الساعة الاولى من النهار وانتهاؤها فى تمام الساعة الرابعة فمدة القتال

(١) الوقائع المصرية ٨ ، ١٠ اغسطس ١٨٨٢

ثلاث ساعات ونصف ساعة أبلت فى خلالها رجالنا بلاء حسنا ، بيد أنه لم تعرف خسائر العدو لرفعه اياها من الميدان أولا فأول » (١) .

عاد الانجليز الى الهجوم فى اليوم التالى وقد أعدوا له عدة قوية هذه المرة ، فتقدمت ميمنتهم بطريق السكة الحديد من القبارى ، وميسرتهم على ضفة الترعـــة المحمودية من الرمل ، وتحرك القلب من طريق الجسر الذى يعبر المحمودية ،وكان يقودهم اليسون .

وثبت لهم المصريون ثباتا خليقـا بالاعجاب حقـا ، ودافعوا فى هذه المعركة دفاعا مجيدا ، وقد شهدها من المصريين طلبة عصمت الذى ولى القيادة بعد احمد عبد الغفار وكان على راس الفرسان والبكباشيـة محروس ومحمـد فودة وسليمان تعيلب ورزق الله حجـازى والقائمقام احمد عفت ...

وأبلى البكباشى محروس بلاء حسنا فى صد ميسرة الانجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله وكذلك أظهر البكباشى محمد فودة بسالة وجلدا عظيمين فى الهجوم على قلب الانجليز وميسرتهم ، وجاءه المدد مرات بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ، ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمـد عبد الغفار ، وبعد ست ساعات من القتال الشـديد ، ارتد الانجليز منهزمين ولحق بهم المصريون حتى حجبـهم الظلام عنهم ...

وقد عقب عرابى على هذه المعركة بقوله : « فلمـا قربوا مسافة ٨٠٠ متر اشتبكوا فى القتال مع أورطـة محروس أفندى البكباشى وأورطة المستحفظين حكمدارية

---

(١) الوقائع ٨ اغسطس ســـنة ١٨٨٢ ، وقد اعتمدنا فى تاريخ المعركتين على ماجاء فى مذكرات عرابى المخطوطة

محمد أفندى فودة الذى اظهر من الشجاعة ما يقصر اليراع عن وصفه ، ولما اشتد القتال بين الطرفين ، تقدم الرجل الشجاع أحمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه أورطة سليمان أفندى تعيلب وأورطة رزق الله حجازى البكباشي ، وأصلوا العدو نارا حامية ، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ومعه الآلاى برنجى سوارى حكمدارية أحمد بك عبد الغفار ، وحرك الاورطة جهة المقدمة فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الابيض وجها لوجه ، ولما أظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعا وعساكرنا فى اثره تأخذ عليه الطريق وتضيق عليه السبل وتضربه حتى حال الظلام بين الفريقين .. وعند تفقد عساكرنا وجد من المستشهدين ٢٩ من الانفار والصف ضباط والملازم الشجاع أحمد أفندى على والجرحى البكباشي محروس أفندى الذى توفى بسبب جراحه واثنان من الملازمين و ٦٥ من الصف ضباط والانفار ..

***

ولقد أبدى كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الموقعة ما يستحقون من أجله الثناء الجميل فى الدنيا وعظيم الاجر فى الآخرة .. وخسائر العدو كانت عظيمة وقد ترك عساكر الانجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها الملازم ديز وصار دفنه فى جسر المحمودية ، وقد شوهد الكثير من عساكر الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ، وفى اليوم الثانى كانت ساحة القتال مشوهة بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة فى نقط عديدة»

ولما استيقن الانجليز أنهم عاجزون عن زحزحة المصريين عن خطوطهم القوية انكفأوا راجعين الى الاسكندرية لينتظروا هناك ما يأتيهم من المدد ...

أما عرابى وأصحابه فما زالت تسعى اليهم الوفود فى خيمته عند كنجعثمان ، حاملة للجيش ماجادت به البلاد من مال وتمار وماشية للدفاع عن الوطن وكرامته ...

وأما الخديو فقد بادر بتهنئة الانجليز على ما اصابوا من انتصار فى المعركتين ! كأنما يستحيل على توفيق أن يتصور الانجليز الا غالبين ولو كانت هزيمتهم أمرا محققا

وفى الوقت نفسه أصدر توفيق بلاغا فى اليوم السابع من أغسطس يحذر فيه المصريين من مشايعة عرابى ، ورماه فيه بالعصيان والثورة وتوعد كل من يشايعه بعقاب شديد من لدنه (١)

***

واستمر مجيء المدد الى الانجليز ، فأصبح لديهم فى الاسكندرية حوالى اليوم العاشر من اغسطس نحو اربعة عشر الفا من المشاة وثلاث فرق من الفرسان ونحو الف من رجال المدفعية ونيف وخمسمائة من المهندسين ، وعدد آخر من المختصين بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية ...

وفى اليوم الثالث عشر من أغسطس وصل الى الاسكندرية السير جارنت ولسلى القائد العام للحملة الانجليزية ...

لنعد بعد ذلك الى مهزلة المؤتمر او الى مراوغة السياسة الانجليزية وانتصارها تحت سمع المؤتمر وبصره وسلوكها وانوف أعضائه فى الرغام سبيلا غير التى أرادوها من أول الامر ...

انطلقت تركيا منجمودها آخر الامر كما بينا وانضمت الى المؤتمر وقبلت ارسال جند عثمانية الى مصر ، أى أنها قبلت أن تعمل بما كانت تلح به انجلترا عليها من

---

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢

قبل ، ولكن انجلترا لن تسمح لها اليوم بشيء من هذا.

في اليوم السادس والعشرين من يوليو أفضى سعيد باشا وزير الخارجية وعضو المؤتمر الى الاعضاء بأن الجنود العثمانية على أهبة السفر الى مصر ، وفي الوقت نفسه أفصح للمؤتمر عن أمل حكومته في « أن التدخل الحربي بجنود أجنبية في مصر لم تعد له ثمة ضرورة»

ولو أن المؤتمر كان يريد الانصاف لكان فيما تقدم به سعيد باشا أقرب وضع الى الحل المنشود الذي وضع المؤتمر قراره في اليوم السادس من يوليو ...

ولكن الدول كما بينا تراجعت في صورة مضحكة مخجلة عن قرارها للأسباب التي بيناها وجنحت الى ترك انجلترا تعمل على مسئوليتها مكتفية بأنها لم تعطها تفويضا بهذا . وهل كانت انجلترا تطمع في أكثر من أن تعمل على مسئوليتها ؟

وليتدبر القارىء في رد انجلترا على كلام سعيد باشا ولينظر مبلغ ما فيه من مناقضة لسياستها يعد من أكبر دواعي الخجل لو أن السياسة الانجليزية كانت تعرف الخجل يوما ما ، قالت انجلترا في برقية الى دوفرين في التاسع والعشرين من يوليو . « ان حكومة جلالة الملكة تقبل وصول قوات عثمانية الى مصر وتقبل التعاون معها على شرط أن تكون الصفة التي تأتي بها محددة تحديدا مقنعا ، وأن تكون خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين بسبب تصريحات السلطان السابقة » (١)

وكانت ترمي انجلترا بهذه العبارة : « خالية من كل ما يجعلها تؤول تأويلين » أن يصدر السلطان قرارا ضد عرابي ورجاله ، وذلك أن الصدر الاعظم كان قد أخبر دوفرين قبيل ذلك « أنه ليس من الحكمة اصدار هذا

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٤٨

القرار قبل بلوغ الجنود العثمانية مصر » وقد رد عليه دوفرين بقوله : « اذا كان السلطان يرغب فى التعاون مع حكومة جلالة الملكة ، فان من الضرورى أن يحدد فى وضوح ما يعتزم أتباعه نحو عرابى وعصابة الثوار » (١)

وفى نفس هذه البرقية قالت انجلترا : « ترغب حكومة جلالة الملكة أن تخبر سعيد باشا والمؤتمر بانها لايمكنها سحب جنودها من مصر ولا التراخى فى أعداد العدة» .

وقالت كذلك : « ان قعود السلطان عن العمل ذلك القعود الذى طال أمره حيال وضع كهذا الذى تمثله الحال فى مصر قد القى على عاتق انجلترا عبئا تضطلع به الآن فى سبيل الصالح العام وفى سبيل صالحها كذلك ، وان حكومة جلالة الملكة ترغب فى أن يكون معلوما لدى المؤتمر أنه حالما ينتهى العمل الحربى المراد فانها ستستعين الدول فى وضع نظام قويم لحكم مصر فى المستقبل »

اذن فاما أن يعلن السلطان ذلك القرار الخطير الذى تريده انجلترا فتقبل تعاونه معها فى بلاده واما أن يحجم عن ذلك فتمضى انجلترا الى غايتها ، وهكذا تستدرج انجلترا السلطان خطوة فخطوة ، ولسوف يضطر الى قبول هذا الشرط ليظفر بتفضل انجلترا عليه بقبول معونته اياها فى بلد هو صاحبها الشرعى ، ولكن هل تجود انجلترا عليه بهذا الفضل حتى بعد قبوله ما تشترط ؟ ذلك ما نرى الجواب عليه فيما يلى :

فى اليوم الثانى من أغسطس تعهد سعيد باشا أن يعرض على المؤتمر صيغة قرار يعلن فيه السلطان أن عرابى من العصاة (٢) وهكذا تخطو تركيا على رغمها خطوة

---

(١) M. E. Cromer p. 241
(٢) M. E Cromer p. 241

اخرى فى صالح السياسة الانجليزية ، وذلك كى يسمح لها بالتدخل فى بلاد هى صاحبتها ! الا ما أشد وما أقسى ما يجلبه الضعف من مذلة ، وهذا فى الوقت نفسه هو عبد الحميد الذى لا يتنفس الناس فى بلاده الا باذنه !

وردت انجلترا على ذلك بأنها فضلا عن اعلان قرار العصيان الذي تعده ضمانا لاغراض السلطان ، ترى من الامور الضرورية أن يعقد مؤتمر حربى بين الدولتين للنظر فى التعاون كيف يكون بينهما

وأبلغ دوفرين حكومة الباب العالى فى الخامس من اغسطس : « انه ما لم يعد السلطان قرارا ذا صفة مرضية وما لم توافق الحكومة التركية على الدخول فى مؤتمر حربى مع حكومة جلالة الملكة ، لن يسمح للجنود العثمانية بالنزول فى مصر » (١)

ومن ذلك نرى أن انجلترا حين رأت السلطان يقبل اعلان العصيان المنشود ذلك القرار الذى تصل به الى ضالتها ، ابتدعت المؤتمر الحربى لتؤجل تدخل تركيا حتى تفرغ هى من دخول مصر فلا يكون ثمة داع الى جنود عثمانية ... ولايمكن أن يكون فى الصلات الدبلوماسية أكثر من هذا استهتارا من امة قوية بامة ضعيفة ، كما لايمكن أن يبلغ الضعف بامة أكثر مما بلغ بتركيا التى يشبه موقفها هذا الاستجداء الذليل ...

وأبلغ دليل على ذلك هذه البرقية التى أرسلها جرانفل الى دوفرين فى الرابع من اغسطس اى قبل الاتصال بالباب العالى ينبئه فيها انه أرسل تعليمات الى سيمور، قال : « ارسلت تعليمات الى الادميرال سيمور انه اذا قدمت اى سفينة تحمل جنودا تركية الى بورسعيد او الى الاسكندرية او الى اى جهة اخرى فعليه أن يبلغ

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩١

قائدها فى أكثر الصيغ مودة وفقا أنه ينتظر تعليمات من حكومته تشأن مؤتمر حربى بين تركيا وانجلترا الغرض منه معاونة الاولى لنا فى القضاء على العصاة ، ولكنه لم يتلق أنباء بأن هذا المؤتمر قد عقد وبناء على ذلك فان ارسال جنود تركية لابد ان يكون عملا سابقا لاوانه او بنى على سوء فهم ، وان الاوامر التى لديه هى أن يطلب الى القائد ان يواصل السير الى كريت أو اى جهة اخرى وأن يخاطب الحكومة التركية لارسال تعليمات أخرى نظرا لان الادميرال سيمور لايستطيع أن يدعوه الى النزول فى مصر ... وقد سمحنا لسيمور أن يمنع نزول الجنود اذا لم ينتصحوا بنصحه » (١)

تلقاء هذا اضطرت تركيا ان تعلن فى المؤتمر فى السابع من اغسطس أن الباب العالى يقبل الدعوة الى التدخل الحربى فى مصر على أساس المذكرة المشتركة بتاريخ ١٥ يوليو بما تحتوى عليه من بنود وشروط »

ومعنى ذلك أن تركيا تقيدت بالشروط التى وضعها المؤتمر فى السادس من يوليو والتى وافقت عليها الحكومات فى الخامس عشر منه والتى كانت تركيا تعارض فيها أشد المعارضة (٢) ، وهى اذ تتقيد بهذه الشروط تلتزم فى الوقت نفسه بأساس التعاون مع انجلترا ، أى أن التدخل الآن ليس لتركيا وحدها وانما هو بصفتها شريكة لانجلترا ولكن انجلترا سوف لا تمكنها حتى من هذا الوضع الذى هو دون ما رفضته من قبل بمراحل ...

وفى التاسع من اغسطس أرسل قرار عصيان عرابى الى دوفرين ليطلع عليه وفى العاشر منه قبلت صيغة القرار بعد ادخال بعض التعديل عليه

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٨٧

(٢) راجع ص ٢٦٠ من هذا الكتاب

واخذت انجلترا تتصل بتركيا بشأن المؤتمر الثنائى الذى يحدد طريقة العمل بينهما مع أنه يتعارض مع قرار المؤتمر العام الذى جاء فيه أنه اذا وافق السلطان كما ترجو الدول على هذا النداء الصادر من الدول الكبرى فان نفاذ المواد والشروط الآنفة الذكر يكون موضع اتفاق آخر بين الدول الست وبين تركيا »

وكانت انجلترا ترمى من وراء المؤتمر الثنائى ، الى الاخذ والرد بينها وبين تركيا حتى ينتهى الامر كما ذكرنا وذلك ما سوف تؤيده الحوادث

أما المؤتمر العام فقد بلغت مهزلته منتهى سخفها ، حين قرر فى اجتماع عقده فى اليوم الرابع عشر من اغسطس تاجيل انعقاد جلساته الى أجل غير مسمى ، وبذلك أسدل الستار على أسخف مهزلة فى تاريخ المؤتمرات السياسية ...

***

ولنعد الى مصر ، فنجد عرابى فى خطوط دفاعه تمده الامة بما تجود به ويؤيده أبناؤها جميعا كبراؤها وفلاحوها وتتطلع اليه القلوب فى موقفه المجيد وقد ازداد الناس أملا فى النصر بعد ما كان بين الجيش المصرى وبين الانجليز من تلاحم اثبت فيه المصريون أنهم جادون وانهم اذ يحاربون انجلترا ذات الامبراطورية الكبرى لا تنخلع أفئدتهم فزعا كما يظن أعداؤهم من فاجر الظنون

وكان عرابى قد أرسل الى السلطان برقية أورد نبأها دوفرين فيما أرسله الى جرانفل فى السادس والعشرين من يوليو اذ قال : «علمت أن عرابى باشا أبرق مباشرة الى السلطان يعبر عن ولائه للخلافة ، ويقول انه وقد حمل حملا على الحرب يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من

خير ، وانه لايصدق ما يؤكده أعداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقا عثمانية فى طريقه فان ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التى تجعله يعامل اخــوانه فى الدين معاملة الاعداء (١)

وفى اليوم الخامس من اغسطس ابرق جرانفل الى دوفرين يقول : « نشرت جريدة الطائف فى تأييد عرابى باشا تقول : ان الباب العالى أرسل برقية يهنىء بهـــا الجنود المصرية على ما أبدوه من شجاعة أثنـــاء ضرب الاسكندرية ، كما ورد الى تركيا فى برقـية كان قــد أرسلها درويش باشا » (٢)

أما توفيق فان يد السلطان مكفوفة عنه منــذ قبوله المذكرة المشتركة الثانية فى الخامس والعشرين من مايو ، وقــد بلغت به الجرأة أن أفضى الى كلفــن فى الحادى والثلاثين من يوليو : « أنه شديد الخوف من دســائس الترك وانه يثق من أن الترك سوف يراقبون مراقبــة دقيقة »(٣)

ولقد كان السلطان يريد عزله وتعيين حليم مكانه ، وتقدم بهذا الاقتراح الى انجلترا عقب ضرب الاسكندرية مباشرة ممتدحا حليم قائلا : « انه يكون حاكما ممتازا » وأن تعيينه « يحقن الدماء ويرضي كل انسان » ، ولقد رفضت الحكومة الانجليزية هذا الاقتراح رفضا باتا عاجلا وابلغت السلطان أنه « يضيع الوقت فحسب بعرضه مثل هذه الاقتراحات » (٤)

فى التاسع عشر من أغسطس أذاع الجنرال ولســلى

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٢٢ (٢) رقم ١٧ ٢٩٠
(٣) M. E. Cromer p. 241
(٤) المرجع السالف ص ٢٤٠

البلاغ الآتى : « بأمر الحضرة الخديوية . اعلان للمصريين: يعلن الجنرال قائد الجيوش الانجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخديويه ، وعساكرنا يحاربون فقط حاملي السلاح ضدسموه ، فعموم الاهالى الذين فى سلام وسكينة تصير معاملاتهم بكل ود وانسانيه ولا يحصل لهم أدنى ضرر ، بل يحترم دينهم ومساجدهم وعائلاتهم ، والاشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها وعليه ندعو الاهالى لتقديم ذلك ، وان الجنرال قائد الجيوش يسر جدا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم ممن يرغبون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية » (١)

وفى نفس اليوم أعاد الانجليز وقدجاءهم المدد هجومهم على خطوط كفر الدوار ، وزحفوا هذه المرة بقوات كبيرة نقلتها القطارات المسلحة من جهة القبارى وأعانتها قوات أخرى جاءت من جهة الرمل ، والتحم الجيشان ودارت معركة شديدة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس ، وكانت قيادة المصريين لطلبه عصمت وكان معه رضا باشا ومصطفى بك عبد الرحيم وعيد بك محمد وأحمد عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت ، والقائمقام سليمان سامى داود وحكمدار المدفعية بدوى بك . وارتد الانجليز الى الاسكندرية بعد أن خسروا خسائر جمة

وأعاد الانجليز الكرة عقب ذلك أياما ثلاثة متوالية ، كانت تنشب فيها المعارك حامية بينهم وبين المصريين حتى

---

(١) الوقائع المصرية ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . ومصر رقم ١٨ سنة ١٨٨٢ ص ٣ ، ومذكرات عرابى المخطوطة ص ١٢٥ .

الغروب ، والمصريون يردونهم كل يوم الى الاسكندرية بعد دفاع قوى مجيد

وهكذا كانت وقائع كفر الدوار أو الميدان الغربي سجلا مجيدا لحرب الثوره ، وحسب هؤلاء الفلاحين فخرا أن يخوضوا غمار المعارك لاول مرة فى تاريخهم الطويل مدافعين عن مبدأ من أسمى المبادىء الانسانية ، الا وهو مبدأ الحرية الزهراء ، وحسب قائدهم أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية فى قومه ثم وقف يذود عنها فى ميدان من ميادين القتال ، وانه لامر وايم الحق جليل

ولكن توفيق رد على هذه الجهود الوطنية الرائعة بهذا البلاغ الذى جعل عنوانه : « الى جميع أهالى وسكان القطر المصرى » والذى قال فيه : « ليس خافيا ما اقدم عليه احمد عرابى وشيعته الضالة من الافعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التى اخلت بنظام القطر واضعفت الثقة به ، بل اورثته الخسائر والاضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى اليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الاحوال وخيفت العواقب فبادرت الدول الى عقد المؤتمر الدولى بالاستانة للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها ، وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصا على عمارية القطر واحترازا مما عسى أن يلم به من الدمار

ولما كانت الدولة البريطانية الانجليزية لها فيه المنافع الكبرى ولاسيما بالنظر الى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة ، فقد اخذت على عهدتها وتحت امرتها التداخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين

ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقــوق السلطنــة ولا الامتيازات المصرية ، ولتحققنا أن نيتها سليمة فى الظاهر والباطن ليس الا الاصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك باهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم فى الامة الانجليزية على حســن مقاصــدها المذكورة ، ولايزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى الى زيادة الخراب حتى اعترفتهم السلطنة السنيةعصاة مخالفين للأحــكام الشرعية فاســتدراكا للأمر ومراعاة للمصلحة العامة قد رخصنا لحضرة القائد العام للجيش الانجليزى بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الحيل القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤســائهم لمحاكمتهم بما يستحقون من أشد العقاب ...

وبما أن العســاكر الانجليزية يعدون فى هــذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البــلاد منهم « ليعود » (١) الامن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ومن كانتهذه صفتهم فانهمجديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه منالوجوه ، فينبغى أن لايرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوءا أو مكروها وألا يعاملوا بما يستوجب المنافرة ، بل على كل مصرى يحب وطنــه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نيــاتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون اليه من المؤونة بأثمانها الســائرة التى هم مستعدون لادائها فورا فمن فعل ذلك فقد وفى بما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله، ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى

---

(١) ليست هذه الكلمة بالاصل فوضعناها ليستقيم المعنى ولعلها سقطت سهوا

# التل الكبير

كانت التل الكبير مركز الميدان الشرقى فى جهاد الثورة كما كانت كفر الدوار مركز الميدان الغربى ، ولقد دارت فى هذا الميدان الشرقى معارك فى مجال أوسع وفى أعداد اكبر مما كان فى كفر الدوار ، وكانت فى هذه المعارك الشرقية صفحات مشرقة يطرب لها قلب كل مصرى وتتهلل أسارير وجهه وصفحات مظلمة يندى لها جبين كل مصرى وتتلون صفحة محياه ... كانت فيها البطولة الباهرة الى جانب الخيانة السافرة الغادرة ، وكان فيها الاخلاص المتين للوطن المستصرخ أحاط به العدو من كل ناحية الى جانب الاثرة الحقيرة على حساب هذا البلد المسكين نكب بفريق من الخائنين كانوا أشد عليه من أعدائه ، والحق أنه قلما نجد فى تاريخ الحروب معركة جمعت بين النقيضين كهذه المعركة التى لم ير فيها العدو طريقا توصله الى غرضه الا سلكها مهما كان فيها من عدوان على الفضيلة والحق ، ولم يتورع فيها الخونة المستضعفون عن اقتراف كل ما ينزل بالانسان عن مرتبة الانسانية ...

فى هذه المعركة استشهدت الحركة القومية ، ووضعت الاغلال فى عنق الحرية وفيها اختتم أسوأ خاتمة جهاد زعيم أحاط به من الخيانة ما لم يحط قط بزعيم من

قبله ولا من بعده ، أجل ... ولكن ترك فيها الاحرار من دمائهم ومن أشلائهم ما قدموه مهرا غاليا للحرية الزهراء ، وما وضع به التاريخ حركتهم ـ وان غلبوا ـ في صف الحركات التي طبعها بطابع الخلود والمجد والتضحية والفداء ...

***

كان اكبر أخطـاء عرابى وأركان حربه فيما أعتقـد اهمالهم هذا المنفذ الشرقى الى مصر اهمالا قل أن نجد له نظيرا ، وصرف هممهم كله الى كفر الدوار ، ولعـل مرد ذلك فيما أفهم من حوادث هذه الحرب الى خطأ آخر لا يقل خطره عن هذا الخطأ الاول الا وهو اطمئنان عرابى وأصحابه الى حيدة قناة السويس وحرصهم على ارضـاء الدول بالمحافظة عليها ... ولنأت بالحديث على سرده حتى يتبين لنا فى هذه القضية وجه الحق ...

ما كاد الانجليز يفرغون من ضرب الاسـكندرية حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من خطر محدق بقناة السويس وتأهبوا ليلعبوا نفس الدور الذى لعبـوه فى ضرب الاسكندرية ...

وكانوا يريدون من اثارة المخاوف كما أسلفنا أن يزعموا أمام دول المؤتمر أن الظرف القاهر الذى يستلزم التدخل الحربى فى شئون مصر لايزال قائما على الرغم من رحيل الاوربيين ...

وهم من جهة أخرى يتخذون من اذاعة هذه المخـاوف المزعومة ذريعة لخطوات يخطونها فى الناحية الشرقيـة تتصل بخطتهم الحربية العامة ، دون أن يظهروا تلك الخطة ، اذ أنهم كانوا لايزالون يموهون على الدول أنهم لا يبتغون تدخلا بمفردهم وأنهم ينتظرون رد تركيا على قرار المؤتمر الذى زعموا أنهم يحترمونه كل الاحترام ..

وهكذا توصل الانجليز الى السير فى خطتهم الحربية المرسومة عقب ضرب الاسكندرية فى غير ابطاء ، اذ كانت سياسة الامر الواقع هى معولهم الذى حرصوا عليه ليواجهوا بها الدول والوطنيين على حد سواء ...

والواقع ان انجلترا بدأت تظهر ما تزعمه من مخاوف عن القناة منذ أواخر شهر يونيو كما يتبين فيما أرسله جرانفل الى سفير انجلترا فى باريس فى الرابع والعشرين من يونيو ليخبر فرسنيه بأن «حكومة جلالة الملكة تلقت أنباء مزعجة لديها من الاسباب ما يحملها على تصديقها مؤداها أن خططا وضعت ضد القناة نفسها » (١)

وزادت انجلترا فى اثارة المخاوف عقب ضرب الاسكندرية مباشرة ، فقد أرسل جرانفل فى الثانى عشر من يوليو الى سفراء انجلترا فى كل من باريس وبرلين وروما وفينا وبطرسبرج والقسطنطينية ليخبر كل منهم الدولة المقيم فيها بما يخشى من خطر على القناة ، ويسألها ماذا تراه من « علاج لحالة قد تفضى الى كارثة بالتجارة الدولية » (٢)

ودارت بعد ذلك الاتصالات بين فرنسا وانجلترا للنظر فى اتحاد الدولتين على ما يعمل لحماية القناة ، حتى استقالت وزارة فرسنيه على نحو ما ذكرنا من قبل ، بعد أن أظهرت من التردد حيال هذه المسألة مثل ما أظهرت حيال ضرب الاسكندرية

وكذلك اتصلت انجلترا بايطاليا ، وطلبت معونتها فى هذا الامر حتى نفضت ايطاليا يدها من المسألة المصرية كلها ...

ومهدت انجلترا بهذه التعمية المقصودة لانفرادها بالعمل هنا كذلك على نحو ما فعلت فى ضرب الاسكندرية

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٩
(٢) مصر رقم ١٧ ص ١٣٣

وفى الثانى والعشرين من يوليو عادت انجلترا الى نغمتها السمجة فى الشكوى من تحصينات تقام على الساحل غربى بورسعيد ، فى طابية الجميل على مدخل بحيرة المنزلة ، ومن ثم أصدرت الحكومة الانجليزية أمرها الى الادميرال العظيم بوشامب سيمور فاتح الاسكندرية باحتلال بور سعيد والاسماعيلية .

وفى السادس والعشرين من يوليو اخترق الانجليز قناة السويس غير مبالين بشيء ولا حاسبين لقانون حسابا ، أو ليسوا يدافعون عن القناة مما يحدق بها من خطر لينقذوا التجارة الدولية من كارثة محققة ؟

اقتحمت القناة فى هذا اليوم من الشمال السفينة الحربية أوريون بقيادة فتزورى، وفىاليوم التالى وقفت فى بحيرة التمساح على ٨٠٠ متر من الاسماعيلية .

وفى التاسع والعشرين منه ، وصل الى السويس على مقربة من مدخل القناة من الجنوب الادميرال هوت يقود أربع سفن حربية ووصل الى بورسعيد على مقربة من مدخل القناة من الشمال الادميرال هوسكن ، وكان فتزورى كما رأينا فى بحيرة التمساح على مرأى من الاسماعيلية ...

وفى اليوم الثانى من أغسطس انزل الانجليز عساكرهم فى السويس واحتلوا ثكناتها التى اخلاها الجيش المصرى بغير مقاومة ...

ولاريب ان اخلاء السويس على هذه الصورة كان من أكبر العيوب فى هذا الميدان ، على أنه جزء من العيب الشامل الا وهو اهمال تحصين المدخل الشرقى الى مصر ، كله ...

وأرسل جرانفل الى دوفرين فى السابع من الشهر يقول : « فى حالة ما اذا سئلت عن شرح لاحتلال السويس

يمكنك القول ان حكومة جلالة الملكة لم ترسل تعليمات بهذا الشأن ، ولكن أدميرال سير و . هوت . وكانت لديه السلطة أن ينزل جنودا حيثما وجد الضرورة تدعو الى ذلك ، ولقد فعل ذلك بناء على ما تعرضت له المدينة من خطر ووافقته حكومة جلالتها على ما فعل ؛ وقد كان يعمل لصالح الخديو الذى أعطى قائد القوات البحرية البريطانية السلطة ليتخذ من الخطوات ما يراه ضروريا لحماية القناة باسم سموه » (١)

ولينظر القارىء مبلغ ما فى هذه البرقية مما يشبه حال اللص اذ تعوزه الحجة ومبلغ ما فيها من استغلال اسم الخديو واتخاذ الانجليز انضمامه اليهم وسيلة لتحقيق خطتهم فى التهام مصر ...

***

ومما يعجب له المرء أن الانجليز كانوا بعد هذا الذى بلغوه من سيطرة على القناة يزعمون أنهم لم يعتدوا عليها بشىء وانها لفى قبضتهم الان فى واقع الامر وان لم يمنعوا دخول السفن فيها بعد كما سيفعلون ، تجد هذا الزعم فى قول جرانفل فى آخر هذه البرقية « وأحب أن أشير الى أن مدينة السويس تعد خارجة عن القناة» ...

يفسر موقف عرابى من قناة السويس اهماله وأركان حربه تحصين الميدان الشرقى ، ونقصد بموقف عرابى من القناة مسألة حيادها ، ولقد رأى كثيرون ممن كتبوا عن عرابى أنه ارتكب خطأ من أكبر أخطائه باحجامه عن ردم القناة حتى ضاعت الفرصة واحتلها الانجليز ، ونحن نوافقهم كل الموافقة على رأيهم هذا فى غير تردد فما كان غرضنا من كتابة هذه السيرة الا وجه الحق مجردا من كل محاباة ، ولكنا نخالفهم كل المخالفة فى أمور أحاطوا

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٨

بها هذا الخطأ فأسرفوا فيها اسرافا شديدا وخاصة كتاب الانجليز ممن دافعوا عن الاحتلال

نخالفهم فى ان دى لسبس كان يخدع عرابى وأن عرابى جازت عليه الخدعة ونخالفهم فى أن عرابى لم يفطن بسبب جهله الى أهمية ردم القناة كوسيلة من وسائل الدفاع ، ونخالفهم فى أن عدم ردم القناة كان السبب الاساسى للهزيمة ، ونخالفهم فى أن عرابى أحجم بسبب جبنه عن ردم القناة ، ونخالفهم فى أن العمل كان من السهولة كما يصفون ... أجل ، نخالفهم فى ذلك كله مستندين الى ما نقدم من أدلة نثبت بها ما نقول ..

ومن الصعب على المرء أن يمحو من الاذهان فكرة استقرت فيها بفعل السنين منذ أن اذاعها خصوم عرابى مهولين فى الامر قبل يوم الناس هذا بنيف وستين عاما ، ولم نجد ردا عليها طوال هذه المدة كأنها من الحقائق المقررة التى لا تحتاج الى نظر ، وانك لتتحدث الى الناس فى سيرة عرابى فتسمع فيما تسمع قولهم لقد كان عرابى ساذجا خدعه دى لسبس وغرر به فصدقه ، أو على حد تعبيرهم العامى : «ضحك عليه» فلم يردم القناة ..

ولكن الخطب يسير اذا نظر المرء فى هذا الامر نظرة مجردة من المزاعم السالفة جاعلا غايته الوصول الى الحق فى غير محاباة لعرابى ولا تجن عليه ...

فى التاسع عشر من يوليو ذكر كارتريت فيما ابرق به الى جرانفل قوله : « أتشرف بابلاغكم بوصول المسيو دى لسبس الى الاسكندرية ، ويظهر أنه فى مقابلته للخديو لم يتحدث كثيرا عن الموقف السياسى ، ولكن مجيئه الى مصر الان يعد من سوء الحظ » (١)

وفى الثلاثين من الشهر أبرق جرانفل الى سفير انجلترا

(١) مصر رقم ١٧ ص ١٦٥

بباريس يقول : « ايماء الى الطريق الذى يسلكه المسيو دى لسبس فيما يتصل بحماية قناة السويس ، ارغب أن تبسط للمسيو دى فرسنيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من المسلم أن المسيو دى لسبس لم يعط سلطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية . وعليك أن تطالب برد سريع بحقيقة الامر ويسر حكومة جلالة الملكة أن تتلقى الضمان قبل ان ينفض يديه كلية من مقاليد الحكم » (١)

وفى الرابع من شهر اغسطس ابرق جرانفل البرقية الخطيرة الاتية الى نفس السفير يقول : « ارغب أن تبسط للحكومة الفرنسية ان حكومة جلالة الملكة وصل الى علمها أن المسيو دى لسبس يعارض معارضة قوية أعمال حكومة جلالة الملكه فى مصر ، وذلك بتهديده بتعطيل القناة ، اذا أنزلت جنود بريطانية فى أى مكان فى القناة أو على مقربة منها ، وحكومة جلالة الملكة لا ترغب الآن ان تتخذ شيئا لقاء ماحدث منه نظرا لانه من رجال فرنسا ذوى المكانة ولانه رئيس مجلس ادارة الشركة ، الا اذا ألجأتها الضرورة الملحة الى ذلك ، وان الحكومة لتأمل أن تتجنب هذه الضرورة وذلك بما تبسطه الحكومة الفرنسية للمسيو دى لسبس مما يصرفه عن مسلكه ، وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من أن لها أن تتوقع هذا من الحكومة الفرنسية نظرا لما بين الدولتين من علاقات الصداقة ولاتفاق مصالحهما فى القناة وفى شئون مصر بوجه عام » (٢) .

وفى الخامس من اغسطس عقد مجلس ادارة الشركة اجتماعا غير عادى وكان مما أعلنه فيه تمسكه بحياد القناة وانضمامه تبعا لذلك الى رئيسه فيما يدافع به

---

(١) مصر رقم ١٧ ص ٢٩٤
(٢) ص ١٥٤

عن حقوق الشركة المهددة ووجه الثنـاء الى هذا الرئيس وقد خالف هذا القرار العضوالانجليزى مستر ستاندن(١)

من هذا يتبين أن دى لسبس كان جادا فى المحافظة على حيدة القناة ، وانه كان يخشى من سياسة الانجليز أن تؤدى الى سدها أو تحطيمها بايدى الوطنيين ،ولذلك كان شغله الشاغل أن يحمل بمعارضة الانجليز حكومته على التدخل لحماية القناة ...

واذا رجعنا الى سياسة فرسنيه وجدنا ان دى لسبس كان على حق فى انتظار تأييد حكومته ، ولذلك وقف من الانجليز موقف الجد والصرامة ، فان فرسنيه وان لم يوافق على التدخل فى مصر الا انه كان لايعارض فى مشاركة انجلترا فى حماية قناة السويس كما بينا اذ انه فصل المسألتين احداهما عن الاخرى وقد خطا فعلا خطوات فى هذا السبيل واعتمد له المجلس التشريعى المال اللازم ، وأرسلت التعليمات الى الادميرال الفرنسى ببور سعيد ليتفق مع هوسكن على ما ينبغى عمله (١)

لكن سقوط وزارة فرسنيه فى آخر يونيو ذهب بهذه السياسة اذ كان برنامج خلفه الابتعاد عن المسألة المصرية كلها ومن ثم ضعف دى لسبس ، وتنمرت الحكومة الانجليزية وأبلغت فرنسا التهديد الذى أشرنا اليه ٠

ولايمكن مع هذا الذى ذكرناه من الحقائق أن يكون دى لسبس مخادعا لعرابى ، فليس في الامر خديعة وانما غلب دى لسبس على أمره بسياسة الامر الواقع ...

والحق أن عرابى لم يحجم عن ردم القناة منخدعا بأقوال دى لسبس وانما كان هناك اعتبار على قدر عظيم جدا من الاهمية يشغل ذهن عرابى ، وذلك هو ما كان

(١) ص ٢٨٥

(٢) M.E. Cromer p. 235

يحيط به من ظروف ...

كانت انجلترا تصور عرابى وانصاره انهم عصاة مخربون ، وان لم يعملوا شيئا ما يبرز هذه التهمة النكراء ، فكيف يكون الحال لو أن عرابى اقدم على ردم القناة والمؤتمر منعقد بالآستانة ، ومجلس ادارة الشركة خائف يترقب ؟ ولقد راينا كيف خوفت انجلترا الدنيا مما زعمته من خطر محدق بالقناة قبل أن يحدث اى شيء ...

للقارىء أن يصور لنفسه مبلغ ما كان يصيب الحركة القومية فى مصر من سوء السمعة ، الامر الذى كان ينفر عرابى منه أشد النفور لانه كان شديد الحرص على أن يظهر للملأ أن حركته عادلة سليمة وأنه لايبدأ بالعدوان أحدا وان كان لا يحجم عن رد ما يوجه أليه من عدوان

وليت الامر كان يقتصر على سوء السمعة ، بل ان الدنيا كلها كانت تصبح عدوة لعرابى وحركته ، وحسبه ما كان يلاقيه من انجلترا التى لم تدع وسيلة لتشويه حركته الا اذاعتها ..

وليس لاحد أن يقول وماذا صنع المؤتمر بانجلترا وقد خرجت على قراره وضربت الاسكندرية ؛ لان هذا قياس مع فوارق بينة ، فانجلترا فعلت فعلتها الآثمة بحجة الدفاع عن مصالح الاوربيين فى مصر وارواحهم ، وانجلترا تستند الى قوتها واسطولها ونفوذها السياسى ، وانجلترا تزعم أنها تعمل عملا مشروعا لتأديب قوم تعدهم من العصاة ، واين هذا كله من عرابى الذى لم يجد احدا يعطف عليه وهو المظلوم فكيف اذا ظهر بمظهر الطاغية الذى يردم القناة ويعطل تجارة الدنيا ؟ !

ولسنا نريد بذلك أن نبرر عدم ردم القناة والا فما كان هناك مجال لان نناله باللوم ، وانما قصدنا أن نبين

سبب تردده واحجامه وأن ننفى أنه كان فى ذلك ساذجا جازت عليه خدعة دى لسبس التى زعمها المبطلون أو الجاهلون ...

وقد أحسن جون نينيه تلخيص هذه القضية فى كتابه « عرابى باشا » فى قوله : « فلما حل موعد المعركة لم تركن انجلترا الى قوانين القتال وقواعد الحرب ، ولم تأبه بحيدة القناة التى تضمنها الدول بل أسرجت خيول سان جورج (١) ،وأطلقتها فى ميدان السبق لتحرز نصرا قائما على الغدر والخيانة ومستندا الى الدسيسة والرشوة ... وقد وقع نزاع خطير فى فرنسا حول الدفاع عن قناة السويس وذلك لكى ينفذ دى لسبس ما وعد به عرابى ، فانه تعهد لزعيم الثورة المصرية وقائد الجيش المصرى بأن تقاوم قوة حربية الى جانبه اذا نزلت جنود انجلترا فى الاسماعيلية أو اعتدت على حياد القناة الدولية ... ولم يكن دى لسبس كاذبا ، ولكن السياسة عرضة للكذب فقد تقدم مسيو دى فرسنيه الى المجلس التشريعى بفتح اعتماد لاعداد الحملة الحربية للدفاع عن القناة فلم يجبه المجلس الى طلبه فاستقال فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢ » (٢)

وقال عن عرابى بعد أن أشار الى نصحه اياه بردم القناة فلم يجبه المجلس الى طلبه فاستقال فى أول أغسطس وذوو عقول مدبرة وعلى جانب عظيم من فنون الحرب والهندسة ، ولكن عرابى باشا لم يستمع لنصحهم ، فكان يخشى بالوهم ما يسميه الرأى العام الاوربى ، ولطالما أفهمته أن هذا الرأى العام حديث خرافة ، وأن

---

(١) عبارة مجازية معناها الجنيهات الانجليزية الذهبية .

(٢) الواقع أن المجلس وافق على الاعتماد وكانت الاستقالة لسبب اخر كما ذكرنا

اوربا طامعة فى الشرق كله » ...

ونحب أن نورد ما كتبه الشيخ محمد عبده فى هــذا الصدد وما ذكره بلنت فى تعقيبه على رسالة من رسائل عرابى الى دى لسبس ، قال الاستاذ الامام : « عرابى اعتمد على دى لسبس فى حماية القنال ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك هذه الناحية عوراء ، وعندما احس دى لسبس بأن الجيش المصرى قد يتحرك ناحية القنال كتب تلغرافا لعرابى يقول له : من المستحيل أن عساكر الانجليز تمر من القنال ... وبعد واقعة مهمة فى ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقبها بأن اثنتين وثلاثين سفينة توجهت الى القنال فورد تلغراف من دى لسبس يقول : لا تسرع فى شىء يمس القنال ، لا يمر عسكرى انجليزى الا ومعه فرنسى ، أنا مسئول عن كل ما يحدث . فأجيب بأن هــذا غير كاف وتقرر ارسال جيش ، ثم ارسل الجواب ببطء ، وقبــل أن يتحرك عســكرى الى ناحية القنــال ، وكان الجيش الانجليزى قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة فى ابلاغ دى لسبس ، ويظهر أنه كان فى الحاضرين خونة نقلوا الاخبار وأخطأوا فى التبليغ » (١)

وأوجه نظر القارىء الى قول الاستاذ الامام : « وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الامم لهذا ترك هذه الناحية عوراء » والى قوله : « فأجيب بأن هــذا غير كاف وتقرر ارسال جيش » ففى هاتين العبــارتين ما يلخص المسألة كلها ويقطع بأن الامر أمر تردد له سببه الوجيه لا أمر خدعة طال فيها كلام العائبين ...

أما بلنت فقد أورد فى كتابه أحــد ردود عرابى على دى لسبس وهذا نصه : « لما كنت احترم حيدة القنال

(١) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٥٧

احتراما كليا وخاصة لاعتبار أنها عمل من الاعمال العظيمة ولان اسم سعادتكم سوف يقترن بها فى التاريخ ، فانى أتشرف بابلاغكم أن الحكومة المصرية سوف لا تعتدى على هذه الحيدة الا عند الضرورة القصوى وفى حالة ما اذا ارتكب الانجليز بعض الاعمال العدوانية فى الاسماعيليه وبورسعيد أو فى أى جزء آخر من القنال »

ويعقب بلنت على ذلك بقوله : « هنا نجد المبدأ قد وضع وضعا طيبا فى وضوح ولكن موضع الضعف فيه يرى فى أنه يدع للعدو أن يفترف أول خطوة عدائية بدل أن يحول بينه وبين ذلك من قبل ويمنعه »

وأين الخديعة فى كلام عرابى مع هذا التحفظ الذى يبديه فى كتبه وفى كلامه ؟ الا ان العيب كله ينحصر فى التردد الذى أضاع الفرصة وهو ما استحق عليه عرابى اللوم بلا مراء ، لا فى الغفلة التى حاول زورا أن يلصقها به المغرضون ...

اما قصته مع دى لسبس فأمرها هين وان ألقى عليها المغرضون شبهات من الاهمية والخطر... يقول عرابى فى مذكراته : « فى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلغراف من المسيو دى لسبس مديرشركة القنال المذكور يستعلم عن رأينا فى القنال بالنسبة للحركات الحربيه فأجبته فى التاريخ المذكور بالتلغراف أيضا أننا نعتبر القنال حرا للمنافع العامة الدولية ولذلك فانا لا نتعرض له بضرر اذا أمكنه منع السفن الحربية الانجليزية من خرق حرمة الحياد واحترامها لقانون الشركة والا فنكون أحرارا فى مقابلتهم بالمثل ...

فورد تلغراف فى اليوم المذكور يفيد أنه ضامن ومتكفل بمنع الانجليز عن اختراق القنال ما دام فيه عرق ينبض ظننا أن فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية

القنال ولا تلدغ من جحر مرتين »

واستمرت الرسائل بين عرابى ودى لسبس ، ونكتفى منها بما أرسله عرابى فى ٢٧ يوليو و ٤ اغسطس و ٢٥ منه ، و٣ أخرى بغير تاريخ ، وكلها تبين لدى لسبس ما يقف عليه عرابى من حركات الانجليز العدوانية فى منطقة القنال ، وقد تساءل عرابى فى بعضها : أهذا ما يريده دى لسبس بحياد القنال ؟.. ومعنى ذلك أن عرابى كان على بينة من ضعف دى لسبس أمام الانجليز وأنه لم يخدع بأنه قادر على منعهم من دخول القنال ، وانه انما تردد لذلك الاعتبار الدولى الذى بيناه ...

وقد حصل بلنت على هذه المكاتبات من دى لسبس أثناء المحاكمة واثبتها فى آخر كتابه ، وقد أرسلها اليه دى لسبس مع كتاب منه جاء فيه : « انى أرسل اليك الترجمة الفرنسية لتلك الرسائل التى من شأنها أن تشرف متهما يحملك كرمك على الدفاع عنه » (١)

وأخيرا ، لما لم يجد عرابى بدا من العمل خرج من تردده وأصدر أمره بردم القناة ولكن بعد أن ضاعت الفرصة وهو ماعددناه من أكبر اخطائه بلا جدال ...

ولم يكن عرابى يجهل أهمية هذا العمل فى الدفاع عن مصر كما زعم خصومه ، فقد نصح به محمود باشا فهمى فى خطته التى ذكرناها ، ونصح به جون نينيه الى عرابى أكثر من مرة كما ذكر فى كتابه اذ قال : « فأحجم عرابى عن سد القناة فى حينه وتمسك برأيه على الرغم مما كانت تقضى به الخطط الحربية الفنية ، وعلى الرغم مما ذهب اليه زملاؤه وما ذهبت اليه أنا وكررته له عشر مرات ، تارة بشديد الكلام ، وتارة بالكتابة ... على الرغم من ذلك كله ظل عرابى على رايه فمهد للجنرال

(١) S.H. Blunt p. 571

ولسلى نصرا من أسهل ما عرف فى تاريخ الحروب » (١)
حيث قال فى موضع آخر : « لن يجد الانجليز صعوبة فى احتلال القناة فهم لا يبالون بالمعاهدات والقوانين ولا يعنيهم الا مصالحهم ، واذا بلغوا الاسماعيلية فمعنى ذلك أن الحملة بلغت النهاية » (٢)

ومما يزيدنا ثقة فى أن عرابى كان يدرك أهمية هـذا العمل أنه صرح به لمراسل احدى الصحف بالاسكندرية قبل ضربها قائلا : « سوف نحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلالنا ، ولكن اذا نشبت الحرب فاننا سنهدم القناة مؤقتا عند أول طلقة من مدفع ، وسأفعل ذلك آسفا لان القناة من طرق التجارة المحايدة » (٣)

وكذلك نجد دليلا على هذا فى ذلك الكتاب الذى أملاه عرابى على صابونجى ليرسله الى بلنت كى يحمله الى جلادستون والذى ذكرنا طرفا منه فى الفصل السابق ؛ فقد ذكر فيه عرابى أن الحرب تجعل مصر فى حل من الالتزام بالعهود والمعاهدات وأنها سوف تحطم جميـع القنوات وتعطل كل المواصلات » (١)

وأما قول القائلين ان عدم ردم القنـاة كان السبب الاساسى للهزيمة ، فينفيه ماحدث فى معركة القصاصين الثانية اذ كان المصريون على قاب قوسين من النصر ولولا الخيانة كما سنبينه فى حينه لتغير وجه الحرب كلها. . . ولكان اليوم لعرابى تماثيل فى كبرى العواصم ... وكل ما يمكن أن يقال هو أن دخول الانجليز من القنـاة قد سهل عليهم الى مدى عظيم النجاح فى خطتهم بوجه عام

وأما ان عرابى احجم عن ردم القنـاة لجبنه فرأى سخيف لان تردده لذلك الاعتبار السياسى الذى فصلناه

---

(١، ٢، ٣) جون نينيه ص ١٠٥

(٤) S.H. B. p. 371

فسر بالجبن وفرق بين أن يجبن الانسان عن تحمل تبعة فعل من الافعال وبين أن يقارن بين فعله وتركه فيرى حينا أن تركه أجدى عليه وعلى قضيته من فعله فيقف زمنا موقف الحيرة بين الرأيين ..

وأما أن ردم القناة كان من السهولة كما يصوره خصوم عرابى فى نعيهم عليه انه لم يفعله فى الحال ، فذلك ما ينفيه الواقع ، وذلك أن الانجليز ما كادوا يفرغون من ضرب الاسكندرية حتى اتجهوا الى حماية القناة ، وكان على عرابى أن ينشىء خطوط كفر الدوار ليصد الانجليز الذين دخلوا الاسكندرية فعلا ، فاذا ذكرنا أنهم فرغوا من ضرب الاسكندرية فى اليوم الثانى عشر من يوليو ، وانهم سيطروا على مدخلى القناة قبل نهاية الشهر ، واحتلوا السويس فى اليوم الثانى من الشهر التالى ، وأن جانبا من أسطولهم كان يستطيع الانتقال فورا الى بورسعيد ، اذا ذكرنا ذلك كله ادركنا مقـــدار ما كان يواجه عرابى ورجاله من صعوبة اذا هم أقدموا على عمل جبار كردم قناة السويس

وليس معنى ذلك انه كان يستحيل عليهم هذا العمل والا سقط عنهم اللوم وذلك ما لم نقله ، وانما كان الامر صعبا وقصاراهم أنهم كانوا يستطيعون أن يوزعوا جهودهم بين كفر الدوار وقناة السويس ، ولا يخفى ما يكون فى ذلك من خطر على الميدان الغربى

والواقع ان سرعة الانجليز ورسمهم خطة محكمة من زمن بعيد هو الذى أوقع المصريين فى الحيرة ، ولا يصح أن يقال ان عرابى ملوم على كل حال لانه كان عليه ان يبادر بالعمل من قبل ذلك ، ولقد رددنا على مثل هـذا الكلام عما وجه اليه من لوم بشأن حصون الاسكندرية

والقضيــة كلها تتلخص فى كلمة ، فطالما كان عرابى

وزيرا فى وزارة يملك الخديو اسقاطها فى اى وقت ، وطالما كان الخديو فى صف الانجليز ، فلن يستطيع عرابى أن يتأهب للحرب فضلا عن اقدامه على عمل كردم قناة السويس ، وما كان يستطيع عرابى أن يفعــل شيئا الا بعد سقوط الوزارة وبعد عجز توفيق عن اقامة وزارة غيرها واضطراره الى ابقاء عرابي فى وزارة الجهادية . والمدة بين عودة عرابى الى الوزارة وبين ضرب الاسكندرية هى شهر ونصف انشغل فيها عرابى بالامن وقضـــيته ومأساة الاسكندرية وما جرته فى أعقــابها ، ودرويش وبعثته ودسائســه مما لم يدع له مجالا للاستعداد ولو سرا ، هذا الى أن عملا كردم القناة لا يكون الا فى موقف له مبرراته ، اعنى لا يكــون الا عند نشوب الحرب أو توقع نشوبها بين حين وحين وهو ما لم يخطر ببال أحد فى مصر على هذه الصورة من السرعة وخاصة بعد انعقاد مؤتمر الآستانة ...

***

ولم يقتصر نشاط الانجليز فى المنطقة الشرقيــة من مصر على ما فعلوه بشأن قناة السويس ، وانمــا لجأوا كذلك الى اسلوب فيه أقوى الادلة على مبلغ ما للشرف البريطانى عندهم من رعاية واحترام ، ويتضح هذا فيما فعله الاستاذ بالمر وشريكه الكابتن جل... وفيما استعان به الانجليز بعد ذلك من رشوة خسيسة ودس دنىء ..

كانت انجلترا تدرس خطة احتلال مصر منذ أوائل سنة ١٨٨٢ ، اى قبل نفاذها فعلا بنحو ستة أشهر ، وقد أشرنا الى حديث جرى بين مستر بلنت والجنرال ولسلى فى ١٥ مارس تحدث فيه ولسلى عن أسهل الطرق الى القاهرة وأبدى اهتماما بالصحراء الشرقية

وفى منتصف شهر يونيو ، اى عقب مذبحة الاسكندرية قررت وزارة الحرب بالاتفاق مع الادميرالية تمهيد السبيل للحملة وذلك بالاعتماد على رشوة واسعة النطاق وخاصة بين البدو فى المناطق الشرقية (١)

واستدعت ادارة الادميرالية البريطانية ادوارد بالمر استاذ اللغات الشرقية فى كمبردج ، وقد رأت فى هذا الرجل خير من يصلح لاداء العمل المراد لمعرفته اللغة العربية ولخبرته بالمنطقة المقصودة اذ تصادف انه كان من قبل عضوا فى جمعية كشف فلسطين

وتحدث اليه اللورد نورثبروك وعرض عليه أن ينهض بهذا العمل الوطنى المشرف ـ كما قال ـ الا وهو ضمان انضمام البدو شرقى القناة الى الجيش الانجليزى وذلك بالافادة من قابليتهم للرشوة ، وقدم له نورثبروك ٥٠٠ جنيه غير نفقات الرحلة ووعده بمكافأة عظيمة اذا اتفق له النجاح ...

وكان المستر بالمر معسرا فقبل الاضطلاع بهذا العمل الوطنى المشرف ، وتهيأ للسفر وهو يرجو لعمله هذا النجاح . ويقول بلنت : انه مر به قبل سفره وتظاهر أنه عين مراسلا لجريدة « استاندارد » وطلب منه أن يزكيه لاصحابه من رجال الحزب الوطنى فى مصر ، وكان ذلك ليخفى ـ كما يذكر بلنت ـ العمل الذى كلف بأدائه

أما التعليمات التى ألقيت اليه فهى أن يذهب الى الاسكندرية حيث يتشاور في خطته مع سيمور ، وبعد ذلك عليه أن يذهب فى غير ابطاء الى يافا حيث يتنكر فى زى عربى ويزور الصحراء جنوبى غزة وغربيها ، ويتصل بقبيلتى الطياحة والطرابين ...

وقد اطلع بلنت على يوميات بالمر وأورد منها بعض

---

(١) S. H. Blunt p. 400

فقرات كقول الاستاذ : « أعطـانى الادميرال مسدسا وبندقية وكثيرا من الطلقات » وقوله عن الادميرال انه قال : « يهنـأ الوطن بوجود رجل قدير مثلى يضطلع بمثل هذا العمل الصعب »

وانطلق بالمر الى يافا على ظهر قارب بخارى فوقه العلم البريطانى وكان معه فى القارب بحاران ، وهنـاك اتصل بالقنصل الانجليزى ، وأرسل القنصل ابنه الى غزة ليمهد السـبيل للرحـلة ، واشترى بالمر الملابس العربية المطلوبة وبدأ بعدذلك رحلته الصحراوية متظاهرا أنه من تجار الابل ..

واستمر بالمر فى رحلته وقد ذكر فى يومياته أنه اتصل ببعض مشايخ الطرابين وانه تعاقد مع الطياحة ، وانه قطع شوطا كبيرا صوب النجاح، وانالبدو كانوا يحبونه ويقبلون عليه ويدعونه عبد الله أفندى ، وكان يسمعهم الشعر العربى فيطربون له وقد أكل معهم الخبز واللحم كعهد بينهم وبينه أن يحمى كل منهما الآخر حتىالموت

وفى أول أغسـطس بلغ بالمر السويس واشـترك مع الجند الذين احتلوها ثم خرج الى الصحراء ثانية ليعمل على قطع أسـلاك التلغراف واحراق الاعمـدة لتنقطع المواصلات بين عرابى وتركيا ...

وبعد ذلك بيومين التقى بالكابتن جل وقد أعطاه هذا عشرين الف جنيه لتوزيعها على البدو ولقى بالمر حتفه فى السابع من أغسطس هو وجل وانجليزى آخر ، اذ صادفهم فى صحراء سيناء عدد من البـدو من قبيلتى الحوايات والحويطات ، فعرفوا أن معهم مالا كان يحمله بالمر الى الطياحة ، فأوثقهم البدو وأخذوا المال وقتلوهم رميا بالرصاص فى وادى صدر

ولم يقل نشـاط جل غربى القناة من نشـاط بالمر

شرقيها فقد اتصل باثنين من أكبر مشايخ البدو ، هما سعود الطحاوى فى جهة الصالحية ومحمد البقلى فى وادى الطميلات كما جاء فى يومياته ، ويذكر جل فى هذه اليوميات أنه تلقى هذين الاسمين من الخديو نفسه وقد كتبهما الخديو بخط يده ، وكان آخر ماكتبه جل فى اليوم السادس من اغسطس ، اى قبل مصرعه بيوم ، قال : « يسرنى أنى تخلصت من العشرين ألف جنيه ، اذ أننى أعطيت هذا المبلغ لبالمر ليوزعه على البدو » ...

***

ونرى قبل أن نتكلم عن وقائع الحرب فى الميدان الشرقى أن نذكر ما كان من سعى الخديو واتصالاته فى هذه الجهة ، وذلك لما كان لفعله هذا من عظيم الاثر فى نتيجة الحرب ...

كان من أكبر أعوان الخديو فى هذا الميدان أولا الكابتن جل ، فقد أرسله توفيق الى الشيخين البدويين الطحاوى والبقلى وكان الانجليز يعينون رسل الخديو من المصريين كذلك ويمدونهم بما يطلبون من سلاح ومال ...

ويلى الكابتن جل فى هذا المضمار محمد سلطان باشا الذى كان رئيس الحزب الوطنى قبل رئاسة عرابى اياه والذى لقب يوما ما أبا المصريين ، والذى نراه اليوم يسعى سعيه جنديا متحمسا للخديو وللانجليز ...

قال الشيخ محمد عبده فى مذكراته : «مركز الدسائس والمخابرات كان فى الاسكندرية فى مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الانجليز من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر، وكان روح الجميع سلطان باشا ، عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانجليز لا يفيد ، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح ، فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان

واختار لبث الافكار الحاوى الطحاوى أحد ثقاة عرابى»

وقال أيضا : « فى ٢٧ أغسطس جاء بلاغ بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولادعلى من عائلة مشهورة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما من قرب معسكر كفر الدوار ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ، ورسائل منه الى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم الى ترك عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى الذى جاء لاخضاع العصاة ... استجوابا فاعترفا بكل شيء ؛ وذكرا أن جنديا بحريا انجليزيا يسمى جيل حمل ٣٠ ألف جنيه من سيمور ليلحق بالاستاذ بالمر يستميل معه عرب غزة وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا الى رؤساء العرب فى الشرقية ، وأن مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الانجليزى الى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور الى القائد ذهب الى السويس لمقابلة بالمر وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والآستانة » .

وقال بلنت : « ولم يكن ذلك الشخص غير زعيم حركة الفلاحين القديم ذلك الذى لم يساوره الخجل وقد القى بنفسه فى أحضان الانجليز كلية ، أن يبذر بذور الشقاق بين أولئك الذين لايزالون يتمسكون بوطنيتهم ، ولقد يبدو من الصعب على الجيل الحديث فى مصر أن يفهم كيف يهوى رجل اتصف بصفة عالية هى صفة الوطنية الى ذلك السبيل الوضيع ... وقد أرسل كتبا الى عدد من أصدقائه السابقين فى القاهرة يشرح لهم فيها أن التحالف بين الخديو والانجليز انما هو ضرورة مؤقتة ، ويقول ان الجنود الانجليز لن تبقى بمصر بعد اعادة سلطة الخديو ، وان عرابى قد فقد ثقة السلطان ، وان المقاومة

المستمرة فى القاهرة أمر ينقم عليه المسلمون ... وقد احدثت اثرها هذه الكتب التى احكم توزيعها ، ولعب المال مرة ثانية دوره القوى ... »

وقال فى موضع آخر : « لقد وجدت هذا مكتوبا فى يومياتى عن سنة ١٨٨٧ (١) ١٣ فبراير ؛ زارنى عبد السلام المويلحى من مؤسسى الدستور وعضو مجلس سنة ١٨٨٢ ، وأخبرنى انه كان صديقا حميما لسلطان باشا ومن أعوانه وأنه كان أحد الذين انضموا اليه فى خصومته لعرابى ، ولكن الاسف يتملكهم جميعا الآن ان لم يتحدوا ، وهو لا يقر مسلك سلطان أثناء الحرب . فقد خدع مالت سلطان الذى غرر به ليفعل ما فعل واعدا أياه وعدا واضحا أن حقوق البرلمان المصرى سوف تحترم ، وقد وعد مالت هذا الوعد شفويا وطلب سلطان أن يكتب له هذا ولكن الخديو صرفه عن الالحاح فى هذا الطلب قائلا: ان كلمة الوكيل الانجليزى لها قيمة الصك . ولما رأى الرجل الشيخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حزن حزنا شديدا ومات وهو يأمل أن يسامحه عرابى وألا ينتقل اسمه فى الاعقاب موصوما بالخيانة لوطنه » .

وقال نينيه فى كتابه : « وكان بجانب الامناء فى جيشنا بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الانجليز ويمدونهم بالمال ويحرضهم توفيق باشا ويعدهم ؛ وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على الفلاحين المصريين ، ومن هؤلاء على يوسف الشهير بخنفس ، وقد زعم البعض أنه من صميم المصريين والحق أنه من حثالة الاتراك ، وكان مع الاسف الشديد قائد قلب الجيش المصرى وهو الذى اشترى سلطان باشا ذمته للانجليز ، فانسحب بفرقته فأفسح الطريق لجيش ولسلى » .

---

(١) يلاحظ أن بلنت نشر كتابه سنة ١٩٠٧ .

وكان سلطان باشا أثناء القتال يرافق الجيش الانجليزى نائبا عن الخديو ، فقد أصدر الخديو أمرا بتعيينه نائبا عنه لمرافقة الجنرال ولسلى فى زحفه على العاصمة (١)

من هذا الذى ذكرناه عن سلطان ، يتبين لنا مبلغ ما بذل من نشاط فى صفوف المدنيين والعسكريين ، ومبلغ ما أدى من خدمة لجيش الاحتلال على حساب وطنه ؟ ولقد كوفىء بعد الحرب بلقب السير من الانجليز وبعشرة آلاف جنيه قبضها من الخديو ... الا بئس ما باع به نفسه ووطنه ...

أما من اشتراهم سلطان بالمال ، فمن أشهرهم سعود الطحاوى من البدو، وعلى يوسف خنفس، وعبدالرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، وراغب ناشد ، وهو قائمقام فى المقدمة ، وسيأتى مع عظيم الاسف والخجل الكلام على خيانة كل من هؤلاء فى موضعها .

وممن عمل غير سلطان من المصريين مثل عمله عثمان بك رفعت ياور الخديو الذى وصفه بلنت بالمهارة والذكاء وقال انه أحدث تأثيرا كبيرا فى نفوس عدد كبير من الضباط وخاصة من كانوا من أصل شركسى ، اذ راح يريهم ألا فائدة من المقاومة وان الخير للشخص منهم أن يتجنب سوء العاقبة قبل فوات الوقت وسبيل ذلك هو الولاء للخديو ، وكان عثمان بك يعرف فريقا من الضباط فاستطاع أن يتصل بهم سرا ويغريهم ...

ومما يبعث على الاسف أن بعض الضباط المصريين من الموالين للخديو غير من اشتراهم سلطان من الذين أخفوا خيانتهم فى أنفسهم حتى يحين الوقت، قد رافقوا الجيش الانجليزى وارشدوه وأعانوه بالاستطلاع والتجسس بأمر الخديو وهم الاميرالاى زهراب بك ،

(١) مصر رقم ١٨ ص ٣٩

والقائمقام يوسف ضيا بك، واليوزباشي توفيق افندي[1]

وسوف نرى أن السبب الاساسى للهزيمة كان مرده الى هذا السعى الاثيم الذى قل أن يوجد له نظير فى تاريخ بلد من بلاد العالم ...

كانت الخطة الاساسية للحملة الانجليزية غزو مصر من الشرق كما ذكرنا ، وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس واتخاذ الاسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة

وقد رأينا ما كان من نشاط الانجليز فى هذه المنطقة حتى أوائل شهر اغسطس وما كان من اهمال المصريين اياها حتى ذلك التاريخ ، وفى اليوم التاسع عشر من أغسطس ابحرت الحملة الانجليزية من الاسكندريه الى بورسعيد تحت قيادة سيمور وكان الانجليز قد حصنوا مدخل الاسكندرية تحصينا قويا خشية أن يدخلها الجيش المصرى من كفرالدوار وربطوا بينها وبين بورسعيد من البحر بأسلاك التلغراف

وفى الاسبوع الاول من اغسطس كان عرابى قد أرسل محمود فهمى باشا لبناء مايمكن بناؤه من الاستحكامات عند التل الكبير والصالحية ، وبعض المواقع الاخرى ، كما أرسل بعض القوات فرابطت على مقربة من الاسماعيلية

وفى العشرين من اغسطس بلغت السفن الانجليزية المقلة للحملة بورسعيد، وكان عدد رجال الحملة نحو ٣٠ الفا ، وفى هذا اليوم احتل الانجليز بورسعيد واقتحمت السفن الحربية قناة السويس رغم أنف القانون وعلى حيادها ألف سلام ، ومنعت السفن التجارية من دخول القناة من الشمال ومن الجنوب ..

واحتلت جنودهم الاسماعيلية كذلك فى هذا اليوم ،

---

(١) مصر رقم ١٨ ص ٤٢

وشرعوا فى انزال عتادهم بها ليتخذوها قاعدة لزحفهم على القاهرة ، وتحقق لهم بذلك خطوة هامة من خطوات حملتهم ، فبين الاسماعيلية والقاهره ما لايزيد عن ١٥٩ كيلومترا فى حين أن بين الاسكندريه والقاهرة نيفا ومائتى كيلومتر.. هذا وان الطريق فى الصحراء أسهل منه فى الدلتا حيث الترع التى تعوق سير الجيش وحيث يخشى قطع الجسور وتهديد مؤخرة الجيش الزاحف ، من القرى والمدن

وأرسل عرابى الى دى لسبس فى هذا التاريخ يقول : «حيث أن الانجليز اعتدوا على حياد القناة ، فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها لمنع عدوانهم عليها »

وحاول الجيش تنفيذ هذا العمل فلم يستطع ، اذ حرس الانجليز بسفنهم ومدفعيتهم شواطىء القناة فكان كلما قرب العمال من مكان أبلغت طلائع الانجليز عنهم فأقبلت القوارب بمدافعها تصليهم نار قذائفها فيولون الادبار ، ولم يتسن للمصريين الا سد الترعة العذبة فمنعوا وصول الماء الى السويس والاسماعيلية ...

وكانت السفن الانجليزية منذ وصولها لاتزال تضرب نفيشة أول معسكر للمصريين بقنابلها لتشغلهم عن العمل فى ردم القناة ولتلقى الرعب فى نفوسهم، ولا تبعد نفيشة عن الاسماعيلية الى الغرب الا بنحو ٣ كيلومترات ...

بلغ ولسلى الاسماعيلية فى ٢١ أغسطس ، وبدأ يعد العدة للزحف على الصحراء ، وفى هـذا اليوم وصلت القوات الهندية الى السويس ...

يقول عرابى فى مذكراته : « فى ٢١ أغسطس توجه الفريق راشد باشا حسنى الى الخط الشرقى ومعـه فرق من البيادة والطوبجية والسوارى تحت قيادة خالد باشا نديم ، ومحمد عبيد بك الميرالاى ، وعبد القادر بك عبد الصمد الميرالاى ، ثم صار وضع أورطة فى محطة

فايد ، وأخرى فى نفيشة ، وجعلوا المركز العمومى فى المسخوطه بواسطه الاهالى المتطوعين وسد الترعة الحلوه»

وفى ٢٣ من الشهر التحم الانجليز والمصريون اول التحام فى الميدان الشرقى ، وبعد قتال شديد ارتد المصريون عن نفيشة فاحتلها الانجليز ...

وفى اليوم التالى هاجم الانجليز موضع سد الترعة الاسماعيلية وكان يسمى المجفر واحتلته جنودهم ...

ودارت معركة عنيفة بين الجيشين فى المسخوطة فى ٢٥ اغسطس ، وقد أبلى راشد باشا بلاء حسنا فى هذه المعركة ، ولكن تكاثر العدو عليه اضطره الى الانسحاب فسقطت المسخوطة

وفى هذه المعركة اصيب الدفاع الوطنى بضربة من اشد الضربات وخسر خسارة كبيره وذلك بأسر رئيس أركان حرب الجيش وكبير مهندسيه محمود فهمى باشا كأنما قدر على الجيش المصرى أن يصادفه النحس فى أولى خطواته

وبيان ذلك أنه خرج فى المساء وكان يرتدى ملابس مدنية ومعه ياوره فترك الياور فى قرية هناك وسار وحده حتى بلغ قمة تل غير مرتفع على الجانب الآخر من وادى الطميلات ليلقى نظرة على الصحراء فى اتجاه الاسماعيلية وتصادف أن كانت ثلة انجليزية صغيرة بهذا المكان فأحاطت به وظنته يتجسس ، ولكنه أوهم هؤلاء أنه مالك من أصحاب الارض فى القرية القريبة وكادوا يصدقونه ويطلقونه ، ولكن رئيس هذه الثلة رأى أن يأخذه الى معسكر الانجليز ، ربما كان فى الامر شيء ، وبقى الياور فى القرية لا يدرى ماذا وقع لرئيس أركان حرب الجيش ؟ وهكذا لحقت الجيش المصرى خسارة فادحة فى أيسر صورة

ولهذا ظن عرابى الظنون بمحمود فهمى باشا وحسب أنه فعل هذا ليقع أسيرا فى يد الانجليز ، فقد قال فى مذكراته : «وأما محمود فهمى باشا فانه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآثر الوقوع فى الاسر على البقاء فى الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا (١) وطمعا منه فى قبوله لدى الخديو بسبب استسلامه الى الانجليز ولذلك خالف خالد باشا وثبت على موقفه مع خادمه حتى قبض عليه الانجليز بصفة كونه نفر بسيط »

واستولى الانجليز على المحسمة فى نفس اليوم الذى استولوا فيه على المسخوطة وهى على مسافة ٢٢ كيلومترا من نفيشة ونحو ٢٤ كيلومترا من التل الكبير ، وكانت خسائر المصريين فى المحسمة ٧ مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وقطار محمل بالذخيرة ...

ودخل الانجليز القصاصين بعد مقاومة صغيرة ، فأصبحوا على مسافة ١٥ كيلومترا من التل الكبير وعند ذلك رأى عرابى أن ينتقل الى الميدان الشرقى فسافر الى هناك من كفر الدوار بالقطار يصحبه عدد من الضباط وقوة من الحرس ، وكان معه عبدالله نديم خطيب الثورة وكاتبها وقد جاء يستنهض الهمم بأحاديثه وخطبه بين صفوف الجيش

واستقبل عرابى فى الزقازيق استقبالا حارا ، فقد خف للقائه الاعيان والعمد والموظفون وأرباب الطرق الصوفية وحيته الجموع المتزاحمة لرؤيته بالدعاء المعروف : «الله ينصرك ياعرابى» وكانت النساء والصبية على خط السكة الحديد يرددون أغنية أولها : «يامولانا ياعزيز ، أهلك عسكر الانجليز!» ثم يهتف احد الشباب

(١) لعل عرابى يقصد موافقة تركيا على طلب انجلترا بشأن هذا المنشور وذيوع هذا النبأ وذلك لانه لم يصدر الا فى ٦ سبتمبر .

قائلا : « الله ينصرك » فتردد جموع الشباب قائلة : « ياعرابى » وتألف من هذا مظاهرة شعبية جميلة فيها الدعاء وفيها الرجاء ..

واقيمت لعرابى بالتل الكبير خيمة سعيد باشا التى كان يقيم بها فى كفر الدوار واحيطت بالحرس خوفا من كيد الكائدين

وتشاور عرابى وكبار رجاله فى الموقف الحربى فتقرر اتخاذ خطة الهجوم فى الحال ، وقد وصل الى الميدان الشرقى من القاهرة على فهمى باشا يقود الآلاى الاول من المشاة ، ثم وصل بعد ذلك عيد محمد بك بآلايه من كفر الدوار ، وكذلك أحمدعبد الغفار بك . وعبدالرحمن بك حسن ومعهم الفرسان ، ووصل من دمياط خضر بك خضر ومعه اورطتان من السودانيين

على أن مجموع هذه القوات لم يكن يزيد فى الميدان الشرقى عن ١٣ الفا من الجنود النظامية ، أما المتطوعون والانفار والعمال فكان عددهم يزيد كثيرا عن ذلك

وفى ٢٨ أغسطس تهيأ المصريون للهجوم وقد اشتعلت الحماسة فى نفوسهم على الرغم مما أنبث فيها من أسف على أسر محمود فهمى باشا ...

يقول عرابى فى مذكراته : « ثم عقد مجلس حربى تحت رئاستنا تقرر فيه الهجوم على العدو وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره وأعطى لكل واحد منهم رسم الشكل الحربى مبينا فيه الدقيقة التى يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو حيث كان معسكرا فى القصاصين ، وكان الترتيب على هيئة شكل مقعر يكتنف العدو من كل جهة فكانت أورطة محمد افندى الرملاوى فى الجناح الايمن للترعة الحلوة ، ومعه أورطة من السوارى ومدفعان وجانب من العربان ، وفى

هذا الجناح من يسار الترعة اجى آلاى بيادة حكمدارية أحمد فرج بك وخلفه مدفعان ، وفى القلب ثلاث أورط يتقدمها ٨ مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البيادة و ٦ مدافع والجميع تحت حكمدارية على فهمى باشا ، والطوبجية تحت حكمدارية حسن رافت بك ، وفى الجناح الايسر ٦ اورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار ، وأورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك ، وقومندان هذا الجيش هو راشد باشا حسنى ، وكذلك محمود باشا سامى حكمدار الجيش المعسكر فى الصالحية وهو مكون من ١٢ الف عسكرى ، يقوم بجيشه ليلا بحيث يصل الى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ، ويحيط بميمنة العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعربان يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة ، وبذلك لا يتمكن العدو من الفرار ، وقد كان مع العدو الدوق أوف كنوت ثالث أنجال ملكة الانجليز ، وانفض المجلس على ذلك»

وهى خطة محكمة كما نرى ، وقد نفذت كذلك باحكام فهجم المصريون على مواقع الانجليز فى القصاصين فى ٢٨ اغسطس بقيادة راشد باشا حسنى الشهير بأبى شنب فضة ، ودار قتال شديد جدا وتحمس المصريون وقويت روحهم المعنوية وكأنما تذكروا المبادىء التى يحاربون فى سبيلها فشدوا على الانجليز مستبسلين وعظمت قوة هجومهم فأجلوا الانجليز عن مواقعهم الامامية واستولوا عليها ...

واستعاد الانجليز قوتهم وهجم فرسانهم بقيادة الجنرال لو ، وبعد تلاحم شديد استردوا مواقعهم من المصريين ، وقد هبط الليل والحرب سجال بين الجانبين ، وقتل من الانجليز فى المعركة ٨ منهم ضابط وجرح واحد

وستون ، منهم ١٠ من الضباط ... وهذا هو احصاء الانجليــز أنفســهم (١) وتعرف هــذه المعركة بمعركة القصاصين الاولى

اما التقرير الرسمى الذى أعلنه وكيل الجهادية بناء على ما ورد اليه من ميدان القتال ، فيقول : ان المصريين أسروا ٧٠ انجليزيا وان جثث الانجليز فى ساحة المعركة بلغت ٨٠٠ « وجدوهم مجندلين بأسلحتهم والبســتهم وذخيرتهم ، وهم غير الذين سيعثر عليهم فيما بعد ، وغير الذين تمكن العدو من حملهم الى مراكزه او احراقهم ، فقد ورد الينا من على فهمى باشا انه رأى حريقا فى جهة الـكبرى فأرسل الى تلك الجهة من يستكشف خبر هذا الحريق فظهر أنه حريق قتلى الهنــود من جيش الانجليز وقد استشهد من عساكرنا فى هذه المعركة ٦٠ شهيدا ، وجرح ٨٥ »

أورد عرابى فى مذكراته تقريرين للانجليز عن هــذه المعركة ، ومما جاء فى أولهما : « وكان العرابيون بعــدد عظيم لم تقو عليه الفرق الانجليزية فوردت اليها نجدة من المحسمة ، ثم اشتد القتال واستمر الى أول الليل فتشتت شمل العرابيين وتكبدوا خسائر جسيمة منها عدة مدافع غنمها الانجليز . . أما خسائر الانجليز فكانت قتيلا واحدا و ٦ جرحى من الضباط و ١٩ قتيلا و ٥٢ جريحا من الجند »

ومما جاء فى التقرير الثانى وهو للجنرال جراهام قائد هذه المعركة : « ففى الظهر أطلق العصاة علينا نارا شديدة من مدافع العيار الاول فلم يلحق بنا أقل ضرر وفى الساعة الثالثة بعد الظهر امرت رجالى بالرجوع الى مراكزهم ، فعادت فرقة الخيالة الى المحسمة وكانت قد وفدت على

(١) الحملات الانجليزية فى افريقيا للكيرنل سبتان ص ٣٠٩

امدادات ونجدات ، وفى الساعة الرابعة تقدمت نحونا فرقة من المشاة من الاعداء وحاولت التغلب على ميمنة الجيش واكراهه على التسليم » ... ولم يشر هـذا التقرير الى القتلى والجرحى ..

ويتبين من هـذه الروايات على كل حال ، تـكافؤ الجانبين فى المعركة ، ولا نجد أحسن من هذا نرد به على الذين يتحدثون عما ليس لهم به علم ، أو الذين أضلهم الاحتلال فقالوا : ان المصريين لم يحاربوا فما هو الا أن رأوا الانجليز حتى فروا هاربين ، وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء بترديد تلك الاباطيل عن جيش أمنهم ؟ هل لكى ينكروا الجهاد على عرابى ؟ الا ما أشد ما لقى هذا الرجل من نكران للجميل ؟ !

ويجدر بنا أن نلاحظ أمرا على جانب عظيم من الاهمية وهو أن الانجليز الذين كانوا يوالون الزحف الى الامام قد توقفوا بعد هذه المعركة أياما ، ولم يستأنف القتال الا بعد أن هجم المصريون عليهم مرة ثانية فى ٢٩ سبتمبر ، وذلك لان دسائس سلطان واعوانه لم تكن قد نجحت بعد ، فخشى الانجليز التقدم دون أن يستعينوا بهـذا السلاح الدنىء ... سلاح الرشوة والخيانة والغدر ، كما أنهم كانوا يعدون لعرابى الضربة القاصمة وهى اعلان قرار عصيانه ، وحسبنا هذا دليلا على خوف الانجليز من خطوط المصريين وعلى أنهم قد عرفوا ثبات المصريين واستبسالهم فى هذه المعركة حيث تبين لهم أن الامر جد وما هو بالهزل

والحق أن المصريين منذ معارك كفر الدوار حتى نهاية معركة القصاصين الاولى ، قد خلا جهادهم المشرف من كل شائبة ، وهو حتى هذا الطور خليق بكل ثناء واعجاب فحسب المرء أن يبذل كل ما فى وسعه فى سبيل النجاح

وفى سبيل الشرف ، أما ادراك النجاح فعلا فقد يفلت من أعظم القواد كفاءة ومن أقوى الجيوش بأسا لأمور لم تجر لاحد فى حساب ..

لابد لنا قبل ان نتتبع أدوار الحرب ، من أن ننظر فيما كان من أمر تركيا والمؤتمر الحربى بينهـا وبين انجلترا ، ومساعى الانجليز كى يصدر السلطان قراره بعصيان عرابى ..

ارادت تركيا أن يظل المؤتمر العام منعقدا املا فى أنه ربما جـد خلاف بين الدول ، ولذلك لم توافق على التأجيل وأعلنت احتفاظها بحقها فى دعوة المؤتمر فى أى وقت ، ولكن مساعيها ذهبت هباء ، وذهب كذلك المؤتمر الى غير رجعة ...

ووجهت تركيا همها الى المؤتمر الحربى الثنائى بينها وبين انجلترا ، وكان السلطان يتحرق شوقا الى اليوم الذى تنجح فيه مساعيه للاشتراك مع انجلترا فى الحملة على مصر وذلك بالسماح له بارسال جنود الى مصر التى هى جزء من سلطنته !

واستغلت انجلترا هذا الاهتمام الشديد لتظفر ببغيتها الا وهى « قرار العصيان » وراح دوفرين يتوعد تارة ، ويصانع تارة أخرى أثناء المناقشة فى الشروط المقترحة للعمل المشترك وهو فى الحالتين انما يمثل على الحكومة التركية ويعاملها معاملة الشيخ الخبيث الماكر ، لحدث لا يحيط بشىء مما حوله ، بغية اكتساب الوقت والظفر « بقرار العصيان » فحسب ...

وكان السلطان راغبا عن هذا القرار لما يكون من سوء أثره فى العالم الاسلامى ، ولأنه يوقن أن عرابى انما يدافع عن حقوقه فى مصر ، وأراد السلطان أن يظهر شيئا من الغضب فمنع ارسال عدد من البغال اشـتـرتها انجلترا

لجيشها فى مصر ، ولكن ما كاد دوفرين يحتج على ذلك فى عنف حتى تراجع السلطان وأرسل اليه رسولا خاصا يبلغه أنه أمر بارسال البغال المطلوبة ...

واغتنم دوفرين الفرصة فأبلغ رسول السلطان بأن الحالة فى مصر تستدعى عملا حاسما وهو يشير بذلك الى القرار المطلوب ، وفى ٢٣ أغسطس زار دوفرين سعيد باشا ، وبعد مناقشة فى أحد بنود المؤتمر المطلوب عقده ، اذ كان السلطان يريد أن تنزل جنوده بالاسكندرية بينما كانت انجلترا ضياعا منها للوقت تقترح غير جادة أن يكون ذلك فى أبى قير ، ورشيد ، ودمياط ، أشار دوفرين الى قرار العصيان ، وأجاب سعيد باشا بأن حكومته ترى أنها خطوة ليس من الميسور اتخاذها لاول وهلة ، وتريد أن تستبدل بها قرارا آخر يقوم على النصح لعرابى ومناشدة ولائه مناشدة أخيرة ، واذ ذاك نهض دوفرين غاضبا معلنا أنه من المستحيل أن يعود ثانية الى التحدث مع تركيا بشأن المؤتمر أو فى أى أمر آخر (١)

وأحدثت هذه الغضبة أثرها اذ رافقه سعيد باشا ، وقاسم باشا الى أسفل الدار ثم الى الشارع معتذرين ، وقالا : انهما تقدما بهذا الاقتراح على غير مشيئتهما ، ورد دوفرين فى صلف أنه لن يوقع على قرار عقد المؤتمر الا اذا وصله قرار العصيان باللغتين العربية والفرنسية

وفى ٢٥ أغسطس أرسل دوفرين الى حكومته يقول : ان السلطان عاد يضع العقبات فى سبيل ما يعده التجار لامداد الانجليز بما يريدون ارساله الى جيشهم فى مصر وأنه يهدد بالسجن أى تركى يرافق الحيوانات المزمع ارسالها بقصد المحافظة على حياتها ...

وفى اليوم نفسه أبرق مالت الى جرانفل يشكو من

(١) M.E. Cromer p. 244

ان عمل السلطان من شأنه الا يجعل العصاة يصدقون انه سوف يساعد الحملة ، لذلك فان الحملة لن تحصل منه على التأييد الادبى المطلوب ، ويقول ان شريف ورياض يعارضان فى مجىء جنود تركية الى مصر ويخشيان مما ينجم من المتاعب بسبب ذلك فيما بعد (١)

وفى ٢٧ اغسطس عاد سعيد باشا يلح وقد افضى الى دوفرين بأن تركيا مستعدة لقبول الشروط التى تراها انجلترا لعقد المؤتمر وأن قرار عصيان عرابى يصدر عقب التوقيع على الاتفاق الاخير ..

ووافقت انجلترا على شرط أن يعلن قرار العصيان حالا وهو فى الواقع ماكانت تبتغيه انجلترا بهذه الاتصالات وعلم ذلك فى مصر فى ٣١ أغسطس على أثر برقيته الى مالت، وعاد السلطان يبذل آخر محاولة لان تنزل جنوده بالاسكندرية وذلك فى ضراعة وتوسل يدلان على مبلغ ما انحدر اليه هذا الطاغية المستبد فى قومه أمام الانجليز من هوان ، فقد أرسل دوفرين يقول : « أن السلطان جاث على ركبتيه وانى لاجرؤ على أن اتقدم الى حكومة جلالة الملكة فى اخلاص ان تقبل تضرعاته » (١) وزاد دوفرين على ذلك : « أن السلطان يعد فى نظير ذلك أن يعمل كل شيء تريده انجلترا بشأن القرار ضد عرابى ، وأن يأمر الصحف بتغيير لهجتها »

وعلى الرغم من هذه المذلة فى الرجاء لم تقبل الحكومة الانجليزية نزول الاتراك بالاسكندرية التى هى من أملاك السلطان ! وفى اليوم السادس من سبتمبر أعد السلطان القرار ونشر فى الصحف قبل أن يرسل الى دوفرين وما أن ظفرت انجلترا بتوقيع السلطان على القرار،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥
(٢) المصدر السابق صفحة ٢٤٦ وفى الاصل الانجليزى « صلواته »

حتى راحت فى لؤم ، ليس له مثيل ، تتنصل من وعدها بقبول المؤتمر بحجة أن قرار العصيان لم يكن فى الصيغة التى أرادتها انجلترا تماما !

واستؤنفت بعد ذلك الاتصالات بين الدولتين فى صورة مملة حسبنا منها هذا القدر لنعود الى الحرب فى مصر

***

فى ٩ سبتمبر وقعت معركة القصاصين الثانية وكانت آخر معركة اثبت فيها المصريون شجاعتهم وكاد جيش مصر رغم قلته يظفر بالجيش الانجليزى رغم كثرته ، ولكن وا أسفاه ، كانت الدسائس قد أفرخت فحيل بين المصريين وبين الظفر وهم منه على خطوة ، ولذلك كانت هذه فى الوقت نفسه أول معركة سجل فيها نفر من المصريين على أنفسهم عار الخيانة فى أقبح صورها وأشنعها ، وبسبب هذه الخيانة الغادرة حلت الهزيمة السوداء حين التمعت بوارق النصر ...

كانت لا تخرج خطة هذه المعركة فى جوهرها عن خطة المعركة الاولى ، وكان المصريون هنا كذلك البادئين بالهجوم على الانجليز ، وهى ظاهرة تسجل لهم بالحمد اذ كان عمل المصريين فى كفر الدوار قاصرا على الدفاع ..

وقد وصف بلنت هذه المعركة بقوله : « انها كانت افضل فرصة أتيحت للمصريين لصد تقدم الانجليز وآخرها ، ولم تكن بعيدا جدا من النجاح » ..

ويقول بلنت : « ولو أنها نجحت فليس يعرف ماكانوا لا يحصلون عليه من الاعتراف بهم ومصالحتهم ، وذلك لان الرأى العام فى انجلترا كان قد تغير فعلا فى هذا الوقت بالذات وأخذ الناس يشعرون بالخجل من حرب تشن على الفلاحين الذين يحاربون ليخلصوا حريتهم من استبداد قديم »

وكان قد وصل فى ٣١ أغسطس كما ذكرنا الى مصر ، با موافقة السلطان على اصدار قراره بعصيان عرابى ؛ نشرت صحف الآستانة هـذا النبأ وتناقلته الصحف لانجليزية والصحف المؤيدة للخديو ، وقد طرب لهـذا لنبأ توفيق باشا وأعوانه ايما طرب . وهرول سلطان اشا الى الاسماعيلية ليعمل على الاتصال ببعض ضباط لجيش المصرى بعد معركة القصاصين الاولى ، ورأى ن الفرصة سانحة ليوهم بعض المستضعفين أن حياتهم تتوقف فيما بعد على ما يفعلون الآن ...

قال عرابى فى مذكراته : « ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعة أرسل وفدا الى الاسماعيليه مؤلفا من محمد سلطان باشا ، وعمر لطفى باشا ، وفريد باشا ، وزكى بك ابن أخت يعقوب باشا سامى ، وعثمان بك رأفت ، ومعهم مقادير عظيمة من نسخ الجوائب المندرج فيهـا منشور السلطان بعصياننا ، ومنشور الخديو القـاضى بمسـاعدة الانجليز وانه لا مطمـع لهم فى بلادنا ، وقد انضموا الى زهراب بك المعين مع الجيش الانجليزى من قبل ليبثوا العيون والجواسيس على جيشـنا وليتفقوا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت ضمائرهم ، وضعفت عزيمتهم ويوزعوا عليهم تلك المنشورات ... وقـد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل فى البلاد الريفية لدعوة العمد والاعيان لطاعة الانجليز ومساعدتهم وفقا للمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم اليهم فى هذه الخيانة السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفية وأحمد افندى عبد الغفار عمدة تلا ، وغيرهم من المصريين الذين انخلعت قلوبهم من منشور السلطان المندرج بالجوائب المشار اليها »

أحكم عرابى ورجاله وضع خطتهم للهجوم على الانجليز

وقد ذكر عرابى لصديقه مستر بلنت : أن السير شارلز ولسن أحضر لى خطة المعركة حين كنت بالسجن فى القاهرة وسالنى عما اذا كانت من رسم يدى فأجبته : نعم ، فأخبرنى كيف حصلوا عليها ، ثم قال : انها خطة جيدة وربما كنتم بها تنتصرون علينا »

ولكن ما جدوى احكام الخطة مع الخيانة فى أشنع صورها وقد أحدثت دسائس سلطان اثرها فى بعض صغار النفوس فهووا الى موضع يتندى وايم الله جبيننا خجلا اذ نذكره ! واى شىء يخجل منه مصرى يتحدث عن تاريخ وطنه هو اشد وافظع من أن يقول ان مصريا من بنى وطنه أرسل وا اسفاه خطة المعركة بحذافيرها الى العدو ، بل لقد سرق النسخة الاصلية التى رسمها عرابى بيده فأضاف الى جريمة الخيانة فضيحة السرقة فكانت خيانة على خيانة ؟ وكان هذا المصرى الخائن هو على يوسف خنفس الذى وقف بآلايه فى ميسرة خط القتال ، وأى فضيحة فى تاريخ الحروب أفظع من هذه الفضيحة الفاضحة ؟

قال عرابى فيما تحدث به الى بلنت : « ان الخطة أفشيت للعدو على يد على يوسف خنفس الذى أرسل الرسم الاصلى الذى رسمته بيدى الى الجنرال ولسلى ، وكان هو وغيره من رجال الجيش قد أفسدهم أبوسلطان الذى كان يعمل لصالح الخديو »

وقال الشيخ محمد عبده : « فى واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغى وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين آلا وجود الفرق الانجليزية زاحفة وآخذة جميع الطرق فى الساعة الواحدة وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب

الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا ومراسلة العربان »

وليس فيما يذكره المتحدثون عن فنون القتال من شيء هو أشد خطرا على جيش محارب من أن تكون خطته معروفة لعدوه ، ذلك لانه بنى هذه الخطة على اساس مفاجأة العدو وأخذه من حيث لا يدرى ، فاذا عرف العدو الخطة انقلب الوضع وفوت على عدوه قصده وكان هو المباغت ، هذا فضلا عما يحدثه انكشاف الخطة فى النفوس من ذعر وقت القتال ...

قاد الجيش المصرى فى المعركة الفريق راشد باشا حسنى ، وقد بدأ الهجوم فى الثلث الاخير من الليل ، والتحم الجيشان والعدو على علم بالهجوم فلم يباغت وان كان قد فوجيء بابتداء المعركة ، لان علمه بخطتها ساعد على ثباته حتى ينجلى النهار ، وأسفر الصبح والمعركة حامية بين الجيشين ، والمدفعية من الجانبين ترسل قذائفها فى سرعة وقوة ، وتكافأ الفريقان على الرغم من تفوق الانجليز فى العدد ...

وتلفت قواد المصريين يتوقعون دخول محمود باشا البارودى الميدان قادما بجيشه من الصالحية ليكر على ميمنة العدو ، ولكنه تأخر عن موعده فلم يدخل فى غبش الفجر كما كانت تقضى به الخطة ، ولما كان الانجليز على علم بمقدمه فقد رصدوا له قوة من المدفعية حالت بينه وبين الوصول الى موضعه من المعركة ، ومما يذكر مع عظيم الاسف أن رجال سعود الطحاوى هم الذين أضلوه عن وجهته فى الصحراء فتأخر وصوله ...

ومضت ساعات ونار الحرب مستعرة ، وقد توالى الجزر والمد بين الجيشين ، وثبت كل من البطلين المصريين علي فهمي باشا وراشد باشا حسنى بطولة فذة طول النهار

ومن حولهم الجيش المصرى لا يتزحزح ولا يهن ...

ولكن المعركة قد انقلبت من أولها بسبب الخيانة الى معركة دفاعية بعد أن كانت خطتها هجومية ، قال مستر بلنت : « بناء على أقوال الجانب المصرى عن المعركة قد فوجىء العدو بالهجوم ، وظلت المعركة زمنا طويلا غير معروفة العاقبة ، وأوشك دوق‌كنوت فى وقت ما أن يقع أسيرا » . ثم أشار بلنت الى تأخر البارودي وسببه بما لايخرج عما ذكرناه الى أن قال : « ومن المؤكد أن احد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان رفقاءه عن قصد » .

وظل القتال على اشده طول النهار ، ولكن القدر ابى الا أن يصيب المصريين بمصيبة لا تقل شأنا عن اسر محمود فهمي باشا ، كأن لم يكفه ما أحاط بهم من‌خيانة ، وذلك أن كلا من بطلى المعركة على فهمى وراشد حسنى قد تلقى رصاصة فى جسمه أقعدته ، الاول فى ساقه ، والثانى فى قدمه ، فخرجا من المعركة ، وبخروجهما ضعف هجوم المصريين وانقضى اليوم ولم يظفر بالنصر هؤلاء ولا هؤلاء .

قال عرابى فى مذكراته : « وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش ، فقد ثبتوا ثبات الابطال الى آخر النهار ، حتى اذا جرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة ، وعلى باشا فهمى برصاصة أيضا فى ساقه ، وخسر كل من‌الجيشين‌خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التى كانت مقذوفاتها كالمطر المنهمر فى الميدان ، وكانت هذه المعركة أشد حرب نشبت بيننا وبين الانجليز، اذ كانت قوة الجيشين‌عظيمة وثباتهم نادر المثال ، تراجع الجيشان بانتظام » .

قال الاستاذ محمد رفعت بك فى كتابه تاريخ مصر

السياسي فى الازمنة الحديثة : « وقــد أبلى المصريون بقيادة الفريق راشد حسنى باشا المعروف بأبى شنب فضة فى هذه الموقعة بلاء حسنا ، فأوقعوا خسائر جمة بصــفوف الانجليز وزحزحوهم عن مواقعهم ، وكادوا يظفرون بالنصر الى أن جرح راشد حسنى جرحا بليغا ، فذاع الخبر بين المصريين وبدأوا يتقهقرون » .

وان وقفة المصريين على هذه الصورة الرائعة فى معركة القصاصين الثانية على قلة عددهم بالنسبة لعدد الانجليز ، اذ كان هؤلاء يقربون فيها من ضعفهم ، لتجعلنا نعتقد فى غير تردد أنه لولا الخيــانة لاحاط المصريون بجيش ولسلى فهزموه فى صحرائهم وهم القادرون على شمسها وحرها فى شهر سبتمبر ، ولولد فى هذا المكان عصر جديد فى تاريخ مصر ، ولازدانت ميادين عواصــمنا بتماثيل عرابى منقذ مصر ...

***

ارسل البطلان الــكبيران على فهمى وراشد حسنى الى القاهرة مع جرحى المعركة فى القطارات الخاصة التى أقلتهم ، وهكذا خلا الميدان الشرقي من ثلاثة رجــال هم من أعظم قواد عرابى خبرة وبســالة .

وأخذ ذلك يحدث أثره فى نفوس المصريين ، فليس بالامر الهين غياب رجال من المعركة تعقد عليهم الآمال فى النصر ، وليس يخفى مايكون لشهرة القواد ولاسمائهم من وقع فى نفوس الجند ، تشتد به عزائمهم وتنتعش آمالهم .

على أن أعظم ما أثر فى النفوس وبث فيها التردد الذى هو مقدمة الهزيمة ، انما هو ما سعى به سلطان وأعوانه من تخويف الجند والضباط من عاقبة بقائهم على الولاء لعرابى ، وقد جاءوا فى ساعة الفصل يوهمونهم أن النصر

للانجليز ، ولن يشفع لاحد بعد ذلك شفيع ، وسبيل الخلاص من العقاب الشديد هو ترك جانب عرابى على الفور قبل أن يحصى العصاة الثائرون على الخديو ، وان حسابهم فى الغد لعسير ...

ومن اكبر ما كفل النجاح لسلطان هو اذاعة قرار الخليفة بعصيان عرابى، ذلك القرار الذى بذلت انجلترا ما بذلت من جهد للحصول عليه من عبد الحميد الذى يعد بفعلته هذه شريكا فيما وقع من خيانة ، فقد طعن بهذا القرار عرابى من وراء ظهره بعد الذى أبداه من عطف عليه وعلى حركته ، ولئن كان بالامس قد أنعم عليه بالوسام المجيدى الاكبر ، فها هو ذا اليوم يثبت فى ظهره الخنجر ...

ولقد نشط سلطان ومن أخذ مأخذه من أعوان الخديو فى نشر أنباء القرار بمجرد أن وافق عبد الحميد على اصداره ، وراحوا يوزعون على الجند والضباط ، كما بينا ، أعدادا من الصحف التى نشرت هذا النبأ منذ نهاية أغسطس ، بل لقد أرجفوا به قبل ذلك ، وما زالوا يرجفون حتى أصبح ارجافهم حقيقة ، فلما نشر القرار فى اليوم السادس من سبتمبر ، وأذاعت نصه جريدة الجوائب ، استحضر الانجليز آلافا من نسخ هذه الجريدة ، وشمر سلطان وفريقه سواعدهم فوزعوا هذه النسخ على الجيش قبيل معركة التل الكبير ..

ومن السهل أن ندرك مبلغ ما كان لهذا القرار من أثر فى نفوس الجند الذين كانوا يعتقدون أن جهادهم كان وطنيا دينيا فى وقت واحد ، فهم جند مصر وجند السلطان خليفة المسلمين الذى يعتدى الانجليز الكفرة على حقوقه .

وكان نص هذا القرار ما يأتى : « ان الدولة العلية

السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا ، وان اعمال عرابى باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ، ثم التمس من جناب الخديو العفو فعفا عنه ، ونال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام ، وان الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية ، انما كان من تصريحه بالطاعة لاوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم .

وقد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لاسيما انه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية ..

وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية .

وان تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة ، ويتعين على سكان الاقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الاوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة ، وان معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية (١)

والواقع أن هذا المنشور كان ضربة شديدة لعرابى ، بل أنا لا نسرف اذا قلنا انه قد فعل وحده بجيش عرابى ما لم تفعله الجنود الانجليزية مجتمعة ...

قال عرابى : « ولما نشر منشور السلطان بعصياننا ومن معنا بجريدة الجوائب ارضاء للانجليز أرسل منه مئات الالوف الى الهند والافغان والحجاز والعراق

(١) من مذكرات عرابى المخطوطة

والترك ومصر والمغرب الاقصى وجميع بلاد الاسلام بواسطة أبوسلطان باشا ومن معه من المخدوعين ـ كما أسلفنا ـ وتذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا : اننا اذن عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم باشا ومن مات منا مات عاصيا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين فى قتال الدولة العلية ، فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لاحكام الدين الاسلامى لاننا انما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية وأن الجهاد فى سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا وأن سلطان المسلمين لايسمح بمثل هذا المنشور وانما هو دسيسة انجليزية تمكنوا من انفاذها بواسطة الرشوة ، ولو فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لاحكام الدين ..

الا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى آلاى سوارى وعلى بك يوسف ميرالاى ٣ جى بيادة ، ولكنهم اظهروا قبول ما أوضحناه لهم وأسروا الغدر والخيانة ، والحساب على الله »

***

واشتدت حيرة عرابى بعد اصابة على فهمى وراشد حسنى ، من يخلفهما على القيادة ، وكان عبد العال حلمى خير من يصلح لهذا ولكنه كان بدمياط مع الآلاى السودانى للدفاع عن هذا الموضع الهام مخافة أن ينزل الانجليز به فرقا بقصد تطويق التل الكبير ...

واستدعى عرابى على باشا الروبى من مريوط ، فكان

حضوره قبل معركة التل الكبير بيوم واحد ، ولذلك لم يستطع أن يدرك حقيقة الحال فى الميدان ادراكا تاما ، ولم يكن له فى الواقع مثل منزلة على فهمى أو راشد حسنى فى القيادة ولكنه كان من أكبر المخلصين لعرابى

لم تكن خطوط الدفاع فى التل الكبير متينة كخطوط كفر الدوار لانها أنشئت على عجل ، وقد عمل فى انشائها آلاف الفلاحين باشراف محمود باشا فهمى قبل اسره . وكانت عبارة عن خنادق جافة تمتد نحو ستة كيلومترات من الجنوب الى الشمال وتتراوح أعماقها بين متر ومترين واتساعها بين مترين وثلاثة أمتار .

وكان مركز الجيش المصرى على هضبة وراء هذه الخطوط يبلغ ارتفاع قمتها نحو ٣٠ مترا وتنحدر انحدارا بطيئا نحو الشرق والشمال ، وعلى المنحدر الشرقى للهضبة وراء مركز الجيش أقيمت خيمة عرابى على بعد أربعة آلاف متر من الخطوط الامامية .

وكان جيش عرابى لا يزيد عن ١٢ ألف جندى من الجنود النظامية (١) وكانت بقية الفرق النظامية فى كفر الدوار بقيادة طلبة عصمت وفى دمياط بقيادة عبد العال حلمى .. على أن عرابى استحضر أورطتين من الآلاى السودانى بدمياط فانضمتا الى جيش التل الكبير... وكانت مدفعية هذا الجيش تتألف من نحو ٧٠ مدفعا

أما جيش ولسلى فكان يتألف من ١٣ ألف حسب ما جاء فى تقريره الذى أرسله الى حكومته عن الواقعة وكان معه نحو ٦٠ مدفعا .

وكان سعيد الطحاوى لا يفتأ يلقى فى روع عرابى أن الانجليز لم يعدوا العدة للزحف بعد ، وكان كلما سأله عرابى عن حركات الجيش الانجليزى أملت عليه خيانته

---

(١) حسب احصاء بلنت وقد استقاه من عدة روايات مصرية .

ان يهون امرها ويوحي الى عرابى أن بين الانجليز وبين الزحف أيام ويقبض ثمن هذا الكلام ، ثم يذهب الى المعسكر الانجليزى فيطلع ولسلى على كل ما يهمه معرفته، ويبسط يده للذهب الانجليز ولا ينسى نصيبه كذلك من سلطان ...

وفى اليوم الثانى عشر من سبتمبر ارسل على يوسف من المقدمة الى عرابى يقول : ان الانجليز لن يتحركوا اليوم ، فركن الجيش الى الراحة بامر قواده ...

وان بعض المؤرخين ليعيبون على عرابى أنه لم يضع فى مقدمة الجيش طلائع ترشده عن حركات العدو، وانه يحق للمرء أن يعجب من انكار الحقائق على هذه الصورة فهل كان هؤلاء يريدون أن ينسبوا الخطأ الى عرابى ، أم كانوا يريدون أن يخفوا خيانة على يوسف ؟

وفى مساء ذلك اليوم نفسه ١٢ سبتمبر تأهب ولسلى للزحف ، واختار الليل كي يتقى حر النهار وكي يتخذ من الليل ستارا لخطته القائمة على المباغتة التى هيأ لنجاحها سعيد الطحاوى وعلى خنفس !

وزحف الجيش فى سكون بعد منتصف الليل بساعتين، وقد شدد ولسلى التحذير وأمر بالا يرتفع صوت أو توقد نار ، الا نار المعسكر الانجليزى التى تركوها وراءهم ايهاما للجيش المصرى بانهم لايزالون قائمين فى خطوطهم لايتحركون ...

وكان يرشد الجيش الانجليزى فى الصحراء ضباط من بحارة الاسطول ممن يعلمون الاهتداء بالنجوم ، ولكن علمهم لم يغنهم شيئا فكان اعتماد ولسلى على نفر من الضباط المصريين الموالين للخديو تقدم ذكرهم ، وعلى فريق من عرب الهنادى اشترى الانجليز ذممهم بالمال ، إن كان لهم ثمة من ذمم ...

وتقدم جيش ولسلى مطمئنا لا يتهيب طلائع الجيش المصرى ، ولكن فيم التهيب وقد كان فى مقدمه الطلائع عبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، ثم يليه من ورائه خنفس ؟ وكان عبد الرحمن قد انضم الى الانجليز والخديو ، كما انضم خنفس، وقبل الرشوة كما قبلها خنفس، ولم يعرف مقدار ماأخذ عبدالرحمن، أما خنفس فانه بعد الحرب لم يخجل من أن يشكو لانه لم ينل سوى ألف جنيه ولانه لم يمنح ما وعد به ، وهو عشرة آلاف جنيه (١) ، كأنما كان يريد أن يكون نصيبه مثل نصيب سلطان نفسه كبيرهم الذى علمهم الخيانة !

وكان عبد الرحمن يحرس الطريق الآتى الى الصحراء من الشرق ، فاتجه بفرقته الى الشمال ، وترك الجيش الانجليزى يمر فى سلام وأمن وليت شعرى كيف تبلغ خيانة هذا الانسان مبلغها هذا ، وفى أى معارك الدنيا نعثر على مثيل لها ؟ !

ومر الجيش الانجليزى حتى كان على مقربة من موضع خنفس ، فكان هذا أعظم خيانة من سلفه فانه لم يكتف بترك الجيش الانجليزى يمر ، بل وضع له الفوانيس على المسالك التى يخترقها فى يسر ، وأنا لنحتقر أن نعقب على ما فعل خنفس بكلمة ...

وكان المصريون نائمين فى خطوطهم فما راعهم الا أصوات البنادق والمدافع والرصاص يحصدهم فى صورة وحشية مروعة ، وكان ذلك فى الساعة٤ والدقيقة ٤٥ صباحا ...

وكان هجوم الانجليزعلى نصف دائرة فأحاطوا بميمنة المصريين وميسرتهم وتقدمت فرقة من المدفعية حتى صارت وراء خطوطهم وفتكت بنادق الانجليز ومدافعهم

---

(١) S. H. Blunt p. 421

بالمصريين فتكا ذريعا ، ولم تكن هذه فى الواقع معركة ولكنها كانت قرصنة فى الصحراء لا ندرى كيف يجعلها الانجليز من مفاخر ولسلى فينعمون عليه من اجلها بلقب اللورد وكان خليفــا بهم أن يدركوا أنها من مخازيهم ومخازيه ، فهذا السطو القائم على الخيانة والغدر أقرب الى عمــل اللصوص منه الى عمل الجند ، وان تبجح العسكريون بأن الحرب تبرر كل شيء ...

وفر أكثر الجيش المصرى مذعورين ، ولكن الميدان فى هذه المحنة وفى هذه المباغتة التى تطيش فيها الاحلام لم يخل من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم من الانهيار ، فأثبتوا فى مستنقع الموت أرجلهم والهـــول محيط بهم والموت يأتيهم من كل مكان ، وان جــلال عملهم هذا ليمحو من النفوس شــيئا كثيرا مما تركته فيها خيانة خنفس ومن حذا حذوه من الخزى والالم ، وهؤلاء الابطال الميامين البواسل هم ، الشهيد البطـــل الميرالاى محمد عبيد ، وأحمد بك فرج ، وعبد القادر بك عبد الصمد ، وحسن أفندى رضوان

وقف هؤلاء الاربعة بفرقهم مستبسلين وكان مجموعها لايزيد عن ثلاثة آلاف ، وكان أكثرهم بسالة واقداما ، محمد عبيد بطل الهجوم على قصر النيل يوم أن أخرج عرابى وصاحبيه من سجنه ، فقد صمد هنا للانجليز برجاله السودانيين وأوقف زحفهم وقاتلهم قتالا شديدا مات فيه معظم رجاله فتقدم واستقبل الموت راضيــا مرضيا ، وذهب شهيد وفائه وبطولته

ويلى محمد عبيد فى البسالة حسن رضوان قومندان الطوبجية الذى أصلى الانجليز نارا حامية بمدافعه وأوقع بهم رغم تفوقهم خسائر جسيمة حتى سقط جريحا فى الميدان ، ولما حمل اسيرا الى ولســـلى واقبـــل يقدم له

سيفه لم يشأ أن يأخذه منه احتراما له واثنى على بسالته

واستمرت المعركة بين هؤلاء البواسل وبين الانجليز نحو ٤٠ دقيقة ، وكان القتلى من المصريين نحو الفين ، اما الجرحى فلم يحص عددهم لفرارهم ، واما الانجليز فقد قتل منهم ٥٧ ، منهم ٩ ضباط ، وجرح ٢٠٤ ، منهم ٢٧ من الضباط .

واما غنائم الانجليز فكانت مدافع الجيش المصرى ومهماته وذخائره ومؤونته جميعها ...

واما عرابي فكان يؤدي صلاة الفجر فانتبه على صوت المدافع وكانت خيمته على نحو الف متر من المعركة ، وأرسل اليه على الروبى لينتقل الى موضع آخر حيث ان الانجليز أوشكوا أن يحيطوا بالجيش ...

وأدى عرابى الصلاة ولبس ملابسه العسكرية وركب جواده واتجه الى حيث كان يوجد نحو الفين من الرجال على مقربة من خيمته فدعاهم ليذهبوا معه صوب المعركة ولكن كان اكثرهم من الاحتياطى فولوا الادبار خائفين ، فاتجه صوب المعركة الى حيث كان يقف محمد عبيد ، فرأى الفارين قادمين فى ذعر ، وعبثا حاول أن يحملهم على الوقوف ، وكانوا يلقون أسلحتهم وما منهم الا من يجرى على ساقى نعامة !

واقترب الانجليز حتى صاروا على نحو ٦٠٠ متر من خيمته وأطلقوا عليها قذيفة اقتلعتها واطاحت بها فى الهواء ، وألح على عرابي خادمه محمد سيد أحمد (١) أن ينجو بنفسه اذ لا فائدة بعد ذلك من القتال ولوى عنان فرسه بالقوة وما زال يتوسل اليه حتى أطاعه .

ويذكر جون نينيه فى كتابه أن الذى حمل عرابى على طلب النجاة هو طبيبه لا خادمه قال : « ونجا كل الخونة لانهم

---

(١) S. H. B. p. 422

دبروا فرارهم قبل خوض غمار المعركة الصورية المزيفة ليعلنها الانجليز نصرا مؤزرا ، وهم يعلمون أنها كانت تكون لهم هزيمة منكرة لو لم يلجأوا الى الخيانة والرشوة ... وكنت بجانب عرابى وبيدى بندقية ، ولما أوشك الانجليز أن يطبقوا على عرابى رجوته فى الثبات فاستعد للموت والاستشهاد ، ولكن طبيبه الدكتور مصطفى بك نصح له بالفرار على صهوة جواده » (١)

وفى قول جون نينيه أبلغ رد على الذين يقولون ان عرابى ما كاد يعلم نبأ ما حدث فى المعركة حتى ركب جواده ولاذ بالفرار ...

أما بعض من لا تمتلىء قلوبهم سخيمة على عرابى ، فيقولون انه كان خيرا له لو أنه استشهد فى معركة التل الكبير ، ونحن نميل الى رأيهم هذا فلو أنه قتل فى المعركة لتخلص من السجن ومن النفى الى سيلان ومما تقول عليه المبطلون من الفرار والجبن وما اليهما ، كما كان خيرا لنابليون لو أنه قتل فى وترلو ولم يذهب الى سانت هيلين ...

ولكنا نعجب أشد العجب من جراة الذين يجترئون على الحق بقولهم انه فر من خوف ويأس ، فان من الحقائق الثابتة بالادلة كما سنبين ذلك فى موضعه أنه عجل بالذهاب الى القاهرة ليدافع عنها قبل فوات الوقت وقبل أن تؤثر فى نفوس أعضاء المجلس العرفى انباء الهزيمه

وأدعى من هذه الجراة الى العجب انكار الذين ينكرون عليه محاولته الدفاع عن القاهرة ، وأن هؤلاء لمن الذين يكتبون التاريخ كما تشاء أهواؤهم لا كما حدثت حوادثه ، وذلك لأنهم يريدون بالكتابة غرضا فى أنفسهم .

---

(١) العبارة من تعريب الاستاذ محمد لطفى جمعة .

يقول عرابى عن معركة التل الكبير ما يأتى : «وطلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيـــادة جيش رأس الوادى فحضر فى عصر يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ - ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه توا الى المقدمة فأمر بانتقال الآى على بك يوسف (خنفس) وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الايسر الذى كان مائلا الى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى العسكر من هجوم العدو ، ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة الى الجهة الشرقية ، وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل ، فعمل عبدالقادر بك عبدالصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الايسر ، وأما على بك يوسف فانه جمع عساكر الآيه فى هيئة القول ، ولم يجر عمل شىء يقيهم قاذفات العدو اذا هجم على الجيش ، وتقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى الى الامام على بعد ألفى متر ليمنعوا تقدم العدو اذا أراد الهجوم على معسكرنا ، ولكن وامصيبتاه خاب الامل فيهما ، وفى يوم ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ - ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت فى صلاة الفجر ، اذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة ، فخرجت ونظرت فوجدت ضرب النار على طول خط الاستحكام ، ورأيت بطـــارية طوبجية سوارى على مرتفع من الارض تبعد عن الخيمة التى كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر صبت مقذوفاتها على مركزنا العمومى ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك الا الاهالى المتطوعون مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيـــه الشيخ احمد عبد الجواد ، وجابر بك من بندر ببا بمديرية بنى سويف ، وكانوا نحو ألفى نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك

البطارية فامتنعوا ، وذهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، ولم يجد ذلك نفعا ، بل تفرقوا فرارا ، فجاء ضابط من طرف على باشا الروبى القومندان الجديد يخبرنى باتخاذ مركز آخر ، ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحما بالخيل والجمال والعساكر ، مشتتين ومولين ظهورهم للعدو ، فذهبت الى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر عن الفرار ، وصرت اناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، واذكرهم بالشرف الاسلامى والعرض والوطن ، فما كان من سميع ولا بصير ، فالقوا بأنفسهم

فى الترعة وسبحوا الى البر الغربى ، فذهبت الى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى القاهرة ، وكان معى أخى السيد صالح عرابي وخادمى محمد ابراهيم وجاويش بروجى يدعى عطية محمد ، فقط ، وكانت قاذفات الطوبجية السوارى تتساقط علينا من كل جهة حتى تركنا حدود التل الكبير ، فلما وصلت الى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها ، فسألته عما دهاهم ؟ فلم يزد على قوله انه خذلان ، وكان على اثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا ، فأرخينا للخيل العنان حتى وصلنا الى محطة انشاص ، فوجدنا هناك قطارا فركبناه وذهبنا الى القاهرة لاتخاذ

الوسائل اللازمة لحفظها من الاعداء قبل وصولهم اليها ، واسباب هذا الخذلان هو انه فى خلال تلك الايام كانت الرسائل تبعث من قبل الخديو الى كبراء الضباط بالوعد والوعيد معلنة لهم أن الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بأمر من السلطان خدمة للخديو وتأييداً لسلطته وكانت توزع تلك الرسائل بواسطة محمد باشا أبى سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه الذين هم مع

الانجليز ، فى الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، واثروا على قلوب على بك يوسف قومندان الآلاى الثالث ، وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه ، وعبد الرحمن بك حسن حكمدارآلاى السوارى الثانى وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية ، واستمر ذلك الى ان كانت ليلة الاربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فأشاع على بك يوسف أنه علم من الجواسيس أن الانجليز لايخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم ، ولذلك لم يفعل ما أمر به على باشا الروبى من عمل خط استحكام من التراب ؛ وجمع عساكره فى نقطة واحدة فى شكل قول وكانت العساكر الانجليزية قد سارت من أول الليل وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين انحازوا الى الخديو بطرف الانجليز ، وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق واستمروا سائرين الى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل ، وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تناوش العدو القتال وتوقف سيره رجعت أمامه كأنها تقوده الى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكره فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم ، وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والامام ، وأوقعوا بالجند على حين كان راقدا ، فدهشت العساكر وتولاها الذهول ، حيث رأوا ضرب النار عليهم ومن خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لانفسهم الا آلاى المشاة الاول حكمدارية أحمد بك فرج وآلاى محمد بك عبيد وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد فانهم ثبتوا فى مراكزهم

وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية ، فاستشـــهد منهم من استشهد وجرح من جرح ، وصار الميدان ظلاما من دخان البارود ، واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة في تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديد التى بها الذخيرة الحربية وما جاورها من عربات المئونة من قاذفات الطوبجية السوارى التى عمدت الى ضرب المركز العمومى .. وهكذا تم اســـتيلاء الانجليز على مركز التل الكبير ومهماته وذخائره ، وبه كانت نهاية الحرب والخسارة عظيمة بسمى الخديو ومن انحاز اليه من المصريين الذين نشأوا تحت ضغط الاســـتبداد ، واستمرأوا عيش الاستعباد ، وبمساعدة المنـــافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقيـــة الذين كافأهم الخديو ، خصوصا الشيخ احمد ابوسلطان واخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية ، فان الخديو اقطعهم خمسة آلاف فدان فى رأس الوادى مكافاة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فيه » ..

وقال فى حديثه الذى أفضى به الى صديقه بلنت بعد عودته من المنفى : « أديت الصلاة واسرعت بجوادى الى حيث كان يوجد الاحتياطى ، وناديتهم ليذهبوا معى ، ولكنهم كانوا جمـــاعة من الفـــلاحين فحسب ، وكانت القذائف تتساقط بينهم فولوا هاربين ، فاتجهت وحدى بجوادى الى الامام ولم يكن معى الا خادمى محمد ، فحينما رآنى وحيدا وأدرك أنى ذاهب الى الموت المحقق أمسك بجوادى وتوسل الى أن أرجع ، ولما رأيت أننـــا خسرنا المعركة وان الجميع كانوا يفرون ، رجعت ومعى محمد ، وعبرنا الوادى عند التل الكبير وسرنا فى محاذاة ترعة الاسماعيلية حتى بلغنا بلبيس ، وهناك كونت معسكرا جديدا ورأيت على الروبى قد سبقنى الى هناك فاتفقنا

على الوقوف فى بلبيس ، ولكن ما أن وصل فرسان دوروى لو ، حتى هم الجميع بالفرار ولم يرض أحد أن يقف فتركنا كل شيء وركبنا قطارا الى القاهرة » .

***

من مهازل السياسة حقا أن تركيا كانت حتى ذلك اليوم ، يوم التل الكبير لاتزال تفاوض انجلترا فى شروط ارسال جيش عثمانى الى مصر، وكان السلطان فى نفس هذا اليوم قد دعا اليه دوفرين فى قصره فمكث عنده ١١ ساعة فى أخذ ورد ..

ولما بلغت أوربا هزيمة التل الكبير كانت فرنسا أول من اشار على انجلترا بانه لم تعد ثمة حاجة الى ذلك المؤتمر الثنائى المزمع عقده ، وكانت فرنسا لا تميل الى وجود جند عثمانيين بمصر وذلك جريا وراء ميلها من أول الامر ...

وافضى الخديو الى مالت « انه ان كان ثمة شيء من شانه أن يزيد قيمة النصر ، فذلك أنه قد قضى على كل حجة للتوقيع على مؤتمر مع تركيا ، وانه لينظر الى الماضى والحزن ملء نفسه اذ يفكر فيما كان عسى أن يحيق بمصر من خطر لو ان السلطان استطاع بجنوده أن يتدخل فى شئون مصر » (١)

لذلك أبرق جرانفل عصر ذلك اليوم المشئوم الى دوفرين يقول : « ان حكومة جلالة الملكة ترى وقد قضي الامر أن صاحب الجلالة السلطان لم يعد يجد هناك حاجة لارسال جند الى مصر » . وانقطعت بذلك المفاوضة بين الدولتين وأسدل الستار هنا كذلك على مهزلة من أسخف مهازل السياسة

وبادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن الى مقابلة

(١) M.E. Cromer p. 248

جرانفل وهناه باسم الحكومة الفرنسيةعلى هذا الانتصار ولم تدر فرنسا أن هذا الانتصار هو خيبة كبرى لسياستها فى مصر ، أو لعلها كانت تتبع مثل أساوب النعامة ، ورد جرانفل بقوله : « ان واقعة التل الكبير انما هى انتصار لاوربا فلو أن الجيش الانجليزى قد هزم فيها لكان ذلك كارثة على جميع الدول التى يقلقها التعصب الاسلامى »(١)

وهنأ مسيو دوكلرك رئيس وزراء فرنسا السفير الانجليزى بباريس قائلا : « ان انتصار الانجليز على العرب فى مصر أمر طيب النتائج لفرنسا فى كل من تونس والجزائر » (٢)

والمسألة كلها من جهة فرنسا مسألة جشع استعمارى لا اقل ولا أكثر ، والحق ان المرء قلما يقع على ما هو اقبح وأرذل من جشع فرنسا فى الاستعمار ، تلك الدولة التى تزعم انها موطن الحرية وبلد الديموقراطية ، الا انها أوهام انخدع بها الشرق زمنا فسهل التهامه ثم اخذ يتعلم المدنية والحرية على أيدى آكليه ! عقب روثستين فى كتابه المسألة المصرية على انتصار انجلترا بقوله : « وهكذا صدقت الاحلام ، اننا اذا جرينا على رأى أنصار الاحتلال قلنا ان مصر انما صارت الى الانجليز مصادفة واتفاقا ، ولكن الذين يكونون قد قرأوا هذه القصة بشىء من التنبه والالتفات يقولون معنا ان السياسة البريطانية والجمهور البريطانى لم يهملوا قط الانتفاع بكل حادث من شأنه تسليم مصر الى انجلترا ، وأنهم كانوا اذا ما أعوزتهم الحوادث خلقوها بالكيد والاحتيال ، وان انجلترا فى جميع علاقاتها بمصر لم تخفف عنها الوطأة لحظة واحدة ، بل كانت على العكس تجتهد فى شد الوطأة

(١) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ ــ ٨٢ وثيقة رقم ٦٤
(٢) الكتاب الازرق رقم ١٨ وثيقة رقم ١٣٣

عليها ما استطاعت وفى احلال نفسها محل فرنسا التى كانت تنافسها وتباريها ، وانه لم يكن من سبب لجميع عدائها لاسماعيل باشا ، ثم لعرابى من بعده غير خوفها بحق ان مصر اذا كانت دستورية سهل عليها الافلات من قبضتها ، وانها لم يمنعها أن تغلظ على مصر ويضطرها الى استعانة الباب العالى غير ظنها ان كل محاولة منها لضم مصر توقعها فى حرب مع أوربا ، أو على الاقل فى مشاكل لا يستهان بها وانها عندما رات ان هذه المخاوف لا أساس لها اغتبطت بتلك المفاجأة اللذيذة ، ولا يفوتنا أن نذكر انها هى نفسها الى هذا كله كانت عاملا فعالا فى الامر ، فقد سعت الى تالك « المفاجأة » عندما برزت الى حومة الوغى وتحدت بضربها الاسكندرية دون أوربا كلها » (١)

(١) العبارة من تعريب الاستاذين العبادى وبدران .

# أودت الخيانة بعرابي

« الولس كسر عرابى » ... هذه هى الكلمة الجديدة التي حلت فى أفواه المصريين وا أسفاه محل الكلمة السالفة «الله ينصرك ياعرابى» ولايزال الناس فى القرى حتى يومنا هذا كلما استفظع أحد الغش أو الخيانة وأراد أن يعبر عن سوء عاقبتهما قال فى جد وألم : « الولس كسر عرابى » ...

وها نحن أولاء نرى بعد معركتى القصاصين الثانية والتل الكبير مبلغ ما فى هذه العبارة من صدق

ولسنا نريد بذلك أن الخيانة وحدها هى التى أدت الى الهزيمة فقد كان للهزيمة عاملان آخران على قدر كبير من الاهمية الا وهما اهمال الميدان الشرقى وانضمام الخديو الى الانجليز من أول الامر ، وانما نريد أن نقول ان العامل الجوهرى فى الهزيمة كان الخيانة ، بمعنى أنه لو لم ينكب بها الجيش لكان من المرجح نجاحه فى رد الغزو عن البلاد ، وبعبارة أخرى لو فرضنا أن المصريين كانوا حصنوا حدودهم الشرقية كما حصنوا خطوط كفر الدوار ، وردموا القناة ، ثم وقعت الخيانة على الصورة الشنيعة التى ذكرناها لانحلت العزائم ووقعت الهزيمة ولو بعد حين .. اذ أنه ليس من الضرورى أن تفعل الخيانة فعلها أثناء القتال فحسب ، فمن الميسور احداث فتنة داخلية أثناء الحصار تؤدى الى انهيار الدفاع كله ، وكنا نرى الهرب والخوف وقطع المدد عن الجيش فى

الخطوط وما الى ذلك من عوامل الفشل. وما كان سلطان ومن معه يغفلون عن هـذه الناحيـة التى بدأوا بعض خطواتهم الأثيمة نحوها فعلا، والتى أغناهم عنها ماحدث فى صفوف الجيش ...

ولقد رأينا مبلغ اهتمام الانجليز والخديو بهذا السلاح فجاءت الخيانة على عدة صور فقبائل البدو فى الصحراء قد أفسدها بالمر ، وجل ، وسلطان ، وبعض ضباط الجيش أصبحوا فى جانب العدو الى درجة لم يعرف لها نظير فى تاريخ الحروب والسلطان نفسه يعلن عصيان عرابى فى الساعة الفاصلة ، وليت شعرى ماذا كان يصنع بونابرت نفسه لو أنه أحيط بما أحيط به عرابى ؟

وثمة صورة أخرى من صور الخيانة أحاطت بعرابى، ألا وهى حقد بعض رجاله عليه اذ رأوه وقد كان دونهم يغدو رجل الامة ومناط رجائها ، ولعل ذلك هو ما أحفظ سلطان عليه وجعله يسعى سعيه ضده ...

ولكن خطر هذا الحقد كان فى صفوف الجيش وقد أشار بلنت الى ذلك فى قوله : « ولو أن طبقات الجيش الدنيا قد اتبعت عرابى فى ولاء وحماسـة شديدين ، الا أنه أثار حقدا ليس بالقليل بين رجال طبقته العليـا من الضباط وذلك لانهم كانوا يعدون انفسهم كجنـد أكفأ كثيرا منه » (١)

وذكر بلنت فى موضع آخر فيما أورده فى يومياته سنة ١٨٨٤ ، أن الامير كامل (٢) قال له : « أن عرابى قد خانه كل من كانوا حوله ، وقد خانه بعضهم ابتغاء الحصول على الذهب ، وبعضهم بدافع الحقد ، وقد كان محمود سامى يحقد على عرابى ولذلك أفسد معركة

---

(1) S. H. B. p. 431

(٢) الامير كامل باشا فاضل ابن الامير مصطفى فاضل

القصاصين الثانية فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ولكنه لم يصل فى الموعد الذى اتفق مع على فهمى عليه »

ولقد شك بلنت فى يعقوب سامى نفسه رئيس المجلس العرفى وقال عنه انه تأثر كذلك بمسعى الخديو آخر الامر ولو أن الخديو نفاه مع من نفوا الى سيلان : « وان الاوراق لناطقة بالادلة القوية على حقده على عرابى ، ومن الممكن أنه بعد أن عجز على فهمى بسبب اصابته ، أن يكون قد بذل أقصى ما فى وسعه ليضع عرابى فى عزلة كي يعجل انهياره فى التل الكبير ، فانه بدلا من أن تعطى القيادة لعبد العال اعطيت لرجل موال ولكنه غير كفء لها وذلك هو على باشا الروبى »

ومن السهل على المرء ان يرى الهزيمة ماثلة فى جيش هذا حاله ، وأن يدرك استحالة النصر على قائد تحيط به مثل هذه المهلكات التى تكفى واحدة منها للقضاء عليه

نقول من السهل أن يدرك المرء ذلك حتى ولو لم يعلم ما حدث من خيانة سافرة غادرة أثناء القتال ، وحسب المرء أن يذكر من هذا ارسال الخطة الى العدو فى معركة القصاصين الثانية على يد على يوسف خنفس ، وقد زاد الامير كامل على ذلك فيما تحدث به الى بلنت فى ذلك الذى اثبته فى تلك اليوميات المشار اليها « أنه حدث أثناء هذه المعركة أن كان نحو ١٨ ألفا من المصريين على مقربة من نحو ٢٥٠٠ من الانجليز فيهم دوق كنوت ، ولو أن على يوسف الذى كان يقود القلب تقدم لسحق الانجليز وأسر الدوق ، ولكنه تأخر برجاله وترك العدو يحيط بالجناحين »

ولقد رأينا كيف كانت خطة هذه المعركة محكمة الوضع ورأينا كيف اثنى عليها أحد قواد الانجليز أنفسهم قائلا انه كان يمكن بها أن يتحقق للمصريين النصر ...

ولولا خيانة على يوسف وتأخر البارودى بسبب خيانة

الطحاوى لكان من اقرب الظنون الى اليقين أن يولد فى القصاصين عصر جديد فى تاريخ مصر

قال الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « الثورة العرابية» عن الجنرال ولسلى : « لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاءة العالية فى القيادة ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية، بل كل ما عرف عنه انه اشترك من قبل فى حرب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الانجليزية ، وكان لم يزل برتبة قائمقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه ألقاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد «فيكونت» ولسلى أوف كايرو، ورتبة جنرال وغير ذلك من علامات التقدير ، على أنه تولى فيما بعد سنة ١٨٨٢ قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ، فانتهت باخفاقها ومقتل غوردن باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الانجليزى فى حرب البوير بالترنسفال فباء بالهزيمة والخسران ، وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت بالجيش الانجليزى ، فعزلته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس من هذا يتضح لك أن قيادة الجيش الانجليزى وذات الجيش الانجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها ، لولا الانقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها »

والواقع أن مايخرج به المرء من انباء معركة القصاصين الثانية ، هو شعوره بأن المصريين لم يكن بينهم وبين النصر على الانجليز الا خطوة فكيف لو لم تقع الخيانة ؟

أما فى التل الكبير فكان مثل المصريين كمثل قوم ناموا فى دارهم ووضعوا على بابهم حارسا يوقظهم أن قرب

منها عدو ، ولكن الحارس سار مع العدو جنبا الى جنب حتى وقف به على رؤوس النائمين وقال له : اضرب من تشاء فى غير خوف ...

لقد أحيط بجيش نابليون فى وترلو ولم يكن ذلك على حين غفلة كما أحيط بجيش عرابى فى التل الكبير، ففر الفرنسيون البواسل ، وطلب نابليون الموت ففاته حتى الموت ففر نابغة الحروب ونادرة العصور مع الفارين عسى أن يملك الدفاع عن باريس ... وكذلك الحال فى كل جيش يحاط به فاما الفرار أو التسليم أو الموت ...

ولعل معركة التل الكبير التى كانت فى الحقيقة مذبحة هى أروع مثل فى تاريخ الحروب للخيانة كيف تودى بجيش من الجيوش وماذا بعد أن يؤخذ القوم وهم نائمون؟

هكذا كسبت انجلترا المعركة بالذهب ، وليته كان ذهبا خالصا ، فقد كان رصاصا يغطيه الذهب كما ذكر الامير كامل للمستر بلنت ، وقد ظهر فى القاهرة بعد الحرب فأسرعت الحكومة الى شرائه من السوق وكان الجنيه يباع بخمسة فرنكات أو عشر وقد كسر الامير بعض هذه القطع ورأى ما فيها من رصاص فكأنما تأبى انجلترا الا أن تخون حتى فى أداة الخيانة !

تبقى بعد ذلك مسألة يوردها خصوم عرابى ساخرين منه بها جاعلين منها سببا من اكبر أسباب هزيمته وذلك لكى يقللوا من شأن الخيانة او لكى يصرفوا عنها النظر ويحصروها فيما زعموه من أخطاء عرابى الا وهى أنه سهر طول ليلة المعركة فى حلقة ذكر مع جيشه وفى قراءة الادعية مع رجال الطرق الصوفية ، فلم ينم العساكر وبذلك لم يستطيعوا الحرب فى الصباح

ولسنا ندرى أبلغ الاستخفاف بعقول الناس هذا الحد فجعل هؤلاء الخراصين ينتظرون أن يجوز كلامهم هذا

على الناس ، أم انهم كانوا هم البلهاء فصدقوا مايذيعونه فى الناس ...

وبعد فليتهم صـدقوا ! وليت العساكر قد قاموا الليل يذكرون الله اذن لما استطاع العدو أن يدهمهم وهم نيام ، وكيف يجتمع مثل هذا العدد فى حلقة ذكر مع قائد الجيش وقد كان بين خيمته وبين خطوط الدفاع الاولى نحو اربعة آلاف متر ؟

واذا صح أن عرابى قد استدعى عددا من رجال الطرق الصوفية أو أنهم هم الذين قدموا عليه ، فأرسلهم الى الفرق فى مراكزها يستحثونهم ويستنهضونهم ويثيرون حماستهم فى الله والوطن وهذا ما نعتقد أنه هو ماحدث ، فما عيب هذا ؟ وأى عيب فى أن يقرأ عرابى القرآن فى خيمته ويدعو الله مع نفر من رجال الدين ؟ هل جعل ذلك كل عدته للجهاد فدعا الله أن يمده بالملائكة مسومين ليضربوا له العدو ثم نام ؟ الا خسىء الخراصون الافاكون

وأى فرق فى جوهر الامرين بين أن ينشد رجال الدين بين الفرق اناشيدهم الدينية يقصدون استنهاض هممهم واثارة حماستهم ، وبين الاناشيد التى يهتف بها الجند فى كافة الجيوش الحديثة ؟ وما الغرض من الموسيقى الحربية والخطب والنشرات ؟ أليست كلها وسائل تبعث الروح المعنوية فى الجند وتهز عواطفهم النبيلة للفداء والنضال ؟ واذا لجأ عرابى الى الوسائل التى كانت تتفق مع البيئة ومع العصر الذى كان يعيش فيه وهى لاتخرج فى جوهرها وفى الغرض منها عن وسائل الجيوش الحديثة فكيف يعد ذلك مما يسخر به منه ولا يعد مما يسجل له الالتفات الى كل معنى يراد به بث الحمية فى قلوب الجند ؟

ان مرد المسألة كما قلنا الى الرغبة فى صرف الانظار

من الخيانة والى الرغبة فى قلب محاسن عرابى كلها مساوىء بطريقة مدبرة محكمة جاز أكثر مفترياتها زمنا على البسطاء

ومن احسن ما يذكر فى هذا الصدد أن هذه الحملة الانجليزية بالذات قد أقيمت لها الصلوات عند خروجها من انجلترا وباركها كبير الاساقفة مع عدد من رجال الدين ، وقد أورد ذلك هربرت سبنسر فى كتابه «أصول علم الاجتماع » أثناء كلامه على الدين وأثره فى حياة المجتمعات ، ومن أجمل ما علق به على ذلك قوله : « ان هذه الحملة كانت موجهة الى قوم يحاربون فى سبيل الحرية والاستقلال »

الا انها الخيانة الغادرة السافرة هى التى أودت بعرابى ، وكانت كفيلة بأن تودى بأى قائد غيره فى مكانه، وفى التاريخ شواهد كثيرة على أثر الخيانة فى انهيار الجيوش ولعلنا لم ننس الامس القريب حين كان الجنرال ويفل فى صحرائنا الغربية يجمع بقلته المتهيبة جموع الطليان جمعا فيأسرهم بلا قتال لانهم كانوا فريقين : أحدهما فى صف الملك والثانى فى صف الزعيم ، كما كان المصريون فريقين : أحدهما فى صف الخديو ، والثانى فى صف عرابى .

والخيانة مسألة تكمن فى النفوس ، ولن يستطيع أن يعرف الخونة ليردهم من وجهتهم الآثمة قائد ، وما لم يكن لهم وازع من ضمائرهم فان خطرهم فى الساعة الفاصلة شديد ، وعلى ذلك فلن يلام عرابى على وجود الخيانة فى جيشه وقد رأينا كيف تمكن اثنان أو ثلاثة من هؤلاء المنافقين من القضاء على ذلك الجيش وهم يظهرون له الولاء والفداء ، وما حيلته أو حيلة غيره فى نفوس تشترى بالمال كما يشترى الرقيق ؟

# بعد وترلو

ما أشبه حال عرابى بعد التل الكبير بحال نابليون بعد وترلو ، كلاهما هرول الى عاصمة بلاده بعد أن حلت الهزيمة بجيشه على غير انتظار ، وكلاهما دعا قومه الى مواصلة الجهاد ولكنهم خذلوه ، وخلعوا طاعته فى غير خوف وقد زال عنه سلطانه بزوال النصر او على الاصح بحلول الهزيمة ، وهما موقفان تتمثل فى كل منهما مأساة من مآسى التاريخ سوف تبقيان فى فرنسا وفى مصر بقاء الزمن ...

مضى عرابى الى القاهرة فبلغها قبل الظهر وبصحبته على الروبى وقصد من فوره الى قصر النيـــل ، وكان المجلس العرفى منعقدا منذ الصباح ينتظر أنباء من التل الكبير ، ولكنه لم يتلق شيئا فساور الاعضـاء كثير من القلق، وكان يعقوب باشا قد تلقى وهو فى مكتب التلغراف كثيرا من الانباء ولكنه لم يفض بشىء منها الى أحد حتى فاجأ الحاضرين بقوله : أن عرابى باشا قادم بعد حين الى القاهرة ، فوجمت الوجوه وعرف الاعضاء ما حدث وان لم يزد يعقوب باشا شيئا على هذه الـكلمة .

وبلغ عرابى مقر المجلس العرفى فتلقاه الاعضاء واجمين، وكان الاسف الشديد باديا على محياه ، ولبث لحظة لا يدرى ماذ يقول ؟ ثم أظهر المجلس على كل شىء وشكا

كثيرا من الخيانة ومن تفرق كلمة الجند وفرارهم لايلوون على شيء وهو يدعوهم فلا يستجيبون له ...

وانضم الى المجلس العرفى بعض الامراء والكبراء ، وتشاوروا فيما يعملون ؟ أيسلمون القاهرة للانجليز ام يدافعون عنها ؟ ..

وكان عرابى يستحثهم على الدفاع ذاكرا لهم أنه من الوجهة الحربية لم يزل الامل قويا فهناك حامية القاهره فى القلعة بمدفعيتها ، وهناك حامية دمياط بقيادة عبد العال ، وفى امكانها التحرك أثناء الدفاع عن القاهرة لرفع الحصار عنها وكذلك هناك حامية كفرالدوار وفى استطاعة طلبه أن يرسل المدد المطلوب ، فبالثبات والصبر يمكن معالجة الأمر، فليس طريق الانجليز سهلا كما ظن البعض

ونهض الامير ابراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو وأهاب بالحاضرين أن يثبتوا وأن يقاوموا وقال : « ان مصر غاصة بالجند والمخازن مليئة بالمؤن والذخائر ، والاسلحة ومعدات الدفاع متوفرة فالواجب علينا اذن الدفاع مادام فينا بقية... فأجاب الجميع بالموافقة»(١)

واخذ شبح اليأس يبتعد عن عرابى ونهض من فوره ليعد العدة للدفاع ، وكان قد ترك فى بلبيس عددا من التلغرافات فى مكتب التلغراف يستنهض بها البلاد لترسل المدد لمقاومة زحف الانجليز ، ومضى عرابى الى العباسية ومعه بعض الفنيين لانشاء خط استحكامات هناك للدفاع عن القاهرة ...

وفى هذا الذى فعله عرابى ما يثبت الكذب الوضيع على الذين عابوا عليه فراره من التل الكبير قائلين انه فعل ذلك لينجو بنفسه لا ليستأنف الجهاد الذى كان ممكنا لو أنه أراده ، ومما يملأ النفس أسى وألما أن يعمد

---

(١) مذكرات عرابى المخطوطة ص ١٨٧ ج ٢ .

هؤلاء الى انكار الحقائق وهم يعلمونها ، وأمرهم فى ذلك عجيب ، فاننـا نفهم أن يخطىء المـرء فهم حقيقة أو أن يؤولها بدافع الغرض والهوى تأويلا يساير هواه ، ولكننا لا نفهم كيف يعمد انسان الى قلب الوضع قلبا تاما فيقول فى موقف كهذا شهدت به أكثر المصادر ان عرابى هرب لا ليقاوم ولا ليدافع عن القاهرة ولكن لينجو بنفسه فحسب ! ..

ولم يكن الاستيلاء على القاهرة بالامر الهين لو وجدت من يدافع عنها ، قال المسـيو بيوفيس : « ولم يكن الجنرال درورى لويسير فى زحفه فى طريق آمنة اذ لم يكن معه سوى عدة مئات من الجند ، وكان أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية قوية كبيرة العدد ترابط فى العباسية والقلعة وفى المعاقل التى بنيت أخيرا فوق جبل المقطم ، وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التى سببت المتاعب والخسائر الكبيرة لنابليون وكليبر خلال الحملة الفرنسية ، ولكن جبن الرؤساء العرابيين قـد أخرجه من المـازق » (١) ...

قال عرابى : « تم استقر الرأى على انشاء خط دفاعى فى ضواحى المحروسة ، وبناء على ذلك ذهبت الى العباسية ومعى محمود باشا المرعشلى باشمهندس الاستحكامات ومحمود باشا رضا لواء الخيالة وحسن باشا مظهر لواء مأمور تشهيل ارسال الذخائر الحربية الى مركز الجيش وتقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس يستند يمينه على الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل عند فم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا ... ثم ذهبنا جميعا الى مركز الطوبجية وأردنا استعراض العساكر

(١) الرافعى ص ٤٦٠ عن بيوفيس ـ الفرنسـيون والانجليز فى مصر ص ٢٩١ .

الموجودة هناك فلم نجد الا نحو ألف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو ٤٠ نفرا من السوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الاميرالاى أحمد بك نير ، فقال الاميرالاى المذكور أنه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الاربعين حتى يموت معهم » ...

أين الجند وأين الضباط ؟ هنا أدرك عرابى مرة ثانية ما فعلته الخيانة وما فعله قرار السلطان باعلان عصيانه فقد انحلت العزائم وهرب الرجال وأصبح هم كل امرىء الدفاع عن نفسه ، وعاد اليأس فأحاط بعرابى من كل ناحية ووقف وحده لا يجد من يمد يد المعونة اليه ... والانجليز زاحفون على القاهرة فى غير ابطاء ، ولندع عرابى يقص علينا نبأ هذه المحنة ، قال : « فلما شاهدنا كل ذلك ورأينا أن الاولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حدث فى الاسكندرية مادامت المقاومة لا تجدى نفعا ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الامة المصرية السيئة الحظ ، فرجعنا الى المجلس سالف الذكر وبلغناه بما عن لنا ، ثم قلنا حيث ان الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ففى امكانه ايقاف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ويصنع بنا بعد ذلك ما هو أهله ...

فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة باسمنا الى الخديو نعترف فيها بوقف الحرب ونلتمس منه الوساطة لدى الانجليز بعدم دخولهم القاهرة حفظا عليها من الخراب بعد تقديم الطاعة له والخضوع ، فحرروا العريضة وأرسلوها اليه بعد أن ذيلتها بامضائى مع بطرس باشا غالى ورؤوف باشا وعلى باشا الروبى ويعقوب باشا سامى رئيس المجلس العسكرى فى قطار خاص ، وكان ذلك فى يوم الخميس الموافق غرة ذى القعدة

سنة ١٢٩٩ ، ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فلم يجدهم ذلك نفعا فان مساعيهم أخفقت وآمالهم خابت بأن أبى الخديو قبول العريضة واجابة الالتماس وأمر بالقاء يعقوب باشا سامى وعلى باشا الروبى فى السجن فسجنا فى الاسكندرية»

ودخل الانجليز بلبيس والزقازيق فى نفس اليوم الذى وقعت فيه معركة التل الكبير ، وفى اليوم التالى ١٤ سبتمبر بلغ الجنود الانجليز العباسية فى نحو الساعة ٤ مساء .. وتلقى عرابى نبأ ذلك فى الساعة ٦ وكان فى منزل على باشا فهمى ولم يكن على باشا قد شفى من جرحه بعد ، فأرسل عرابى الى قائد ثكنات العباسية يأمره بالتسليم ...

ونصح جون نينيه وكان فى منزل على باشا فهمى ، لعرابى ولطلبه عصمت وكان هذا قد جاء الى القاهرة ، ولمحمود سامى بتسليم انفسهم أسرى حرب للجيش البريطانى خوفا عليهم مما يحل بهم على يد توفيق ، واستصوب رأيه عرابى وطلبه ورفضه البارودى قائلا : « انى ذاهب الى منزلى فان أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى » ...

وذهب عرابى الى منزله وارتدى ملابسه العسكرية ، وتقلد سيفه وتأهب ومعه طلبه للتسليم ، قال يصف ذلك : « وفى عصر يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ورد تلغراف من الجنرال لو ، خيالة الانجليز بالعباسية الى ابراهيم بك فوزى مأمور ضبطية القاهرة بأنه يريد مقابلتى بالعباسية ومقابلة طلبه عصمت باشا . فتوجهنا الى العباسية واجتمعنا بالجنرال المذكور ، فابتدرنا بقوله : هل تقبلون أن تكونوا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ فقلنا له : نعم ، نريد ذلك حقنا للدماء ، فلو أن عندنا من القوى الحربية ما يمكننا بها اطالة زمن القتال والدفاع

عن البلاد لما قبلنا ذلك ، ولـكنا قاتلنا حتى يقضى الله بيننا ، ولكن حيث علم لنا أن الانجليز لا مطمع لهم فى الاستيلاء على بلادنا وماكان مجيئهم الى مصر الا ليؤيدوا السلطة الخديوية ويسلموا البلاد الى الخديو ثم يعودوا الى بلادهم فنحن كففنا من القتال ورضينا بأن نسلم سيوفنا الى قائد الجيش الانجليزى واثقين بعدالة الامة الانجليزية أن تعاملنا كاسرى حرب ، وسلمنا سيوفنـا وقضينا تلك الليلة داخل غرفة من غرف قشلاق الطوبجية لا فراش فيها ولا غطاء وكان الجنرال فى غرفة أخرى مثلها

وفى عصر يوم السبت قمنا من العباسية بكوكبة من خيالة الهنود وضابط انجليزى الى قشلاق عابدين فوجدناه محتلا بآلاى حرس ملكة الانجليز حكمدارية الميرالاى تين من منزل شريف فى أحرار الانجليز ، فقابلنـا الميرالاى المذكور وقال لنا أنتما أسيرا حرب عند جلالة ملـكة الانجليز فلا بأس عليكما ... واقمنا فى غرفة مقابلة للغرفة التى هو فيها وكان أميرا كريم السجايا يأتى الينا كل يوم ويعزينا على ما أصابنا ويعترف بظلم الانجليز لنا ، وأن الاستبداد لايزال كامنا فى قلوب الانجليز أكثر من كل الامم ... وبعد ذلك وصلت جيوش الانجليز الى القاهرة أفواجا أفواجا ، وكانت نسـاء رجـال حكام المصريين المستبدين يحيين عساكر الانجليز عند مرورهم فى الشوارع بلباسهم الاحمر وأسـلحتهم السـوداء على عواتقهم ، بالزغاريد تقربا اليهم وشكرا لهم على اطفاء شعلة الحرية المصرية » ...

وعصف الغضب برؤوس بعض المدنيين من سـكان القاهرة وثارت النخوة فى نفوسهم ولم تكن الرشوة قد فعلت بهم ما فعلته بالجيش فتجمعوا من باب الشعرية والحسينية وتهيأوا للثورة ، وكادت القاهرة ترى مارأته

أيام نابليون وكليبر ولكن محافظ المدينة بذل أقصى جهده للقضاء على الفتنة فى مهدها مبينا للثائرين أن عملهم لايجدى نفعا وليس وراءه الا سفك الدماء ...

وفى نفس اليوم ١٥ سبتمبر دخل الجنرال ولسلى القاهرة وكان يصحبه سلطان باشا نائبا عن الخديو ، ونزل ولسلى فى سراى عابدين وقد اعدت له بأمر الخديو

وكان الانجليز قد استولوا على القلعة من طريق الجبل فى اليوم الذى بلغوا فيه القاهرة وقد سلمهم مفاتيحها مغتبطا على خنفس منتظرا ما وعد به من الذهب قبل معركة التل الكبير ، ولكن الانجليز اداروا له ظهورهم ، فلم تعد بهم حاجة اليه ...

واحتل الانجليز قصر النيل ، كما احتلوا القلعة ، والعباسية ، وهكذا أخذوا القاهرة من اطرافها ، وصح حلمهم الذى ساورهم منذ عهد محمد على ...

وبعد فهذه قصة تسليم عرابى ، لا نرى فيها شيئا مما افتراه المفترون من مذلة وهوان ، فالقانون العسكرى يقضى بأن يسلم القائد المغلوب سيفه ، ولقد سلم عرابى سيفه للجنرال لو ، قائلا : انه يفعل ذلك على الرغم منه فلو أنه استطاع مواصلة القتال ما سلم ...

وماذا كان فى وسع عرابى غير هذا ، ولم يكن أمامه الا الفرار والهرب الى بلد آخر أو التسليم للجيش المنتصر ، ولو أنه هرب ثم قبض عليه وجىء به الى مصر ، أو لم يقبض عليه وظل طريدا شريدا أكان ذلك يعجب خصومه ؟

لست أفهم ماذا كان هؤلاء يريدون ؟ هل سلم سيفه والجيش من حوله يستطيع المقاومة والدفاع ؟ أم أنه فعل ذلك حين هرب الرجال فلم يجد حوله الا ٤٠ رجلا فى خطوط الاستحكامات ؟

غلب نابليون على أمره بعد ان وضع احدى قدميه فى

مدريد والاخرى فى موسكو ، فكتب الى الامير الوصى على عرش انجلترا يقول : « ياصاحب السمو الملكى ، رأيت أن أختم حياتى السياسية اذ رأيتنى معرضا للخلاف الذى يفرق بنى وطنى شيعا ، وللعداء الذى تناصبنى اياه دول أوربا الكبرى فجئت كثموسـكليز لالقى بنفسى فى جوار الشعب الانجليزى ، وانى أضع نفسى فى حماية قوانينه وأرجو من سموكم الملـكى أن تمنحونى هـذه الحماية حيث أنكم أقوى أعدائى واعظمهم مصابرة وكرما»(١)

وصـعد نابليون الى ظهر احدى السفن التى كانت تراقب الشاطىء فحيا ضابط هذه السفينة برفع قبعته الامر الذى لم يكن يفعله كثيرا من قبـل تلقـاء الملوك والقياصرة ، فهل يعاب على نابليون ويتهم بالجبن والمذلة من أجل كتابه ومن أجل تسليمه نفسه على هذه الصورة ؟

ولكن الذين كتبوا سيرة عرابى عقب الاحتلال من أعدائه لم يدعوا ناحية من هذه السيرة الا شوهوها لكى تبث فى أذهان الجيل القادم الصورة التى وضعها الاحتـلال لعرابى فجعله رجلا جاهلا طائشا لم يحارب من أجل مبدأ من المبادىء وانما كانت تحركه أطماعه الشخصية، وما زال يخبط فى حماقته وجهله حتى اضطر آخر الامر الى أن يسلم سيفه صاغرا الى قائد جيش الاحتـلال الانجليزى .

واما أن يكون عرابى ضحية مبادىء سامية حارب فى سبيلها حتى لم يبق فى قوسه منزع ، واما أن يكون أول فلاح فى مصر نادى بالحرية والدسـتور وأول زعيم وطنى وضع جهاد وطنه على أساس قومى فافتتح بذلك فصلا جديدا فى تاريخ هـذا الوطن ، فذلك ما لايطيق ان يسمعه الاحتلال أو يسـمح حتى أن يهمس به ...

---

(١) أميل لودفج : نابليون . ص ٥٣٧ .

# توفيق يدخل العاصمة

انتظر توفيق بضعة أيام ريثما تسلم بقية المعاقل كي يدخل القاهرة دخول الظافر ، ولسوف يدخلها فى حماية الانجليز كما دخل البربوني لويس الثامن عشر باريس فى حماية الحلفاء بعد هزيمة نابليون مما جعل الفرنسيين يقولون ان جلالته جاء بين الحقائب فى عربة البضاعة .

توقفت حاميات «أبو قير» و «مريوط» و «رشيد» بعض الوقت عن التسليم ، ولعل ذلك لانهم لم يصدقوا نبأ الهزيمة ، وتوقف عبد العال باشا عن تسليم دمياط مدة أسبوع ، ثم لم يجد بدا من التسليم فسلم وقبض عليه وأرسل الى القاهرة ، أما معاقل كفر الدوار فقد تركها الضباط والجند منذ ان رحل طلبه باشا الى العاصمة واستولى الانجليز عليها ونسفوا ما فيها من الحصون ...

وفى ٢٥ سبتمبر أى بعد ١٢ يوما من معركة التل الكبير سافر الخديو بقطاره الخاص من الاسكندرية الى القاهرة وفى معيته كبير وزرائه شريف باشا والوزراء الا رياض الذى كان فى القاهرة يعد العدة لاستقباله ...

زينت العاصمة بالاعلام على جانبى الشوارع وفى الشرفات والمنافذ ، ولكن الناس كانت ترتد أبصارهم خاسئة اذ يرون بين الرايات المصرية هنا وهناك راية جديدة ، هى راية الجيش المحتل ...

ولم ير المصريون وا أسفاه على جانبى الشوارع أولئك الجنود المصريين والسودانيين الذين ألفوا رؤيتهم فى مثل

هذه المناسبة فقد الفى الخديو الجيش المصرى بجرة قلم ، وانما رأوا نمطا عجيبـا من الجنـد حمر الوجوه طوال الأجسام يضعون فوق رؤوسهم القبعات ويبعث منظرهم الرهبة فى قلوب المصريين ، ويشعر المصريون حيـالهم بالاشمئزاز والكره الشديدين ولكنه شعور خفى مكبوت لا يجرؤ أن يظهره أحد .

وقد بلغ عدد هؤلاء الجنود الحمر المقبعين نحو ٥٠٠٠ اصطفوا من المحطة الى سراى الاسماعيلية ، ليمر من بين صفيهم الطويلين خديو مصر القادم الى مقر حكمه .

وبلغ القطار القـاهرة فى منتصف السـاعة العاشرة صباحا ، ونزل توفيق فتقدم لتحيته الامراء ثم ولسلى قائد جيش الاحتلال ودوق كنوت نجل الملكة فكتوريا ، وادوارد مالت المعتمد البريطانى ، ثم محمد سلطان باشا ورياض باشا وكبار المصريين من العلماء ورجال الدولة والاعيان ...

وتقدم الشيخ عبـد الهادى نجا الابيـارى بين يدى الخديو ودعا له بالتأييد والنصر وكان يرد الحاضرون دعاءه ...

وكانت المحطة مفروشـة بالبسط مزينـة بالرايات والرياحين ، وقد حشد فيها رياض ما أمكنه حشده من أعيان البلاد وهتف رياض باشا عند مرور الخديو من بينهم : « يعيش الجناب العالى مؤيدا بالنصر والاجلال » وردد الحاضرون هتافه ويعلم الله كم كان فيهم من انبعث هتافه من قلبه ، وكم كان فيهم من أيقن مع ما كان يرى حوله أن هذا نصر وان هذا اجلال ...

وكانت مدافع المحطة ترسل طلقاتها مئوية ، تكـريما للخديو الظافر ، وكانت تجاوبها مدافع القلعـة ، كما كانت الموسيقى تصدح بالسلام الخديوى ...

وجلس عن يسار الخديو فى مركبته دوق كنوت وجلس

امامه ولسلى ومالت واحاطت بهذه المركبة كوكبة من الفرسان الانجليز ، ومن خلفهم مركبات الامراء والوزراء ورجال الدولة ...

ونظر اهل القاهرة ساخطين الى فاتحة عهد الاحتلال، ولسوف يبقى هذا السخط كامنا فى نفوسهم الجريحة حتى يأذن الله ببعث من يثور على الاحتلال ...

وظن توفيق أنه استعاد سلطانه ولكنه لن يلبث حتى يجد نفسه مجردا من كل سلطان، وحسب أن له السيادة اليوم ولكنه لن يلبث حتى يرى أن هذه السيادة تتمثل فى مظاهر كاذبة ... فى حرس يحيط به ، وفى موسيقى تصدح أمام قصوره ، وفى ألقاب التمجيد تضاف الى اسمه ، أما فيما عدا ذلك فالسيادة للانجليز ، ولقد بدأ كبار المصريين يولون وجوههم قبل من أصبح لهم السلطان الحقيقى فى البلاد ...

ففى ٢٨ سبتمبر ذهب سلطان الى رياض ومعه وفد من عمد البلاد وأعيانها ، فابلغ الوزير أن هؤلاء الاعيان يريدون تقديم هدايا من السلاح الفاخر الى سيمور ، وولسلي ولو شكرا لهم « على انقاذ البلاد من غوائل الفتنة العاصية » ..

وأعدت الهدايا بعد سفر هؤلاء الثلاثة وارسلت اليهم فى انجلترا ، الى سيمور مخرب الاسكندرية ، وولسلى بطل مذبحة التل الكبير ، ولو ، أول من دخل القاهرة من الانجليز وآسر عرابى ...

وأرسل هؤلاء كتب الشكر لسلطان باشا ومن انضم اليه من الامعات وطلائع اعوان الاحتلال . قال عرابى فى مذكراته : « وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفد على نظارة الداخلية محمد سلطان باشا واحمد بك السيوفى وغيرهما من المخدوعين ، وأبلغوا رياض باشا بأنهم يعتزمون أن يقدموا نوعا من الاسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر

الثمينة هدية منهم للأدميرال سيمور قائد الدوننمة الانجليزية وللجنرال ولسلي قائد الجيش الانجليزي ، وللجنرال لو ، الذى كان أول قادم الى القاهرة بعد سقوط التل الكبير ، فاستحسن رياض باشا منهم تلك الاريحية ورخص لهم فى تقديم الاسلحة الفاخرة المذكورة للقواد المومأ اليهم ، وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن يؤلفوا لجاناً من كل جهة ينشئون فيها اكتتابا لجمع نقود كافية لانفاذ هذا الفرض ولكنهم فشلوا فى ذلك واكتفوا بشراء الهدية من مالهم الخاص فأعطوا الجنرال ولسلي سيفا مجوهرا ، وكذلك الجنرال لو ، سيفا ، وأما الاميرال سيمور فأهدوه طبنجة مجوهرة بالماس مكافاة لهم على احتقارهم للأمة المصرية واذلالها » ...

وفى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، اصطف الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين ، فى المكان نفسه حيث وقف عرابى قبل ذلك بعام ، وقفته المشهورة ومعه الجيش المصرى فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ .يسمع الخديو مطالب الامة ويعلن اليه مشيئتها ...

ولا تقع عينا توفيق الآن على جنود يتحدونه بل تقع على جنود يحيونه ويحييهم رافعا يده بالسلام العسكرى وكم أثلج فؤاده أن يرى هذه القوة التى ظن أنها تسند عرشه ، ولو أنه فكر قليلا لفطن الى أنها كانت تمتهن ذلك العرش !

وكان الخديو فى المقصورة التى أعدت له يرتدى ملابسه الرسمية ، وكان يحيط به الوزراء والكبراء بملابسهم وأوسمتهم الرسمية ...

وكان الجنرال ولسلي والدوق كنوت على ظهر جواديهما الى جانب مقصورة الخديو ، وسارت فرق الجيش الانجليزى أمامه حتى انتهى عرضها فى ساعة ونصف ثم أبدى الخديو سروره واعجابه واثنى على الجيش ورؤسائه

وقد جاء فى عدد الوقائع الصادر فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٢ أنه قد « انشرحت صدور الحاضرين وأعجب الجناب الخديوى المعظم بما رآه من مهارة رؤسائهم وضباطهم وحسن انتظام العساكر وكمال نظامهم وشكر الكل لهم ما قاموا به من اخماد فتنة العصاة واطفاء ثورتهم »

ومما يدعو الى أعظم الاسف ما نشر عن احتلال العاصمة فى هذه الجريدة فى ٣١ سبتمبر أى فى اليوم التالى للعرض وقد جاء فيه : «حضرت العساكر الانجليزية الى العباسية فى غروب يوم الخميس غرة ذى القعدة فسلمت العساكر التى كانت مجتمعة فيها أسلحتها وتوجهوا الى بلادهم من غير أن يمس أحد منهم بسوء ، ثم دخلوا مصر ليلة الجمعة واحتلوا الاماكن العسكرية كالقلعة وقصر النيل وقشلاق عابدين فسلمت العساكر التى فيها أيضا أسلحتها وتوجهوا الى بلادهم آمنين ، وبعد هذا قبض على الشقى أحمد عرابى ، ومشت العساكر الانجليزية فى شوارع المحروسة بالهدوء والسكينة ولم يظهر واحد منهم أدنى شىء ينفر منه طبع احد المصريين خلافا لما كان يزعمه ويشيعه أحمد عرابى العاصى واتباعه الاشقياء ، ولهذا لم نر شيئا تعطل من المصالح ولا من الاعمال لا فى المحروسة ولا فى ضواحيها » .

وفى ليلة ٣ أكتوبر أقام الخديو مادبة كبرى وحفلة بسمر باهرة ساهرة فى سراى الجزيرة تكريما للقواد والضباط الانجليز ، وكان فى مقدمة من شهدها سيمور وولسلى ودوق كنوت ومالت ولو ، وفى هذه الحفلة الكبرى أنعم الخديو على ٦٠ من هؤلاء الانجليز بالاوسمة المختلفة .

يقول عرابى فى مذكراته : « وكانت تلك النياشين التى حضرت من الآستانة بطلب درويش باشا المندوب السلطانى لاجل اعطائها للضباط المصريين » .

## ثواب وعقاب

بالقضاء على الثورة الوطنية وبدخول توفيق العاصمة فى حماية جيش الاحتـلال بدأ فى تاريخ مصر عهـد من أسوأ العهود التى يمنى بها تاريخ أمة من الامم ، فهو العهد الذى ينطوى فيه الاباة على ما فى أنفسهم خوف النكال والهلاك، والذى يمالىء المستضعفون فيه الاقوياء اما جلبا لمنفعة أو دفعا لضرر ، والذى ينتقم فيـه من خصومه من واتته الفرصة للانتقام ، والذى يرتزق فيه حثالة الناس بوشاية بعضهم ببعض ، والذى يتسـلط فيه المستبدون فيأخذون بالظنة رغبة فى اظهار جاههم وسلطانهم فحسب ، والذى يضيع فيه الحق فى ضجيج الباطل فلا سميع ولا شفيع ...

هذا هو العهد الذى اختفت فيه روح الوطنية وتوارت شعلة الحرية ، والذى وئد فيه الدستور وهو فى مهده ، وقتلت القومية المصرية وهى لا تزال تحبو ، والذى نفى فيه عن مصر اباة الرجال ، وتسلط فيها الاحتلال ...

وهـذا هو العهد الذى بدأ فيه الانجليـز يبثون فى النفوس هيبة الاحتلال وهيبة جيش الاحتلال ، وأخذوا يعلمون الوزراء وكبار الموظفين من المصريين وعلى رأسهم الخديو ان كانوا فى حاجة الى تعليم أن السلطة للانجليز والطاعة للانجليز وأن نصائح المعتمد البريطانى فى مصر واجبة الاتباع .

وقد افتتح هذا العهد بما يشاكله من الثواب والعقاب أما الثواب فللذين عدهم الخديو من الموالين له والذين سماهم المصريون الخائنين ، وأما العقاب فللذين كانوا فى رأى الخديو عصاة ثائرين وان عرفهم بنو مصر مجاهدين فى الله والوطن صادقين ...

وكان أول من حظى بالثواب محمد سلطان باشا الرئيس الاول للحزب الوطنى والذى سماه الناس من قبل كما ذكرنا أبا المصريين وقد أنعم عليه توفيق بالوسام المجيدى من الدرجة الاولى جزاء له على بث روح الخيانة فى الجيش المصرى ، ثم منحه فوق ذلك عشرة آلاف من الجنيهات ذهبا لازيف فيه وذلك كما قال الخديو : « لما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة على حياته وما حدث له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه واقاربه واتلاف موجوداته ومقدار جسيم من مزروعاته » ...

أما الانجليز فقد جعلوه السير محمد سلطان فانعمت عليه ملكة انجلترا بوسام سان ميشيل وسان جورج مكافأة له على ما بذل فى سبيل نجاح معركة التل الكبير...

وظهر الثواب بعد ذلك فى المناصب بصورة واسعة ومن أمثلة ذلك اعادة ابراهيم أدهم باشا مديرا للغربية واعادة الشيخ محمد العباسى المهدى شيخا للجامع الازهر بعد اقالة الشيخ الامبابى وذلك علاوة على منصب الافتاء الذى كان يشغله وقد تجلت هذه الروح فى تأليف وزارة شريف فرأينا فيها عمر لطفى ورياض ومبارك ومدحت

وأما العقاب فقد بدأه الخديو بالغاء الجيش المصرى جملة بحجة أنه انضم الى العصاة ، وكان هذا توطئة لمحاكمة قواده وضباطه الا من انحاز أثناء الحرب الى الخديو ...

وكان سلطان باشا يأمر بالقبض على من يشاء والقائه فى السجن ، ولذلك تم الكثير من الاعتقالات بأمره ، قال عرابى فى مذكراته : « انه أمر بسجن جميع الضباط وجميع رجال الملكية والعلماء وخطباء المساجد والتجار والاعيان الا من كان من الجواسيس والمنافقين حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو فسجنوا جميعا الا على بك يوسف وأحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم فى التل الكبير. وكذلك صار سجن جميع الذين بالمديريات والمحافظات من المستخدمين والموظفين والعمد والاعيان والقضاة والمفتين وغيرهم من عامة الناس حتى غصت بهم السجون بما يربو على ثلاثين الفا من المصريين (١) » .

وللمرء أن يتصور مبلغ ما كان يرتكب من المظالم فى حال كهذه يقع فيها القبض على الناس بغير حساب ولا رقابة من قانون أو عرف ، وما اشبه هذا الموقف بعهد الارهاب الاكبر فى فرنسا ايام ثورتها ، يقول عرابى : « وانتهز حكام المديريات من رجال الاستبداد فرصة القبض على وجوه البلاد واعيانها وانتزفوا مادة ثروتهم حتى اثروا وامتلكوا الاراضى الواسعة ومن ضن عليهم بماله كان جزاؤه الاعدام بدعوى انه من العصاة وأنهم مصرون على الانتقام » ...

وقد اعتقل كبار رجال الجيش من الثوار وجميع زعماء الثورة من المدنيين الا عبد الله نديم فقد اختفى ولم يعرف له مقر ، وعدد كبير من العلماء فى مقدمتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد الخلفاوى والشيخ محمد عليش ، وعدد من كبار الموظفين كان بينهم أحمد رفعت بك مدير المطبوعات وأحمد

(١) ذكر محمود فهمى باشا أن عدد هؤلاء بلغ تسعة وعشرين الفا .

بك ناشد مدير الشرقية ويعقوب بك صبرى مديرالفيوم وعدد من النواب وعدد من الاعيان والتجار ...

كما قبض على حسن باشا الشريعى وزير الاوقاف فى وزارتي البارودي وراغب ، وعبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودي . وذلك لاستنكارهما انضمام توفيق الى الانجليز وعزله عرابى وهو بكفر الدوار...

هذا عدا من اشرنا الى القبض عليهم من الكافة فى القاهرة والاسكندرية وطنطا وغيرها من جهات الاقاليم مما فزعت منه البلاد زمنا كان فى مصر حقا عهد الارهاب

وكان السيد حسن موسى العقاد والقائمقام سليمان سامى داود قد فرا على ظهر احـدى السفن الى كريت ، فعلمت الحكومة بمقرهما فارسلت الى الحكومة التركية تطلب تسليمهما فأرسلا الى الاسكندرية مقبوضا عليهما فى ٩ نوفمبر سنة ١٨٨٢.

وأصدر الخديو امره بتاليف لجنة للتحقيق بالقاهرة وذلك فى ٢٨ سبتمبر سـنة ١٨٨٢ ، وكانت تسـمى القومسيون أو اللجنة المخصوصة وقد تكونت من ١٠ اعضاء برئاسة اسماعيل أيوب باشا وكلفت باستجواب كل من اتهم بجريمة العصيان أو التعدى على سلطة الخديو أو اتيان أى عمل فيه اهانة للجناب العالى ، سواء كان المتهم فاعلا أصليا أو شريكا لغيره ، وكان من سلطة هذه اللجنة القبض على اى شخص بمجرد أن تبلغ ذلك الى وزير الداخلية ، ولها أن تقدم من ترى انه مدين الى المحكمة العسكرية التي تؤلف للحكم فى هذه التهم وايفاد مندوب من قبلها لاقامة الدعوى أمام هذه المحكمة .

وتألفت من هذه اللجنة لجنة فرعية لتحقيق التهم المنسوبة لاهل الاقاليم والمدن ...

وصدر أمر من الخديو فى نفس الوقت بتاليف محكمة

عسكرية لمحاكمة من ترى اللجنة تقديمهم اليها ، وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وهومن الموالين للخديووكان أعضاءالمحكمة -الا واحدا - من أصل تركي أوشركسى وكانوا جميعا من الناقمين على عرابى وحركته القومية وممن يدركون حق الادراك ماذا يريد الخديو ، لانه اختارهم على هذا الاساس .

***

والفت محكمة عسكرية بالاسكندرية تعاونها لجنتان لتحقيق حوادث الاسكندرية وطنطا على نحو ما يحدث فى القاهرة واختير أعضاء اللجان جميعا بالضرورة لا من المحايدين الذين يريدون وجه الحق ولكن من انصار الخديو المملوءة قلوبهم غيظا وحقدا على عرابى وعلى الثورة ...

وكان رياض باشا من أشد الناقمين على عرابى وزعماء الثورة ، يتطلع فى صبر فارغ الى اليوم الذى يرى فيه وهو وزير الداخلية جسد عرابى متدليا فى حبل المشنقة أو ممزقا برصاص الجند ...

وكان شريف باشا كذلك ساخطا على هؤلاء جميعا منذ أن اخرجوه من الوزارة بسبب أزمة الميزانية ولئن ظل حريصا على الدستور كمبدأ للحكم الا أنه قد امتلأ قسوة وغيظا على الثوار ، وقد كان بطبعه يكره التطرف ولذلك نظر بمنظاره الى عرابى وانصاره فكانوا عنده من أشد المتطرفين وان لم ينكر بينه وبين نفسه انهم طلاب دستور وحرية وانهم من حيث المبدأ كانوا فى الواقع يتجهون اتجاهه القائم على محاربة الاستبداد والنفور منه ...

# البطل السجين

ظل عرابى معتقلا فى قشلاق عابدين حتى ٥ أكتوبر ، ثم أسلم الى الحكومة المصرية ، فألقت به مع زعماء الثورة وعدد كبير من المعتقلين فى بناء الدائرة السنيـة الذى احالته الى معتقـل عام ، وجعلت فيه حجرة للجنـة التحقيق .

وبانتقال عرابى الى سجنه هذا بدأ عهد اهانته على صورة لولا اننا نريد أن نوفى هذا التاريخ حقه ما ذكرناها لفرط ما نحس من مجرد ذكرها من خزى والم ...

قال عرابى فى مذكراته المخطوطة : « وصار نقلنا من قشلاق عابدين الى سجن الدائرة السنية المذكورة لاجل المحاكمة ومعى طلبه باشا عصمت ، وسجن كل منا فى غرفة منفردا أسوة بمن فيها من المسجونين ، ثم اغلقوا المنافذ ومنعوا عنا السراج ليلا بعد أن فتشونا واخذوا ما معنا وأهانوا البعض منا خصوصا عبد العال حلمى »

وقال فيما كتبه وهو فى سجنه لمحاميه المستر برودلى « بعد ذلك أسلمنا الى السلطات المصرية ووضـعنا فى السجن المصرى يوم ٥ اكتوبر ، وكان ذلك من ايامى الحزينة التى لا تنسى فقد فصل بينى وبين صديقى طلبه باشا ، والقى بى فى حجرة ليس فيها شىء حتى الكرسى واغلقـوها على ، وجاء خادمى الى ولـكن الحراس لم

يسمحوا بادخال شيء الى سوى بساط وملحفة ...

وعقب ذلك أقبل فريق ممن أرسلوا لاهانة السجناء وتهديدهم كما تبين من أمرهم ، وفتشوني وأخذوا كل ما لدى من الاوراق الخاصة التى طلبتها لجنة التحقيق، وبعد هذا جاء فريق ثان ومعظمهم من موظفى الخديو وكان بينهم عثمان بك القائم على شئون خيله ، وحسين أفندى فوزى وله صلة بشئون الخديو المنزلية الخاصة ومعهما أغا تركى هو الذى يركب امام سموه حيث انه أحد رجال حرسه الخاص ، وقد أعاد هؤلاء تفتيشي حتى انهم نزعوا قميصى ، ولكنهم لم يجدوا شيئا الا تميمة كنت ألبسها فانتزعها أحدهم بقوة ، ولما قلت انى اخلعها بنفسي صاح أحدهم قائلا : كلا لقد أمرت ان أفعل ذلك وأن أخلع حتى حذاءك لتفتيشه ...

وبعد ساعة جاء ليزورني بشارة تكلا محرر جريدة الاهرام وظننت أنه قدم ليعزينى وليبدى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن يدينون بمبدئنا قبل الحرب وقد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وانه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين ، ولكنه لما دخل على توقع أشد التوقع ، ثم قال : اى عرابى ماذا صنعت وماذا حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ، ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف .

وما هي الا دقيقة ثم جاء فريق ثالث معظمهم من خدم الخديو وأتباعه وفيهم أتراك وجند من حرسه ، وفتشوا بساطى وملحفتى وقلبوهما ظهرا لوجه ثم انصرفوا ، وأقاموا طول الليل على باب غرفتى حراسا على وعلى السجناء » (١)

هذا ما عومل به عرابى أول يوم أدخل فيه السجن ،

(1) How we defended Orabi P. 139.

ولكن خصومه لم يروا فى ذلك ما يشفي ما فى نفوسهم من غل ، فأوفدوا اليه بعد ٤ أيام من الحق به ، وهو السجين الذى لا يملك الدفاع عن نفسه ، اهانة يؤسفنا ويخجلنا أن نذكرها ولندع عرابى يصف ما حدث :

قال : «فى ٩ اكتوبر سمعت الباب يفتح حوالىالساعة التاسعة والنصف وقد خلعت ملابسى واضطجعت لانام ودخل على جماعة تتألف من ١٠ أو ١٢ شـخصا ، ولما كان الظلام حالكا لم أستطع اناتبين منهماحدا ، وصاح احدهم فجاة : اه .. عرابى ، الا تعرفنى ؟ وحسبت انه قادم ليقتلنى فنهضت قائلا : كلا لست اعرفك.. فصاح بى : انا ابراهيم اغا ، ثم اخذ يقسم الايمان متوعدا وقال لى : أيها الكلب .. ايها الخنزير ، وبصق على ٣ مرات. فوقفت ساكتا فى هدوء ، ثم تبينت شيئا فشيئا انه ابراهيم اغا حقا توتونجى الخديو » (١)

وقد أعاد عرابى ذكر هـذا الكلام لمحاميه يصف به الحادث الشنيع وذلك فيما كتب له من تقرير عام وكان قد صرح به حين زاره لاول مرة ، وسلمه ورقة جاء فيها مايأتى : « لقد سلمت سيفى وشخصى الىالجنرال لو ، ممثل القائد العام للجنود البريطانية ، وكان ذلك منى ركونا الى شرف انجلترا ... وفى ٥ أكتوبر القى به فى سجن مصرى حيث الحقت بى اهانة على صورة تظل صارخة فى وجه الشرف البريطانى ووجه كل انجليزى» ثم أورد عرابى الحادث بما لم يخرج عما سلف واختتم ورقته بقوله : « ان مسلكا كهذا لايمكن أن يرضى شرف انجلترا وسمعتها وخاصة نحوى انا الذى اسلمت نفسى مصدقا بشرف الشعب الانجليزى »

ولم يكن عرابى وحده مصدر هذه الرواية حتى يمكن

(١) نفس المصدر

أن يقال انه اختلقها أو أسرف فيها ، فقد عرفها بلنت بين ما عرف من صديق له لايمكن أن يتطرق الشك الى معلوماته ألا وهو المستر بيمــان ترجمان مالت والذى اختاره ليحضر التحقيق نائبا عنه وكان بيمان يجيد اللغة العربية وكان قائما بأعمال مالت القنصل العام فى الاسابيع التى سبقت ضرب الاسكندرية وقد أرسل هذه المعلومات فى ٦ نوفمبر ، ويقول بلنت أن المعلومات التى أخذها عن بيمان على أعظم جانب من الاهمية التاريخية ، قال بيمان «ن حادث ابراهيم أغا : أحسب أن حادث ابراهيم أغا وحده كاف ليظهر الخديو على حقيقته ، ولقد سمعت القصة كلها من القصر مباشرة وكيف أن توتونجى حامل غليون الخديو قد لثم يد الخديو ورجا منه أن يسمح له بأن يبصق فى وجوه السجناء ، وكان ذلك هو ما استقصى عنه السير شارلز ولسن (١) ووجده صحيحا ، وعلى الرغم من تبينه صحة الحادث ، فقد أغفله وذلك لانه كان للخديو قطعة قذرة جدا من القماش يجب أن تغسل فى هذا الموضوع (٢) ، ولقــد اقترحت اذ رأيت الشهود جميعا يحنثون فى أيمانهم أن يحلفوا يمين الطلاق الثلاث ، وكان السير شارلز ولسن يميل الى ذلك ولكن مقترحى ما لبث ان أسكت ، وان أسرة سموه لاتستطيع الآن أن تنكر فيما بينها وقوع هذا الحادث ، وبعــد فهذا هو الرجل الذى من أجله جئنــا الى مصر » (٣).

ويقول بلنت : « ان حادث ارســال توفيق أغواته لاهانة زعماء الحركة القومية فى السجن قد ذكره الشيخ محمد عبده الذى كان من أوائل المقبوض عليهم والذى

---

(١) هو الذى انتدبه الانجليز لحضور جلسات لجنة التحقيق
(٢) كناية عن فضيحة له فيه
(٣) S. H. B. p. 348

كان من ضحايا الحادث ، وقد ذكر ما لقى فى السجن فى تصريح قدمه الى السير شارلز ولسن فى ٢٩ اكتوبر ، ولكنه لم يرد فى الكتاب الازرق » (١)

وقد ذكر مستر برودلى فى كتابه : « كيف دافعنا عن عرابى ؟ » انه زار كلا من على فهمى وعبد العال حلمى ، والشيخ محمد عبده فى حجراتهم وان عبد العال ذكر له « أن ابراهيم اغا توتونجى الخديو دخل حجرتى ومعه ٣ اشخاص وقال لى : يا عبد العال أتعرف من أنا ؟ فقلت كلا لست أعرفك ، فقال : أنا ابراهيم أغا توتونجى الخديو ، ثم دنا منى وبصق على وجهى وضربنى بقلم كان فى يده على وجهى مرتين وقال : انتظروا لقد وقعتم يا أولاد الكلب سأريكم »

وقال الشيخ محمد عبده : « انى اعلن مع عظيم احترامى لسمو الخديو حفظه الله أن ابراهيم اغا توتونجى حضر الى فى الخامس من هذا الشهر وأهاننى ، وكان معه بعض اتباع الخديو ، وقد فتشونى واخذوا منى ٣ مجلدات ، ٢ منها هما كتاب العقد الفريد ، والثالث هو الجزء الاول من تاريخ العصور الوسطى وهو مترجم عن الفرنسية ... ولما سألتهم : لماذا يأخذون الكتب ؟ الكى يعيدوها الى بيتى ؟ قال لى : الك بيت ؟ فرأيت أن أسكت »

وأحسب أن هذه الفضيحة لا تحتاج الى تعقيب سوى الاشارة الى ما نحسه من الحسرة والخجل من أن ينزل الناس فى الخصومة الى مثل هذا الحد ، وأن يعامل رجال كهؤلاء هم بنفوسهم وجهادهم سادة أعزة وفى مقدمتهم زعيم ثورة وقائد جيش ووزير دولة ، معاملة لا تليق بأصغر الناس واحقرهم شأنا

---

(1) S. H. B. p. 348

وكان عرابى يقضى أيامه فى سجنه على هذه الحال من سوء المعاملة وليس فى حجرته كرسى واحد كما ذكر هو وكما شهد محاميه ولم يجد فيها محاميه مستر برودلى وزميله مستر نابيير عندما سمح لهما بزيارته الا البساط والملحفة وحشية ووسادتين ومصحفا وبعض الآنية من الخزف والنحاس

وكان عرابى يلبس سروالا حربيا وقميصا أبيض ، وسترة كان يستبدل بها أحيانا استامبولية سوداء أو معطفا تركيا ، وكانت فى يده مسبحة صغيرة لا تفارقها الا نادرا كما ذكر مستر برودلى

ويقول محاميه انه بناء على طلب السير شارلز ولسن قد أحضر له ولزميليه منضدة وبعض الكراسى

وكان لايزيد اتساع الحجرة عن ١٤ قدما فى مثلها وكانت مرتفعة السقف ، وكان ينفذ اليها بعض النور من نافذتين صغيرتين تطلان على الشارع ، أما بالليل فكانت حالكة الظلمة حيث لم يسمح بمصابيح أوشموع لاحد من السجناء ...

ولهذه الظلمة قصة ، فقد طلب عرابى على لسان محاميه أن يسمح له بالنور ليلا فرفضت ادارة السجن لانها علمت أن الخادم أراد أن يدخل له النفط ليحرق السجن ، ومن اجل ذلك منع الخدم من ان يدخلوا الطعام الى السجناء ، وقد غضب عرابى لهذه التهمة التى أشارت اليها جريدة التيمس غضبا شديدا ، وكتب الى مراسلها بالقاهرة تكذيبا لها قائلا: انه لم يسمح له برؤية خادمه منذ يوم ٥ اكتوبر ، وانه ليس هناك ما يدعوه الى أن يحرق نفسه ويموت ضد القانون فهو لم ييأس يوما من براءته مما نسب اليه »

وكان مما يؤلم نفس عرابى فى سجنه أسلوب سجانه

فى تقديم الطعام له ، وحق له أن يتألم وان يأسى. قال يصف هذه المعاملة : « منذ أن القى بى الى السلطات المصرية يأخذ احد الحراس وهو تركى الطعام من خادمى متى حضر ويفتح الباب دقيقة ويلقى بالطعام امامى ثم يغلق الباب فى غلظة كما لو كنت وحشا فى قفص » .

وقد شكا عبد العال الى برودلى مخاوفه وقص عليه قصة محاولة قتله بالسم منذ بضعة اشهر مما دعا برودلى الى تصديقها ولذلك طلب من السير شارلز الا يكون مقدمو الطعام للسجناء أتراكا أو شراكسة .

***

ولندع عرابى فى سجنه لننظر كيف أتيح له أن يدافع عنه برودلى وزميله ، فان لهذا قصة ، هى قصة الوفاء والنجدة والمروءة ...

لم يكن يجرؤ احد من المصريين بالضروره فى مثل تلك الايام أن يفكر فى الدفاع عن عرابى والا عد من العصاة والجناة وقبض عليه واودع السجن ، وربما كان مصيره الموت ، وحسب كل امرىء أن ينجو بنفسه من هذا الارهاب الذى يكاد يحصى على الناس أنفاسهم ...

وكان توفيق يريد راس عرابى بأية صورة ، وقد عقد العزم على ذلك وانه ليتطلع منذ أشهر الى هذا اليوم الذى يظفر فيه برأس خصمه وكان رياض يذهب مذهب توفيق ولا يقل عنه حنقا وتطلعا ..

وكان الانجليز يريدون التخلص من عرابى بالموت ، ويقرر مستر بلنت أنهم كانوا لايترددون فى رميه بالرصاص فى موضعه لو أنهم أسروه فى التل الكبير ، ويقول : ان هذا ما عقد ولسلى عليه العزم ولم يرده عن رأيه الا السير جون اداى وهو قائد أكبر سنا واكثر تجربة من ولسلى وقد بين له ما يكون فى مثل هذا العمل من عار ،

اذ كيف لا يظفر قائد جيش نظامى استدعى مجىء ٣٠ ألفا من الانجليز لمحاربته ، بما يظفر به كل قائد فى مثل ظروفه حسب قوانين العالم من معاملة شريفة عادلة؟ (١)

وسنرى فيما وقف عليه بلنت من معلومات أثناء سعيه للوصول الى تحقيق عادل والسماح لمحام انجليزى بالدفاع عن عرابى ، أن الحكومة الانجليزية نفسها كانت ترمى الى التخلص من عرابى بالموت على أن يأتى ذلك على يد توفيق ، وما أسلم عرابى الى السلطات المصرية الا لهذا الغرض ، ولنأت بهذه القصة ، قصة محاولات بلنت على سردها ...

يقول بلنت : انأخشى ماكان يخشاه بعد هزيمة عرابى أن يعمد جلادستون الى تغطية مذبحة التل الكبير وذلك بأن يجعل عرابى كبش الفداء عن هذه الخطيئة فيقتله ويجد ما يعتذر به عن ذلك فيما يزعمه من أنه قصاص عادل من ثائر عاص لايمكن أن يعامل معاملة زعيم وطنى أو قائد جيوش نظامية ...

وبعد أن أورد بلنت ما علمه من اعتزام ولسلى الذى أشرنا اليه وعن موقف السيرجون أداى قال : « وكان جلادستون مصمما على هذا الاتجاه تصميم جرانفل أو أى شخص آخر من لوردات الهويج فى مجلس الوزراء » ثم ذكر بلنت أن برايت الوزير الذى استقال محتجا على ضرب الاسكندرية قد أسمع جلادستون احتجاجه على هذه النية التى تنويها الحكومة وأن الضغط الشديد من جانب الرأى العام البريطانى هو الذى صرف الحكومة الانجليزية عن أن تجعل عرابى يؤدى بحياته الفداء عن جريمتها السياسية ...

واستعان بلنت بصديق له من رجال الصحافة هو

---

(1) S. H. B. p. 327

مستر بتن مراسل جريدة التيمس وبحسن مسعى هذا الصديق نشرت التيمس أنه لن يعدم عرابى أو أحد من رفاقه الا بعد موافقة الحكومة الانجليزية وأنه سوف يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم على يد محام كفء .

وتوصل بلنت بهذا الى أن يضع الحكومة الانجليزية ، كما قال ، فى نظر الرأى العام فى وضع كريم بحيث يصعب عليها أن تتراجع عن عمل انسانى نسب اليها .

ثم زار بلنت مستر برودلى فى منزله فى ١٩ سبتمبر ، أى بعد التل الكبير بسبعة أيام وكان لايزال عرابى فى معتقله بعابدين ، واتفق معه على أن يكون هو محامى القضية وجعل له أجرا على ذلك ٨٠٠ جنيه غير ما يلزم من مصروفات ...

وكتب بلنت فى نفس اليوم عملا بمشورة برودلى كتابا مطولا الى جلادستون وكان مما ذكره فيه انه يخشى من عدة أمور فى التحقيق مع عرابى ، فأعضاء المحكمة العسكرية لابد أن ينحازوا الى الخديو ، واذا فرض انهم لن يفعلوا ذلك فان الشهود من الوطنيين سيؤدون أقوالهم تحت تأثير الخوف ، وسيعمد الكثيرون الى التزوير ، أما الشهود من الاوربيين فسيتكلمون عن ضغن وحفيظة ، وسيكون المندوب الانجليزى نفسه فى لجنة التحقيق تحت تأثير الاتجاه السياسى الذى يتسلط الآن على الموقف فى القاهرة ، واذا أضيف الى المحكمة العسكرية ضباط من الانجليز كما نأمل أن يحدث ، فان جهلهم باللغة العربية سيحول بينهم وبين تتبع أقوال الشهود وسيكون اعتمادهم على المترجمين الذين لايؤمن جانبهم ... وبناء على ذلك فانه لن تتحقق العدالة ما لم تتبع خطوات خاصة نحو هذا الغرض ...

ثم ذكر بلنت أن العلاج الذى يراه هو أن يسمح بأن

يدافع عن المتهمين محام انجليزى كفء ، وأن يصحبه بلنت الى مصر ليجمع له المعلومات ، وأن يرافقهما صابونجى الذى يجيد عدة لغات منها العربية والانجليزية والذى يعرف الكثير عن أحوال المتهمين وأشخاصهم ... واختتم كتابه بوعد منه الا يتدخل فى السياسة أثناء ذلك وأفصح عن عظيم رجائه أن ينال مقترحه قبولا لدى جلادستون وأن يأتيه منه رد سريع على كتابه...

وتلقى بلنت ردا من دوننج ستريت فى ٢٢ سبتمبر، مؤداه أن جلادستون قرأ كتابه ، وكل ما يستطيع قوله فى الوقت الحاضر أنه سوف يعرض هذا الكتاب على اللورد جرانفل ليرى فيه رأيه كى يشاوره فيه ، ولكنه لايمكنه أن يؤكد أنه سوف ينتهى به الإمر الى القبول..

وكتب بلنت الى عرابى كتابا فى ٢٢ سبتمبر يقول له فيه : انه خليق أن يدرك وهو الجندى الوطنى لماذا لم يكتب له أثناء الحرب ، ثم ذكر له أنه وقد انقضت الحرب سوف يرى أن صداقته له أعظم من أن تكون كلاما فحسب ، ويخبره بما اتخذ من خطوات فى سبيل الدفاع عنه ويطلب اليه أن يرسل تفويضا بذلك الى محاميه الذى اكتتب عدد من العلية الاحرار فى دفع أجره ويؤكد له أنه سوف يعنى بأسرته أثناء اعتقاله ، ويدعو له الله أن يهبه الشجاعة ويكون فى عونه ...

وارسل بلنت كتابه هذا الى صديقه عن طريق السير ادوارد مالت ، ولكن ما كان أشد أسفه وألمه ، اذ رد مالت اليه ذلك الكتاب مشفوعا بكلمة قصيرة جافة مؤداها أنه يفعل ذلك بأمر الحكومة الانجليزية ، ويقول بلنت : انه ليس ادل على ما كانت تنوى الحكومة أن تفعل بعرابى وأصحابه من هذا الذى صنعه مالت ...

وسافر برودلى الى تونس وقد طال انتظاره البت فى

الامر ، ورأى بلنت أن يبقى فى انجلترا حتى يستطيع أن يفعل شيئا لانه فى مصر لن يظفر بشيء مما يريد ما لم يكن لديه ما يشق به طريقه من سلطة يحصل عليها من الحكومة الانجليزية ...

وزاد لفظ الصحف بتوقع الحكم على عرابى بالموت ، ولم يرتفع بالاحتجاج على ذلك الا أصوات خافتة ضئيلة وتلقى بلنت من صديق انجليزى من ذوى المكانة بالقاهرة كتابا يقول فيه : « انى أشك أكبر الشك فى أنه سوف يسمح بشيء من قبيل التحقيق العادل فانهم يعلمون حق العلم أنهم ان فعلوا ذلك أدى الى ادانتهم هم ، وأن رجال السياسة اشد مكرا من ان يدفعهم أحد الى شيء من هذا القبيل ، وعلى أية حال فانك على حق فى محاولتك الوصول الى تحقيق عادل » .

ولم يجد بلنت مناصا من أن يكتب ثانية فى ٢٧ سبتمبر الى جلادستون يسأله عن مصير كتابه الاول وعن رأيه ورأى جرانفل فى الامر بعد تشاورهما ، ويشكو اليه مما فعل مالت من رد كتابه الى عرابى اليه ويخبره أنه اتفق فعلا مع احد المحامين النابهين لهذا الغرض ، وأنه قرأ فى جريدة التيمس برقية من القاهرة مؤداها أن المحكمة العسكرية سوف تعقد غدا وأن الخديو وشريف ورياض يصرون بشدة على أن الضرورة القصوى تقضى بالحكم بالموت على زعماء المجرمين ، ويقول شريف باشا وهو من اشتهر بسماحة خلقه : انه يرى ذلك لا لانه يحمل اى ضغن لهم ولكن لانه أمر حتمى كى يضمن الامن لكل من يريد أن يعيش فى هذه البلاد ، واختتم بلنت كتابه الثانى بقوله : ان الحاح الضرورة هو ما يجعله يرجو ردا عاجلا ...

ولكن هذا الكتاب الثانى لم يصل جلادستون فى موعده

وذلك لسفره الى خارج لندن ، وقد أحاله الموظف القائم على شئون رسائله الى وزارة الخارجية ، وكتب الى بلنت يبلغه أنه سوف يتلقى ردا رسميا من جرانفل عما قريب وفهم بلنت من ذلك أن جلادستون خرج عن لا ، ونعم ، باحالة الامر الى جرانفل ، ولم يتلق من جرانفل شيئا اذ كان هذا كذلك خارج لندن ، ولكن ما لبث أن أبلغه أحد الموظفين أن اللورد جرانفل اطلع على كتابيه وانه يأسف ألا يستطيع الدخول معه فى مراسلات بشأن هذا الموضوع ...

وهكذا ذهبت محاولات بلنت عبثا ، ولكن اليأس لم ينل منه ، فقدظل ما نشرتهجريدة التيمس يلزم الحكومة أدبيا ، ولذلك عاد بلنت يستعين بصديقه بتن ،ووعد بتن وقد كانت له مكانة ممتازة لدى شنرى رئيس تحرير جريدة التيمس ، بأن ينشر ثانية ما يفيد قضية بلنت وأن يلح حتى يحمل اللورد جرانفل على الانجاه صوب تحقيق عادل مع عرابى وأصحابه .

وعول بلنت على أن يبرق الى برودلى فى تونس ليكون على أهبة للسفر الى القاهرة ، وطفق يبحث عن محام آخر يسبق بلنت الى مصر ليعمل باسمه حتى يحضر فوقع على رجل هو خير من ينهض بهذا الامر وذلك هو مارك نابيير ، فقد كان نابيير لبقا ذا همة وعزم ، يفهم الاعيب السياسة كما كان ضليعا فى القانون يجيد اللغة الفرنسية ويحسن المجادلة والمخاصمة ...

وسافر نابيير ليطلب الى مالت السماح له بالاتصال بعرابى بصفته محاميه ، وقد طلب اليه بلنت أن يحتج ما وسعه الاحتجاج اذا رفض مالت طلبه وألا يدع وسيلة لاثبات هذا الرفض الا سلكها ، وكان نابيير خفيفا الى غايته ليس فى يده الا حقيبة صغيرة كانت كل متاعه ..

أما بلنت فقد صمم أن يستأنف المعركة فى وزارة الخارجية وفى الصحف ، وقد نمى اليه أن خطة الخديو وحكومته هى أن يقدم المتهمون الى محكمة مصرية تنظر فى أمرهم فى مدى يومين ثم تقضى باعدامهم وقد تبين لها انهم عصاة ، والا يسمح لمحامين من الانجليز بالدفاع عنهم لان هذا يعد تدخلا من الاجانب لا يسمح به فى الوضع التشريعى للبلاد .

وما زال أحد اللوردات من أصدقاء بلنت وهو اللورد دى لاوور حتى حصل من جرانفل على تصريح يؤكد به أن الخديو سوف يتيح كل فرصة معقولة للدفاع عن المتهمين ، وهو تصريح مبهم لا يفيد المرء منه شيئا ، ولكن بتن لعب دور الصحفى اللبق فنشر فى جريدة التيمس ما يأتى : « كتب اللورد جرانفل بأن يمنح المساجين فى مصر وأصدقاؤهم كل ما من شانه أن ييسر لهم الوصول الى محامين يدافعون عنهم » وغضب جرانفل مما كتبته جريدة التيمس ولكنه لم يستطع أن يتراجع فيكشف سياسته وسياسة حكومته ، فاضطر الى السكوت الذى هو نوع من الرضاء ... وقد رأى بلنت أنه كسب المعركة على هذه الصورة بوسيلة هينة ...

وأبرق بلنت الى برودلى ليسافر الى القاهرة فى الحال واتجهت نية الحكومة الانجليزية الى انجاز المحاكمة فى سرعة لتتم قبل أن يصل برودلى الى القاهرة ، ولم يكن لديها علم بنابيير واشتراكه فى الدفاع ...

وصدرت الاوامر بنقل عرابى من معتقل الجيش البريطانى الى السلطات المصرية ، حيث تحول بينه وحكومة الخديو وبين أية صلة بالعالم خارج السجن وتكون الحكومة الانجليزية بعيدة بذلك عن اللوم ، ثم أوعز الى الحكومة

المصرية أن تعلن أنه لن يسمح لاحد بالمرافعة الا باللغة العربية ...

واختارت الحكومة الانجليزية رجلين ليمثلاها فى التحقيق هما : السير شارلز ولسن ، والمستر بيمان ، وكانا كلاهما صديقين لبلنت ويشهد بلنت أنهما من ذوى الضمائر الحية والقلوب الرقيقة وأن اختيارهما كان من المصادفات الطيبة .

ولم يظفر نابيير من مالت بأكثر من اعترافه بشرعية موقفه كمحام من عرابى وأصحابه ، وظل يطلب منه السماح له بمقابلة عرابى فى غير جدوى اذ كان يحيله على رياض باشا ، وكان رياض يماطل ويراوغ حتى أدرك نابيير أنه يعبث به ، ثم رأى الحكومة المصرية تستعجل التحقيق كى يتم قبل أن يبت فى مسألة قبول المحامين الانجليز ...

وفى ١٨ اكتوبر تلقى بلنت من اللورد دى لاوور ، أنه بناء على معلوماته « ما لم تتخذ خطوات عاجلة حاسمة فان حياة عرابى فى خطر عظيم » وأسرع بلنت الى بتن فأفضى اليه بهذا النبأ السيىء ، ووجد لديه من المعلومات ما يتفق مع هذا النبأ كل الاتفاق ، وصمم الرجلان على الاحتكام الى الرأى العام فى صورة قوية أخاذة ...

وكتب بلنت كتابا الى جلادستون يحمل فيه على جرانفل وسياسته ويذكر جلادستون بعطفه ذات يوم على زعيم الحركة القومية فى مصر ، ويشير الى تبعة الحكومة البريطانية فيما ينوى الخديو عمله فى المحاكمة

وطلعت جريدة التيمس صباح الجمعة ومقالها الافتتاحي يدور حول هذه المسألة وذكرت أن المحاكمة سوف تكون يوم السبت وأن الحكم سوف يصدر يوم الاثنين وأن اعدام عرابى سيعقب الحكم مباشرة ، فأيقظت

الرأى العام ونبهت شعوره فى صورة اهتم بها جلادستون وحكومته أشد الاهتمام ...

وذهب الوزير المستقيل الحر مستر برايت وأفضى شخصيا الى جلادستون برأيه وصارحه بأنه سوف يقرن اسمه بالعار فى صفحات التاريخ لانحرافه عن مبادئه الانسانية باقراره مثل هذه الجريمة الكبرى.

وكللت مساعى بلنت بالنجاح اذ لم يجد جرانفل بدا من أن يبرق الى مالت بقرار الحكومة الانجليزية القاضى بالسماح بدفاع انجليزى عن المتهمين ...

وقد عقب بلنت على قصة سميه بقوله : « لقد وجدت الضرورة تقتضى أن أفصل قصة محاكمة عرابى ، وذلك لانه بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن أقضى على تلك الاسطورة السخيفة الكاذبة التى نجمت فى مصر ومؤداها أنه كان هناك من أول الامر شىء من التفاهم السرى بين جلادستون وعرابى على حفظ حياته ، وانى لاستطيع أن أؤكد أن جلادستون قد بلغ من بعده عن الرثاء لحال «كبير العصاة» أو التفاهم وإياه على أى صورة ما أنه قد اتحد مع جرانفل فى العمل على موته وذلك بأيدى أعوان الخديو المتاهبين لهذا العمل ، بعد محاكمة صورية ، من شأنها الا تثير أسئلة ، وبهذا يتحقق لهما أضمن وسيلة وأسرعها للوصول الى السكون ولتبرير أخطائهما الادبية الهائلة أثناء الاشهر الستة الاخيرة فى مصر ، ولم يكن تأثم جلادستون هو الذى منعه عن السير فى خطته الى النهاية ، ولكن الذى منعه عن ذلك هو صوت الرأى العام المفاجىء الذى أخافه وأنذره أن فى ذلك خطرا على ما ذهب له من الصيت وهذه هى حقيقة المسألة فى بساطتها ، مهما بلغ ما يضيفه اليها المدافعون عن جلادستون وعن سمعته الانسانية ، ومهما يكن من

خيال كتاب فرنسا السياسيين الذين أرادوا أن يجدوا سببا لتسامح مستر جلادستون حيال عرابى بعد الحرب فلم يبد للمسألة عندهم وجه مفهوم الا أن يكون هناك تفاهم سرى سابق بين رئيس الوزارة البريطانية وزعيم الثورة المصرية » (١) .

***

بلغ نابيير القاهرة فى ٧ أكتوبر أى بعد نقل عرابى الى سجن الدائرة السنية بيومين ، وفى القاهرة أشرك نابيير معه أحد رجال القانون من أصدقائه المشتغلين بالاستشارات القضائية ويدعى المستر ريتشارد ايف ، وظل نابيير يسعى سعيه لدى مالت كما ذكرنا عدة أيام دون أن يظفر بشيء سوى انه كان يحيله على رياض باشا

وحاول نابيير أن يظفر بشيء من السير شارلز ولسن ولكن هذا كان يحيله كذلك على رياض باشا ، وتخلص منه رياض باشا بقوله انه سوف يتصل بالسير ادوارد مالت .

وقدم نابيير مذكرة كتبها صديقه ايف ، الى رياض باشا يطلب فيها ايف بصفته مستشار عرابى أن يسمح له بالاتصال به فى سجنه ليتفق معه على أوجه الدفاع عنه فى التهم المنسوبة اليه ، ولكن رياض لم يرد على هذه المذكرة ، وذكر لهما السير أدوارد مالت أن رياض لن يقبل الا محامين وطنيين وانه سيتصل بوزارة الخارجية يسألها عما اذا كان لديها تعليمات أخرى ...

وكتب نابيير احتجاجا على منعه من الاتصال بعرابى وعلى موقف رياض باشا منه على الرغم من أنه أعلنه مرارا أنه قدم للدفاع عن عرابى ، وعلى عدم ابلاغ عرابى حتى ذلك الوقت بمجيء محام للدفاع عنه ...

---

(1) S. H. B. p. 341

وفى ١٤ أكتوبر جاءهما السير شارلز ولسن بالنبأ السار ، الا وهو السماح لهما بالدفاع عن عرابى وقرب مقابلتهما اياه

وكتبا من فورهما طلبا قدماه الى رياض باشا ليدخلا على عرابى ، ولكن ولسن مالبث أن جاءهما مرة ثانية يخبرهما بان الحكومة المصرية عدلت عن موافقتها

وفى اليوم التالى علما أن مجلس الوزراء المصرى انعقد بضع ساعات وأنه يؤثر الاستقالة على السماح لهما بالدفاع عن عرابى وأصحابه ...

وذهبا الى مالت واليأس ملء نفسيهما فأخبرهما بأن التحقيق لن يبدأ الا بعد أن يريا عرابى والمتهمين وأنه سوف يسمح لهما بالوقت الكافى لامداد دفاعهما عنه .

وفى ١٨ اكتوبر بلغ برودلى القاهرة وسمع من نابيير هذه الانباء وأعجب بنشاطه ونشاط صاحبه وأثنى على حسن مسعاهما ...

وفى ٢١ أكتوبر أرسل السير شارلز ولسن برقية صغيرة الى برودلى جاء فيها هذه العبارة : « أسمح لى أن أقدم اليك نجل عرابى باشا »

وشكا محمد بن عرابى باشا الى مستر برودلى ماتلقاه اسرته وزوجته من سوء المعاملة والاهانة وخاصة منذ أن نقل عرابى باشا الى سجنه الحالى بالدائرة السنية ، ولكن محمداً ما لبث أن طاب نفسا حين علم أن برودلى وصاحبيه ذاهبون من فورهم الى لقاء أبيه فى سجنه توطئة للدفاع عنه ، ولم يستطع الفتى أن يحبس دمعه من الفرح ...

ودخل المحامون على عرابى يصحبهم السير شارلز ولسن ، يقول برودلى : « ولما أن ظهر الكيرنل ولسن نهض رجل طويل قوى البنية من فوق سجادة كان

يجلس عليها فى ركن الى جوار النافذة واقبل يحييه ...
وقدمنا الى عرابى وطلب السير ولسن منضدة وبعض الكراسى ... وبعد انانصرف السيرشارلز ولسن قدمت اليه كتابا من المستر بلنت أحضره معه المستر نابيير واستأذننا فى قراءته ...

وبينما كان يفعل ذلك أتيحت لى فرصة نادرة لادرس وجه رجل هو ملء أسماع أوربا كلها ، ورأيت انه فى حال سكونه ترتسم على محياه تقطيبة ثابتة ويخالطهـا عبوس فيلقيان فى روع المرء الشعور بما لصاحبهما من جهامة ، ولكننى لم ألبث أن وجـدت أن ذلك يرد الى التفكير الطويل العميق أكثر مما يرد الى الجفاء أو عنف المزاج ، ولقد جعل اعتياد عرابى التـفكير الدائم عددا كبيرا من الناس أعداء له ، وهؤلاء ممن يحكمون على الامور بمظاهرها ... فاذا تهلل محياه كان التغير الذى يطرأ على وجهه من العجب بحيث يصعب عليك أن تتبين أنه الرجل نفسه ، وان عينيه لتمتلئـان بالذكاء ، وان فى ابتسامته كثيرا من الجاذبية ، ويرى محياه أرق من محيا ابنه ولكن أنفه الافطس الذى يبلغ فى ذلك حدا كبيرا ، وشفتيه البالغتى الغلظ يحولان دون أن أصفه بالملاحة.

ويزيد طوله عن ستة أقدام ويتناسب عرضه مع هـذا الطول ، وقد تغير منظره ماديا أثناء وجوده فى السجن وذلك باطلاق لحيته الشهباء ، ويدور حول معصـمه وشم أزرق عـلى عادة الفـلاحين ، ولا يدع من يده مسبحته السوداء الصغيرة الا نادرا ويدير حبـاتها بين أصابعه أثناء الحديث ، وقد انقشعت شيئا فشيئـا سحب القلق التى أحاطت به وكاد يعود الى بشاشـته قبل أن تنتهى مدة سجنه

وكان عرابى يبتسم غالبا أثناء قراءته كتاب المسـتر

بلنت وكان يرفع يده الى جبينه علامة الشكر ، وعرفان الجميل وكانت هذه العادة التى تظهر من عرابى فى تناول رسائله تروعنى دائما بما تنم عليه بصورة خاصة من كرم السجية ، وكانت وداعته على الصورة الخاصة به تؤثر دائما فيمن لهم به صلة .

وبعد أن فرغ عرابى من قراءة الكتاب استاذننى أن يستعمل المداد والاقلام التى احضرناها معنا ليكتب كلمة شكر للمستر بلنت وزوجته ، ولما فرغ من ذلك اشار عليه المستر ايف أن يكتب توكيلا للمستر نابيير ولى لنكون محاميه ، وقد اجاب هذا الطلب فى الحال وختم على التوكيل بخاتمه .. ثم طلبت من عرابى أن يثق فينا كل الثقة وان يتكلم فى غير تحفظ عما يدافع به عن نفسه ، فكان اول ما ذكره ـ وذلك كما فعل من قبله كثير من القواد غيره ممن فاتهم النجاح ـ أنه وضع سيفه وشرفه بين يدى الجنرال لو ، وقد فعل ذلك واثقا كل الثقة أن أعداءه فى الميدان لا خصومه السياسيين هم الذين سوف يكونون قضاته ، وقال : أنه حفظ النظام ، وراعى أصول الحرب عند الامم المتمدنة وعامل السجناء بالرفق والانسانية ... وحق له فى الواقع أن يطلب أن يعامل معاملة خيرا مما لقى على أيدينا ، أو ليس فى مجيئنا اليوم اليه على الرغم من أعدائه ما يدل على أنه لم يكن يعد مخطئا من الجميع ؟ لقد قاد المصريين فى جهادهم من اجل الحرية ، وقطع شوطا فى طريق النجاح قبل أن توقف جنودنا تقدمه ثم تحطمت مطامحه التى كان يظهرها للملأ بارادة الامة كلها وذلك بهزيمته فى التل الكبير ، ثم سحقها سحقا لا أمل معه ما أعقبها من قسوة الاتراك والشراكسة ...

وقال عرابى : « انكم اذا بحثتم فسوف تجدون ان

مصر كلها كانت الى جانبى وسوف يمكنكم اقامة الدليل على ذلك فكانت تويدنى عائلة الخديو ورجالها القدامى الباقون من عهد محمد على ، كما كان يؤيدنى العلماء والجيش والفلاحون ، ولكن فى حالتنا الراهنه من القبض والسجن والارهاب من يعترف بى الآن ؟ انى لن أعجب اذا أنكرني أولادي أنفسهم تلقاء وجهى اذا مثلوا أمام لجنة التحقيق » ...

وذكر عرابى ما لحقه فى سجنه قائلا : انه اذا كان يعامل هذه المعاملة فماذا عسى أن يبقى لاتباعه وخاصة الطبقة المتواضعة من امل ؟ ثم ذكر أن اتباعه فى طول البلاد وعرضها قد ألقى بهم فى السجون ، وأن كل من يعرف هذه البلاد يدرك ما يكون لهذا من تاثير فى عقول الناس ، ولقد استجوبته اللجنة ولكن لم يكن له حيلة ازاء ما سمته أدلة ذكرتها ، وانه ليخشى مما رأى ان يجبن أقوى اتباعه جنانا من أمثال محمود سامى ويعقوب سوف يكونون قضاته ، وقال : انه حفظ النظام ، وراعى من عجز فى وضعهم الحالى ...

وفيما يتصل بسلوكه هو فانه يحسب ان لديه دفاعا جيداً عنه ، وقال : « انى أقسمه قسمين : ماحدث قبل ١١ يوليو ، وماحدث بعده ، ولن أعد عاصيا فى هذا ولا ذاك . فلقد وافق الخديو على رأينا فى وجوب الرد على نيران الانجليز وعبر السلطان مرات عن رضائه عن أعمالى وبعد ذلك أصبح الخديو أسيرا عندكم ، وبقيت أنا انفذ أوامر مجلس الوزراء التى أيدتها الامة كلها وأكسبتها مشروعيتها والتى ظل السلطان يقرها ، واذا كان الخديو والسلطان رئيسى فانى أكون عدوا لكم ولكنى لن أكون عاصيا لهما ، وانى آمل أن أستطيع اقامة الحجة على ما أقول ولست أخشى شيئا طالما أنه لم تكن لى صلة

بفتنة الاسكندرية فى يونيو ولا بما أعقب ضربهـا من نهب وتخريب »

وعد عرابى انه حالما يستطيع مقـابلة ابنه سوف يمدنا بما يفيد قضيته من أوراق ، وقال : انه يتوق الى أن يضع بين أيدينا تعليمات تتصل بالدفاع عنه ولا ينقصه الا أن يسمح له ببعض أدوات الكتابة ...

وأفصح عرابى عن أمله ألا ننسى اخوانه المسجونين ، حتى ولو وجدناهم أجبروا على أن يرموه بالتهم أو يشركوه معهم فيما يتهمون به وكل ما طلبه فيما يتصل بالسجن هو أن يسمح له بالنور ليعمل ليلا ، وأن يسمح لخادمه باحضار الطعام اليه حتى مكانه ، ثم شرح لنا وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى ما يتعرض له الطعام من خطر بمروره بين أيدى الحراس الشراكسة ، وقص علينا كيف أوشك صديقه عبد العال أن يموت مسموما فى مرحلة مبكرة من مراحل الحركة القومية ، ولهذا ليس مما يدعو الى العجب فى مثل هذه الظروف أن يطلب الينا عرابى أن يوضع حراس من الانجليز داخل السجن كما يوضعون خارجه .

وغادرنا السجن وفى نفوسنا شعور طيب جدا تركه فيها حديث موكلنـا ذى الصيت الذائع وما رأيناه من ثباته وتجمله » (١) .

هذا ما ذكره برودلى عن عرابى فى سجنه والحق انه لما يدعو الى الاعجاب بزعيم الحركة القومية ، ولـكم يروقنا هذا الوفاء الذى يتجلى فى توصيته باخوانه حتى ولو آذوه وذلك مع ما هو فيه من محنة ، وهكذا شأن عظماء النفوس وأحرار الشمائل ...

ولقد أثنى بلنت على شجاعته وقوة روحه وحرصه

(١) How we defended Orobi 56. 70.

على كرامته قائلا : انه كان يمتــاز الى درجــة عاليــة بالشجاعة الادبية وأن الفرق كان عظيما بينه فى تجمله وثباته وبين أكثر الذين سجنوا مثله ، ولم تخب قط شجاعته فى أن تحمل على الاعجاب به كل من رآه ، وذكر بلنت من أدلة شجاعته ما كتبه بلا تردد فى سجنه من تقرير أثبت فيه تاريخ الحركة القومية فى صراحة وأسلوب أخاذ ...

ولقد جاء فى هذا التقرير ما يدل حقا على اباء نفسه وشجاعه روحه وعلى أنه فطر على الشــمم والقوة ، ومن أمثلة ذلك قوله : «دخل الخديو الاسكندرية وأسلم نفسه وقد أخليت المدينة من الجيش ومن الناس ، ولم يكن تبعا لقوانيننا مما يليق بحاكم أمة ولا مما يسمح به أن يفعل ذلك فينحاز الى أمة تحاربنا ، أمة عقد هو نفسه العزم فى مجلس موقر على مقاومتها ، وان قانون الانسان وان كلمة الله لينهيان عن هذه الاعمال الهادمة للشرف ، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الرجل مسلما ولا أن يحكم فريقا من المسلمين »

وقوله عن الحرب انه يدهش كيف أن دولة عظيمة الصيت كانجلترا تقول انها صديقة الانسانية وأنها تحرر العبيد وتحترم القوانين التى تبين الحق من الباطل ، كيف أن دولة كهذه تقدم على محاربة أمة كل جريمتها أنها قاومت حاكمها حين رأته لا يحترم قانون شــعبه ولا حقوق هذا الشعب »

ومن أدلة شجاعته كذلك فى هذا التقرير ذكره ما لحقه من اهانة فى سجنه وتعقيبه على ذلك بما أشرنا اليه من قوله : ان هذا يصرخ فى وجه الشرف البريطانى وفى وجه كل انجليزى ...

وهــذا التقرير تلخيص أمين حسن السياق للحركة

القومية واطوارها والحرب وأدوارها ، وقد كتبه عرابى فى سجنه مع ما كان يحيط به من آلام وبغير أن يرجع الى كتاب أو مذكرة وفى ذلك برهان قوى على خصوبة ذهنه وحسن المامه بما يجرى حوله ...

وبعد فهذه قصة الدفاع عن عرابى نبسطها صفحات مشرفة ونقذف بها على باطل الذين يكتبون التاريخ بلا علم والذين يكتبون عن هوى فيقولون كيف يليق بزعيم وطنى أن يدافع عنه محاميان انجليزيان ؟ فهل غاب عن هؤلاء صفة المحكمة العسكرية التى ألفت لمحاكمته وهل غاب عنهم ما كان يريده توفيق ورياض به فى غير وازع من ضمير أو رادع من قانون ؟ أم أنهم يعلمون ذلك ومع علمهم هذا يطلبون من الرجل أن يسلم نفسه الى من يريد قتله بأى ثمن فلا يدافع عن نفسه دفاعا ينقذ به شرفه حتى ولو لم ينقذ به حياته ؟ واذا قيض الله له هذا الدفاع على يد صديق مد له يد المعونة فى محنته ، أكانوا يريدون منه أن يرفضه ؟ وأين كان يجد عرابى الدفاع الوطنى عنه ؟ أكان يجرؤ أحد من المصريين حتى على أداء الشهادة الحق عنه وسيف الطغيان مسلط على الاعناق ؟ وأين هم المصريون ومنهم ٣٠ ألفا فى السجون؟

الحق اننا فى حيرة مما يقول هؤلاء الجاهلون والمغرضون وفى عجب ؟ كيف لم يدعوا ناحية من حياة عرابى الا شوهوها بالباطل ، وحاولوا طمس حقائقها باللغو ، ولكن الباطل لا يعيش ، واللغو لا يجدى شيئا ولن يموت الحق ولا مناص من أن يظهر وان طال احتجابه .

ومن أسخف أنواع البهتان وأدلها على جهل هؤلاء الذين كتبوا عن عرابى كتابة هوى وحقد ، قولهم : ان الانجليز كانوا يعطفون عليه وأن جلادستون كان يهتم بحياته ، وأنه كتب فى السجن يتملق الحكومة الانجليزية

وان ذلك من أشد ما يعاب على زعيم وطنى ، ولن يعترف هؤلاء له بالزعامة الوطنية الا حين يبتفون أن ينالوا منه بافكهم وما ينالون الا من أنفسهم ولكن لايشعرون! ولقد بينا مبلغ ما بين أقوالهم هذه وبين الحق من بعد وفصلنا كيف آن للتاريخ أن ينصف عرابى على الرغم من باطل هؤلاء المبطلين وجهل هؤلاء الجاهلين ...

ويؤلمنا قبل أن ندع الكلام عن البطل السجين أن نشير الى ما حل ببيته وأهله ، وهو من أشد الادلة على ما بلغ بالطاغين من روح الطغيـــان وعلى مبلغ ما وصلوا اليه من انحطاط فى الخصومة بل من بعد عن الانسانية

كان أول ما شكا منه محمد أحمد عرابي الى برودلى ما يتعرض له هو وأمه واسرته من اهانات متصلة على أيدى بعض خدم الخديو وأتباعه ، وقد أشار الى ذلك برودلى ـ كما أسلفنا ـ عند كلامه على لقائه نجل عرابى وذكر بلنت فى صدد الكلام عن أوراق عرابى أن زوجته وأهله لم يسمحوا لمحاميه ومن معه بالبحث عنها الا بعد

لاى ؛ وذلك لانهم فيما كان يحيط بهم من ارهاب قد سبقت لهم كذلك بعض « الزيارات » من جانب خدم الخديو وأعوانه ...

ويذكر برودلى فى كتابه ما يأتى : «عند دخولنا القاهرة كان قد تحطم أثاث عرابى كله أثناء البحث عن أوراق تثبت ادانته وخيانته ، وقد تمزقت الفرش والوسائد. وكانت الليدى سترانجفورد قد طلبت أن تأخذ المنزل ، وأعطاها الخديو اياه ، ولست أدرى كيف استولى عليه؟ وكانت حجراته الفسيحة المرتفعة التى كانت قبل ذلك ثلاثة أشـــهر تزدحم بالمعجبين ملائمة كل الملاءمة لما استعملت فيه الآن »

وكانت هـــذه السيـــدة قد أحالت بيت عرابى الى

مستشفى وقد امتلأت حجراته بالجرحى من ضباط الانجليز وعساكرهم ، ومما يذكره برودلي أن بعض خصوم عرابى قد خوفوا هذه السيدة من قطة سوداء كبيرة ذات ذيل أبيض كانت لا تزال تفشى البيت كأنما تبحث عن سكانه السالفين ، وكانوا يحدثونها عما بثه عرابى فى المنزل من الارواح الشريرة ، ولكن عرابى وقد علم بذلك من برودلي ارسل اليها صورته وشكرها على عملها الانسانى قائلا: انه ليس أحب اليه من ان يستعمل بيته فيما استعمل فيه ...

وقالت أخت الخديو ذات مرة لصديقة من صديقات الليدى سترانجفورد : ليت عرابى يصيبه المرض فينقل الى هذا المستشفى لنعطيه فنجانا من القهوة على الطريقة الشرقية ...

وامتدت قسوة خصوم عرابى الى المرضى والاطفال المرضى ، فقد أصاب المرض طفلا له ، فلم يجرؤ طبيب وطنى على التقدم لعلاجه ، ونحب أن ينظر فى هذا الذين أنكروا منه أن يستعين بمحامين من الانجليز ...

ولما ضاقت السبل بنجله محمد ، ذهب الى مستر برودلي وشكا اليه هذا الاضطهاد ، وارسل برودلي الى طبيب انجليزى صديق كما أرسل نابيير الى طبيب الليدى سترانجفورد ، فذهبا من فورهما لمعالجة الطفل وأديا هذا العمل الانسانى الذى أحجم عنه الاطباء المصريون فكان احجامهم مثارا للغط جديد من جانب القصر اذ قال شيعة الخديو ان فى ذلك لدليلا على أن عرابى ليس يحبه أحد ...

أما الذين يشايعون عرابى فقد رأوا كما يذكر برودلى فى هذا العمل دليلا على قسوة خصومه ... وتجادل الطبيبان على صفحات الجريدة الطبية الانجليزية فيمن

كان له منهمـــا شرف معالجة ابن عرابى وتخاصـــما فى ماهية المرض الذى ألم به .

واهتمت جريدة التيمس نفسها بالامر فنشرت كلمة بعنوان « طفل عرابى » قالت فيها : « ترى الصحيفة الطبية الانجليزية أن طفل عرابى الذى أصيب بمرض قيل انه خطير ، والذى أحجم الاطباء المصريون لاسباب سياسية عن معالجته مصاب بتهيج فى الجلد وقد تبين ذلك بعد عرضه للعلاج على أطباء بريطانيين » .

ولا يستطيع المرء أن يتصـــور كيف تصـــل القسوة ببعض بنى الانسان الى حد أن يجعلوا اســعاف طفـــل مريض عملا يجلب الغضب على صـاحبه ، ولولا أن راى الاطباء المصريون ذلك ما أحجموا عن معالجة هذا الطفل المسكين ، وفى هذه المسألة وحدها ما يكفى لبيان مبلغ ما كان يحيط بعرابى وأهل عرابى من اضطهـــاد ومبلغ ما كان يشيع فى مصر كلها من ارهاب .

وهكذا يتنكر الناس لعرابى عدا الفلاحين والعامة فقد كانت قلوبهم معه وان لم يملكوا له عونا ، وكثيرا ماكانت تطوف جماعات منهم بسجنه ، يتطلعون ولا يتكلمون ولا يرون شيئا الا الحراس من الانجليز ، فينصرفون وهم يدعون الله أن ينقذه من الموت ...

زاره ذات صباح مستر برودلى فوجده فى شـــغل بكتابة مذكراته التى كان يكتبها فى ثبات ويقين ونشاط ، يقول مستر برودلى : « ثم وجه عرابى الحديث الى فجاة قائلا : أتحب أن أريك برهانا على أن شعب مصر كان معى ؟ انظر هنا ... وأخذ بذراعى وقادنى الى نافذة فرأيت خلال ثقوبها عددا من النساء والصبيـــة يبكون على الجانب الآخر من الشارع وكان يزداد الازدحام شيئا فشيئا كل يوم حتى ليضطر الحراس الى تشتيتهم

ولم أر عرابى أكثر ضيقا مما رأيته عند ذاك »

ويقول برودلى : ان كثيرا من الاوربيين كانوا يعطفون على عرابى فى سجنه ، وقد أرسل محاميان ، أحدهما انجليزى ، والثانى فرنسى ، الى برودلى يقترحان بعض أوجه الدفاع عنه ، وكانت سيدات أمريكيات يتنافسن بغية الحصول على صورته وكن يرسلن اليه تحياتهن ، راجيات له الخلاص من اعدائه .

# مهزلة المحاكمة

عقدت لجنة التحقيق أو القومسيون المخصوص كما كانت تسمي أولى جلساتها فى ١٠ أكتوبر برئاسة اسماعيل أيوب باشا وبدأت أعمالها باستجواب أحمدعرابى باشا، وقد استغرق استجوابه ثمان جلسات وامتد بضعة أيام وكان مما تريد اللجنة أن تلصقه بعرابى من التهم تدبيره مذبحة الاسكندرية ثم احراقها بعد اطلاق مدافع الانجليز على الطوابى ، وعدم مراعاة القانون الحربى الخاص برفع الراية البيضاء ، وعصيان الخديو ...

واستجوبته اللجنة أياما فلم تستطع أن تقحمه فى مسألة واحدة ، وأن من يطلع على محاضر استجوابه ، ليزداد اعجابا به وادراكا لحقيقة شخصيته ، فلم يتنصل عرابى من حادث ، وترفع أن يكذب أو يداجى أو قل انه بطبعه لم يستطع ان يكذب ، هذا الى حضورذهنه وقوة بديهته ومتانة حجته وشجاعة قلبه ، ولولا أن هذه المحاضر تقع فى قرابة مائتى صفحة ما تركنا منها كلمة واحدة الا أوردناها ، وقصارانا ان نلم بأهم ماجاء فيها..

ناقشته اللجنة فى الجلسة الاولى فى مظلمته الى رياض باشا بشأن عثمان رفقى ، فأجاب بما لم يخرج عن كلامه وقت تقديم هذه المظلمة ، وكذلك كان الحال فى اجابته عن حادث قصر النيل وقال : ان الخديو أصدر عفوه

هما وقع فكأنه لم يكن ...

وسئل عن ذهابه بالجند الى قصر الخديو « ولماذا تجاسر على هذا الفعل المضاد للنظام العسكرى » يوم عابدين ؟ فأجاب بقوله : « ان الاسباب التى دعت لذلك هى عدم الاخذ بالعدل والمساواة فى المعاملات شأن البلاد التى لم يكن فيها قوانين ، أو فيها قوانين ولم يراع فيها الاجراء على مقتضاها فلذلك اعتمد أعيان البلاد على ابنائهم رؤساء العسكرية وتاقت أنفسهم الى تشكيل مجلس نيابى بالبلاد يحفظ لهم حقوقهم ويدفع عنهم ما ألم بهم من المظالم ... فاجمعوا أمرهم على ذلك وتحرر منهم بذلك عرضحالات وختم عليها نحو الف من عمد واعيان وتجار وغيرهم ولخوفهم من البطش بهم أنابونى مع اخوانى الضباط فى عرض طلباتهم لاننا اخوانهم وابناؤهم وهم أهلونا يضرنا مايضرهم وينفعنا ما ينفعهم »

ووجهت اليه اللجنة سؤالا فى غاية السخف هذا نصه : « لو فرض أن الحضرة الخديوية لم تسلم بهذه الطلبات فماذا كان يحصل ؟ » وما أعجب وأغرب أن يسأل المرء عن شىء لم يحدث ! وان هذا فى سخفه ليذكرنا بقصة الخجول الذى سأل عروسه أيحب أخوها التفاح ؟ فلما ذكرته أن ليس لها من أخ عاد فسألها : « أقصد اذا كان لك أخ أكان يحب التفاح ؟ »

ورد عرابى على سؤال اللجنة بقوله : « لا لزوم للفرض والتقدير لاننا واثقون بكرم الخديو ووفائه بوعده »...

واتهمته اللجنة بانه نادى مع المنادين بخلع الخديو فى اليوم التالى لسقوط وزارة البارودى ، فانظر الى اجابة هذا الرجل الذى رماه خصومه بالجبن قال : « مما توضح يعلم انه لشدة تأثير اللائحة المذكورة التى قبلها الجناب الخديو ، ما كان يمكن قبولها ولو أدى ذلك الى

خلع الخديو وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى »...

وسئل لماذا لم يغادر مصر مع علمه بقبول الخديو اللائحة ، فأجاب فى شجاعة بقوله : « ان أفكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الامة منعتني من ذلك ، وأما ما ذكر من لزوم موافقة النظار للحضرة الخديوية لما لها من الامتيازات الخاصة فذلك لا يكون أمرا لازما فى الحكومات الشورية خصوصا وان جنابه الكريم أوجب على نفسه جعل الحكومة شورية وأن يشترك مع نظاره ونواب البلاد فى الرأى ، ولحرص النظار على تلك الامتيازات وما رأوا فى قبول تلك اللائحة من التدخل فى الامور الادارية ومس الامتيازات المصرية لم يصر قبولها كما تقدم الايضاح بالاجوبة السابقة » .

وسئل عن رفضه ما أشار به عليه درويش باشا من الذهاب الى الآستانة فقال : « قلت له انى أود ذلك بل هو أعظم شيء أتمناه ولكن لتعلق الناس بى وازدحامهم على فى كل وقت بحيث أنهم لايمكنوننى من تناول غذائى الذى هو من الزم ضرورياتى المعيشية الا بمشقة ، أخشى أن يحولوا بينى وبين ذلك اذا علم لهم أنى أريد السفر الى خارج القطر لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر فى المستقبل ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية » .

وانتقلت اللجنة الى مأساة الاسكندرية فاتهمت عرابى بانه أرسل تعليمات الى وكيل الجهادية بابعاد الشبهة عن الاهالى والعساكر وهذا ما يفهم منه أن الحادثة « اما أن تكون بأمركم أو بتعليماتكم » ...

ونفى عرابى ان يكون حادث كهذا من تعليماته وهو الذى يحافظ على الامن حرصا على سمعة مصر ، وكان اتهام اللجنة ضعيفا جدا فى هذا الحادث فلم تجد لديها الا كتابا من عرابى كان قد أرسله الى وكيل الجهادية

المنتدب فى لجنة تحقيق ذلك الحادث فتلته عليه وسألته هل له علم به وكيف يقول مع ذلك انه لم يرسل تعليمات؟

والذى يدعو الى الدهشة حقا أن هذا الكتاب مما يصح أن يقدمه عرابي دليلا على براءته وهذا مما يدل على تخبط اللجنة وأنها كانت تريد مجرد الاتهام لعلمها أن الحكم فى نهاية الامر معروف ، فلم يكن الفرض الوصول الى الحق وانما هو تحقيق صورى فحسب..

وقد جاء فى هذا الخطاب قول عرابي : « ولا تقبلوا كل ما يقال فى جانب الوطنيين والحكومة من غير تدقيق وبحث طويل وتحقيق تعرفون صدقه وعدم تصنعه ولا تميلوا بجانبكم لاحد من أعضاء اللجنةخشية أن يخدعكم ويستميلكم لامر ظاهره الاصلاح وباطنه الفساد... وأما ما يلزم للمراقبة العامة فيلزم أن تلاحظوا البلد وأخبارها وتتأكدوا مما تسمعونه وترونه وتبادروا بابلاغنا أولا بأول عن جميع الاعمال » .

وأجاب عرابي بقوله : « نعم صدر منى هذا الخطاب الذى هو عبارة عن الاخذ بالحزم فى اظهار الحقيقة والعمل بالحق وليس فيه ما ينكر عليه » ...

وسئل عن سبب اصراره على عدم ابطال التجهيزات بالطوابى وعدم امتثاله لامر الخديو فقال : « أنه على حسب العادة السنوية كان جارى ترميم بعض طوابى الاسكندرية ولما ورد تلفراف من الحضرة السلطانية الى الحضرة الخديوية بناء على تبليغات سفير انجلترا بالاستانة بابطال انشاء تجديد استحكامات الاسكندرية اذ يعد ذلك تهديدا للمراكب الحربية الانجليزية ، وصدر أمر الخديو بذلك ففى الحال صار ابطال الترميمات وتعيين من لزم من رجال المعية لمشاهدة ابطال العمل» .

ومن أهم ما سئل عنه فى الجلسة سبب رفضه أمر

الخديو وعدم مجيئه الى الاسكندرية وتلى عليه كتاب الخديو الذى استدعاه فيه ، فأجاب عرابى فى صراحة وشمم قائلا : « ان الحرب التى حصلت لم يسبق لها مثيل اذ هى خارجة عن حد القياس حيث أن الحرب المذكورة ما صار اجراؤها الا بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من النظار والذوات الاختياريه تحت رئاسه الحضرة الخديوية بحضور أعضاء الوفد العثمانى، فكان اجراؤها على مقتضى الحق والقانون . ثم بعد خروج العساكر من الاسكندرية توجه الجناب الخديو من سراى الرمل الى داخل الاسكندرية التى تركها أهلها والعساكر ، فلمابلغنا ذلك تحقق لنا أن انتقال جنابه العالى الى الاسكندرية مع حدوث المناوشات الحربية بين مقدمات العساكر المصرية والعساكر الانجليزية اما أن يكون لاخذه أسيرا واما لانحيازه الى الطرف المحارب لبلاده ، فمن أجل ذلك كتبنا لوكيل الجهادية يعقوب باشا سامى بما حدث للمشاورة مع رجال الحكومة فى هذا الامر الذى لم يسبق له مثيل .

وبناء على ذلك صار عقد اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والامراء والعلماء وشيخ الاسلام ، والقاضى السيد السادات والسيد البكرى واعيان التجار والعمد وغير ذلك تشاوروا فيما بينهم فى هذا الامر الذى دهم البلاد واستقر رأيهم جميعا على اعطاء قرار بعدم استماع أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الاعمال حيث أنه توجه للطرف المحارب للبلاد وعرضوا ذلك تلغرافيا للحضرة السلطانية ببيان أسماء الشاهدين من اعضاء ذلك المجمع العام » .

وفى الجلسة الرابعة سئل عن صلته بنديم وهل يعلم أنه سافر الى الاسكندرية قبيل المذبحة فاثار فيها الفتنة

ومما كان يكتبه بجريدته «الطائف» وأجاب عرابى بأنه لم يعلم بإثارة الفتنة ولم يكن له أن يمنع نديم عن كتابة ما يشاء فى جريدته ...

وسئل عن سبب اختفاء حسن موسى العقاد فأجاب بقوله : « يؤخذ من هذا السؤال انى أسأل عن كل من غاب من الناس ولم يوجد ، مع انى لست بمأمور عليهم ولا مسئول عنهم »

وسئل عن صلته بحليم باشا وهل وصلت اليه من الآستانة صورته ؟ فأجاب « بأنه وصلته صورة منه وأن كثيرا من النـاس وطنيين وأجانب كانوا يرسلون اليه صورهم ...

ووجهت اليه اللجنة هذا السؤال : « لما كنت بكفر الدوار هل صدر منك تلغراف الى كل من راشد باشا قومندان خط الشرق ومحمود فهمى باشا رئيس أركان حرب بردم قناة السويس المالح وسد الترعة الحلوة ؟ »

وأجاب عرابى بقوله : « التـلغرافات التى تداولت بينى وبين المسيو دى لسبس تعلن وتؤكد احترام قناة السويس مادامت على الحياد ولم تتخذ فيها أعمال حربية فلغاية دخول السفن الحربية الانجليزية فى قناة السويس وحدوث الضرب منها فى الاسماعيلية على العساكر التى كانت بجهة نفيشة كان قد حدث احترام القنال المذكور، ومن بعد ذلك حيث اتخذ القنال المذكور ميدانا للحرب ولنا الحق فى كل ما أمكن اجراؤه من الاعمال الحربية ، اذ ذاك تحرر لرئيس أركان حرب محمود فهمى باشا بتلك الجهة باتخاذ ما يمكن اجراؤه من التدابير الحربية وسد الترعة الحلوة لما صار اعلان المسيو دى لسبس بأن الحالة الحربيـة أرغمتنـا على ذلك لعـدم احترام الانجليز لحياد القنال »

وسئل عرابى عن المجلس العرفى من شكله فلم يتنصل منه وقال ان الذى شكله وكلاء النظارات بموافقته

واهم ما وجه اليه فى الجلسة الخامسة أن ما سماه مساعدات من جانب الامة لم يكن الا اجبارا لها على ذلك بالقوة فاجاب : « قد قلت فى أجوبتى المتقدمة فى هذا الخصوص أنه لايتصور احد اصلا حصول تهديدات بمجلس مؤلف من اعيان الامة المصرية ورؤسائها ونبهائها يزيدون عن ٤٠٠ نفس كما أن المساعدات والتبرعات التى كانت ترد للجيش المدافع عن البلاد مدافعة شرعية لم تكن بتهديدات أيضا بل من الناس من تبرع بنصف ماله ومن الناس من تبرع بماله كله ابتغاء مرضاة الله وغيرة على الوطن ، ومنهم موسى بك مزار تبرع من ماله بثلاثة آلاف أردب غلال و٣٠ راس من الخيل وألف ومائتى ثوب بفتة تبرعا لمساعدة الجيش اذ أن الحرب الشرعية اما أن تكون بالنفس والمال ، أو بالمال فقط أو بالرأى ، ومنهم حميد بك أبو ستيت تبرع ب ١٥٠٠ اردب غلال ،

ومن ضمن من تبرع وافتتح باب المساعدة دوائر العائلة الخديوية وفى مقدمة الجميع دائرة والدة الخديوالسابق وأغلب الذوات تبرعوا أيضا ، ولواستكشفت التلغرافات التى كانت ترد من جميع أهالى المديريات حتى من مديرية اسنا بدون واسطة مديرياتهم يعلم أن الامة المصرية كلها كانت محاربة بمالها ونفسها ، ورأيها متفق على ذلك ولو استكشفت قوائم التبرعات لعلمت انه لم يتأخر أحد من أولى الرئاسة فى المساعدة ، ومن ضمنهم دائرة سعادة خيرى باشا حالة كونه لم يشهد الحرب بل كان فى الاسكندرية مع الخديو عند الانجليز ، ومن ضمنهم دائرة دولتو رياض باشا وغير هؤلاء ، فهل كل هذا كان رغما عن الناس ؟ ومن ذا الذى كان يرغمهم ؟

أن هذا الأمر حق تعرفه أهل البصائر الثاقبة والضمائر الحية ، وأما الذين وجدوا مسجونين فى القلعة فاظنهم لايزيدون عن مائه نفس من أرباب الجنايات المحكوم عليهم بالحبس ومحضرين من المديريات وانه لم يصدر منى اصلا امر بسجن احد فى القلعة أو غيرها ، وأما طلب ابراهيم باشا ادهم فذلك مبنى على ماحدث بطنطا بين مهاجرى الاسكندرية وبين الاوربيين ، كما أن شاكر باشا وغيره لم يكن عزلهم من المديريات التى كانوا بها الا بأمر المجلس الادارى لا بأمرى » .

وفى الجلسة السادسة اطلع عرابى على كتاب وقع عليه بانه رئيس الحزب الوطنى وسألته اللجنة سؤالا يدل على تعسفها ولفوها قالت : « تعلمون انه بالممالك المنتظمة ووجود الحضرة الخديوية بمقر الحكومة ، لايجوز وجود احزاب حتى تمضوا تلك المكاتبة بصفة رئيس الحزب الوطنى فهل صرح لكم من الحضرة الخديوية بذلك ؟ واذا كان لم يصرح لكم فهل جعل نفسكم رئيسا لحزب داخل الحكومة لايعد عصيانا ؟ وان كنتم ترتكنون على عدم وجود وظيفة لكم وقت تحرير هذا الخطاب أفما كان يمكن أن توضعوا فى الامضاء ناظر الجهادية سابقا كالجارى فيمن يرفتون من مأمورى الحكومة ؟ » وأجاب عرابى بقوله : « من المعلوم بداهة أن مصر آهلة بأجناس وعناصر مختلفة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزبا كما أن أهل البلاد وهم حزب قائم بذاته يعتبر عند الآخرين منحطا عنهم ويطلقون عليه لفظ فلاحين اذلالا لهم وتحقيرا وأولئك هم الحزب الوطنى وهم أهل البلاد حقيقة . وحيث انهم أنابونى عنهم فى طلب ما يكفل لهم الحرية فى حفظ الحقوق وكنت أنا القائم بطلب ذلك ولم تكن لى صفة فى الحكومة فى ذلك الوقت فوضعت امضائى بذلك

لما لى من حق الرئاسة على الحزب الوطنى وليكون ذلك ادعى لاجتناب ما يخل بأمر الراحة العامة كما هو واضح بالكتاب المذكور ولا يعد ذلك عصيانا لان كل أمة من الامم المتمدنة الراقية فيها احزاب مختلفة قائمون بحفظ حرية بلادهم والدفاع عن حقوقهم » .

وفى الجلسة السابعة وجه اليه السؤال الآتى : « قد وجد فى الاوراق التى ضبطت ورقة محرر فيها صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديو لاسباب تمويهية مخترعة فى تلك الصورة فها هى الورقة المذكورة اطلع عليها وأجب »

ونفى عرابى معرفته بهذه الورقة وقرر انها ليست بخطه وقال : انه ربما كانت مع أحد الناس وتركها على المنضدة التى كانت عليها الاوراق ...

وسألته اللجنة هذا السؤال : « منذ أيام سقوط وزارة محمود سامى كنتم جارين تحرير محاضر بمنزلكم بعزل الخديو، وجارين احضار الاهالى والعلماء لتختيمهم عليها رغما منهم واستحضارهم لمنزلكم كان بواسطة ضابطين من الآلايات واشخاص من مستخدمى الضبطية كما هو واضح من التحقيقات التى جرت بهذا القومسيون فأفيدوا عن أسباب ذلك »

وأجاب عرابى : « لما تقدمت اللائحة المقدمة من قنصلى دولتى الانجليز وفرنسا وقبلها الخديو ولم تقبلها الوزارة ، وحضر أعضاء مجلس النواب وأشيع ذلك بين الناس توافدوا أفواجا وجماعات من المديريات والمحافظات ومصر والاسكندرية لرفض اللائحة المذكورة ورفض من يقبلها محررين بذلك عرائض ومحاضر ، فهل كذلك كان كل هذا رغما من الناس ؟ وكنت أنا مرغما لهم ؟ الحق أن جميع المسلمين تأثروا لقبول هذه اللائحة وأنكروها

بل ان جميع المصريين أنكروها لما فيها من تدخل الاجانب فى أمور بلادهم الداخلية » ...

وسألته اللجنة : « الى أين توافد الناس ؟ هل الى منزلكم أو لاى جهة ؟ وهل كانت المحاضر التى يحررونها ترد اليكم مختومة أو تختم بمنزلكم وما الذى أجريتموه فى ذلك ؟»

أجاب بقوله : « كانت تأتي المحاضر مختومة وكان حضور الناس بها جهرة لا خفية وبحضور الجميع لمنزلى ولمنزل رئيس النظار محمود باشا سامى ، وكانوا يأتون بها ويقدمونها الينا اعلانا بعدم قبولهم اللائحة المذكورة ومن يقبلها ، وكان ذلك بحضور كثير من أعضاء مجلس النواب وكلهم موافقون على ذلك ، وكما قلنا أولا ، ان الامة المصرية لم تختلف فى هذه الكارثة ، وكانت تلك المحـــاضر باقية طرف أربابها وبحضور دولتو درويش باشا وتشكيل وزارة راغب باشا وصدور العفو العام صرف النظر عن هذا وذاك »

ولم يكن فى الجلسة الثامنة شيء ذو بال ، وعلى ذلك انتهت اللجنة من التحقيق ومنه يتبين أن ما وجه اليه لم يعد حد الاتهام ، فلم تستطع اللجنة أن تثبت عليه شيئا مما حاولت أن تلصقه به من عصيان أو فتنة أو حريق ، ولو أن هــذا التحقيق أجرته لجنة عادلة لمـا وجدت فيه ما يدعو الى ارسال المتهم الى المحكمة ...

واستدعت اللجنة عددا كبيرا من المتهمين ومن الشهود، وليس يعنينا الا أقوال زعماء الحركة من أصدقاء عرابى وهم : على فهمى وعبدالعال حلمى ومحمود سامى ويعقوب سامى وطلبه عصمت ومحمود فهمى... وقد نفوا جميعا كل ماحاولت اللجنة الصاقه بعرابى من التهم وخاصــة فتنة الاسكندرية وحرقها ...

أما تهمة العصيان التى وجهتها اللجنة اليهم جميعا ، فكانت تتلخص فى أنهم أطاعوا عرابى بعد ان علموا بقرار عزله ، وكانت اجاباتهم عن ذلك قوية ، اذ أنهم عللوا ذلك الى راى الامة ممثلة فى المجلس العام الذى قرر بقاء عرابى واستمرار القتال وعدم اطاعة أوامر الخديو .

وكانت اجابات كل من على فهمى وعبد العال حلمى قائمة على تصوير الوقائع صورة شرعية لا أثر فيها لعصيان الخديو ، ولكن لم يحاول أحدهما أن يسىء الى عرابى أو الى الجند بشىء ...

أما البارودى فقد أساء الى الحزب العسكرى بان نسب اليهم العنف والارهاب وقال : ان ارهابهم تناوله هو كذلك بالذات ، ولكن البارودى لم يذكر عرابى بسوء ولا اتهمه بشىء ...

ولما سئل البارودى عما يعلمه عن حريق الاسكندرية أجاب بقوله : « هذه المسألة شنيعة جدا وكل الناس وبالجملة أحمد عرابى استقبحها »

ومما يعاب على البارودى أنه حاول التنصل من مسألة اعترف بها أكثر المتهمين ولم يجدوا فيها ما يدعو الى التنصل منها وهى مسألة القسم الذى أدوه بقشلاق عابدين والذى تلى عليهم صيغته الشيخ محمد عبده ، ولما واجهته اللجنة بالشيخ محمد عبده قال البارودى ان الشيخ محمد عبده يكذب ، ولما واجهته بيعقوب سامى باشا عاب عليه يعقوب باشا انكاره وذكره بأنه كان حاضرا واقسم مع من أقسموا ، فاضطرب البارودى وناقض أقواله السالفة ...

واعترف محمود فهمى بانه أسلم نفسه للانجليز طائعا ، وهذا يتفق مع رأى عرابى فى هذا الحادث . قال محمود باشا : « أما أنا وخادمى فمسكنا ضفة الترعة البحرية

قاصدين المحسمة فسألني خادمي عن قصدي فقلت له اننا سنتوجه لطرف الانجليز وأمرته بقطع غابه وتعليق منديل أبيض فيها ، وحدث ذلك وتوجهنا ودخلنا عند الانجليز فى مقدمة جيشهم فقابلنى ضابط انجليزى يعرف الفرنسية ولما رآنى أرتدى ملابس ملكية قال لى : أنت شيخ البلد ؟ فقلت له : نعم » .

وسألته اللجنة : « لماذا كنت ترتدى ملابس ملكية ؟»

فأجاب بقوله : « لانى لم أكن أريد الحرب ، فلوكنت أريد الحرب كنت ارتديت ملابسى الرسمية وطبنجتى وحاربت » ...

ولما سئل محمود باشا فهمى عما يعرف عن حريق الاسكندرية ، شهد أن عرابى اهتم بالامر ولم يرض عنه وارسله فى طلب سليمان سامى فلما حضر سليمان نهره عرابى وقال له : « انى برىء مما فعلته »

ومما يجدر بنا الاشارة اليه فى هذا المقام بعض أقوال الشيخ حسن العدوى وكان شيخا يشرف على الثمانين فلم تفل السن ولا السجن من شجاعته شيئا ، ولندع برودلى يقص علينا ماشهده من بسالة هذا الشيخ الجليل الذى يسجل له ولامثاله ما يشهد له التاريخ المصرى..

قال برودلى : « وفى صوت كصوت الرعد سال اسماعيل أيوب باشا الشيخ الضعيف الطاعن فى السن الم يوقع ويختم بخاتمه على قرار يقضى بأن سمو الخديو توفيق باشا يستحق العزل ؟ وظهر على حسن العدوى كأنما استعاد حمية شبابه ، واتكأ على المنضدة وبسط يده وثبت نظره فى وجه أسماعيل أيوب وقال : أيها الباشا لم أر الورقة التى تتحدث عنها ولايمكننى أن اقول شيئا عما اذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولكنى أقول لك ما يأتى : انك اذا أحضرت الى ورقة

تحتوى على مثل المعنى الذى ذكرته فانى أبادر بالتوقيع عليها وختمها بخاتمى فى حضورك الآن ، وهل اذا كنتم مسلمين هل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا وقد خان بلاده وذهب الى الانجليز لم يعد يصلح للحكم ؟ »

ولو أن قذيفة القيت فجاة وسط الحجرة ما أعقبت من الوجوم والفم مثل ما أعقبته كلمات ذلك الشيخ ، لقد ظهرت الصفرة فى وجنتى أسماعيل أيوب السمراوين ولم ينبس أحد ببنت شفة ، ثم طلب الى الشيخ فى رفق أن يبرح الحجرة ، ولم يفكر أحد بعدها فى استجوابه قط ، وبعد بضعة أيام أطلق سراحه على شرط أن يذهب الى قريته حيث لا تكون له صلة بعد بتاريخ مصر» (١)

وكذلك يخلق بنا أن نشير الى جراة أحمد رفعت بك وحسن دفاعه ولندع كذلك برودلى يتلو علينا بعض ما رأى من ذلك ، قال : « .. وبعد تبادل التحيات وتقديم القهوة والسجائر، دخل رفعت وكان يبدو فى حالة عصبية شديدة وجلس على كرسى بجانبى واظن انى أسأت الى ولاء الاعضاء بمصافحته ، ولن انسى أبدا التماع الشر فى عينى اسماعيل أيوب حين تناول عددا قديما من جريدة « الطان » (٢) كان يحتوى على مقارنة صريحة لا مجاملة فيها بقلم أحمد رفعت بين المدنية الفرنسية والرصاص الانجليزى ، وقال رئيس اللجنة يخاطبنى : ياصديقى العزيز ، أظن أنه يجب أن نتنحى عن الدفاع عن مثل هذا الرجل بعد هذا ، والقى الى بالصحيفة ، وقرأت المقال وكتبت على ورقة صغيرة : « لو اننى كنت فى مكانه لفعلت مثل ما فعل » ..

وسال رئيس اللجنة المتهم عن برقية فى تلك الصحيفة فيها دفاع عن عرابى اذا كان هو مرسلها ؟ فقال رفعت

---

(١) How we defend Orabi P. 370

(٢) Temps

بك : « نعم .. وذلك بأمر مجلس الامة الذى كنت أنت نفسك عضوا فيه » ...

وقال الرئيس : « انى أنفى نفيا قاطعا انى كنت حاضرا أثناء بحث هذه المسألة »

وأجاب رفعت ، فكان مما جبه به الرئيس قوله : « لست أتذكر ما اذا كنت سعادتك قد وقعت على سجل الجلسات ولكنى أذكر أنك ذهبت معى يوم الجمعة ١٨ أغسطس فى قطار خاص وكان بصحبتنا رؤوف باشا ، وعثمان باشا فوزى وحسين باشا الدرمللى ، الى عرابى بكفر الدوار لتعبر له عما ترجوه له من نجاح » ...

وقال الرئيس محتدا : انى أمنعك عن الكلام لولا انك تتكلم عنى ، وعاد رفعت يذكره انهم جميعا تناولوا الغداء مع عرابى ، وأن طلبة طاف بهم على خطوط الدفاع وأنه ـ اى الرئيس ـ تمنى وهو الجندى القديم لو أتيح له الاشتراك فى القتال ، وفطن الرئيس الى ما يرمى اليه رفعت فى دهاء وكياسة ، فقال : ان كل انسان يعلم انى ذهبت الى هناك بما فى ذلك الخديو وكان هذا بدافع حب الاستطلاع ...

وأحس الرئيس كذلك أنه صار فى مثل موقف المتهم فتدارك الامر وسأل رفعت عما اذا كان ماجاء فى البرقية من أفكاره ، وأجاب رفعت بقوله : « نعم من أفكارى ، كما أنها من أفكار كل امرىء سواى »

وسأله الرئيس :كيف سمح وقدكان مديرا للمطبوعات أن تنشر جريدة «الطائف» مقالات فيها طعن على الخديو ، فكان مما أجاب به رفعت : « ان ما قالته جريدة الطائف وما قالته غيرها من الصحف كان نتيجة لقلق الرأى العام من مسلك الخديو بعد انعقاد المجلس العام مرتين بوزارة الداخلية ، وأن جريدة الطائف عبرت عما اعتاد أن يقوله

حتى الصبية فى الشارع » . وسأله الرئيس : هل معنى ذلك انه يقر ما جاء بتلك الجريدة ؟ فأجاب رفعت فى شجاعة : « لقد تقرر فى المجلس العام الذى انعقد بوزارة الداخلية والذى شهده العلماء والقواد والاعيان أن الخديو خرج على الشرع المقدس ، وحيث انى مصرى فلم يكن فى وسعى أن أخرج على ما أجمع عليه النـــاس فأعاقب جريدة الطائف مخالفا بذلك ما فى نفسى » . ووجه اليه الرئيس هذا السؤال : « لقد ذكرت من قبل أن الخديو أمرك أن تحضر بعض السجلات وانك آثرت أن تتبـــع أوامر عرابى فكيف تفسر ذلك ؟ » .

وكان مما أجاب به رفعت قوله : « حيث ان عرابى كان ناظر الجهادية والبحرية ، وكانت السجلات المذكورة تتصل بعمله فقد ذهبت اليه لابلغه بامر الخديو ، ثم أسلمها لسموه ، ولكن عرابى باشا أمرنى الا أسلمها له قائلا انى مسئول شخصيا اذا فعلت ذلك ، فكتبت فى الحال لمحمد بك خليـــل أبلغه بذلك ولم اتلق الا جوابا شفويا » .

وبعد يومين استؤنف استجواب رفعت بك ، ويذكر برودلى أنه دخل قاعة الجلسة هذه المرة وليس يبدو عليه شىء من الاضطراب ...

وأطلعه الرئيس على صور لبرقيات أرسلت الى الآستانة وسأله عنها ، فقال رفعت : أن المجلس العام كان يريد ابلاغ الباب العالى بكل شىء ، وأن برقية منها كتبت بموافقة رؤوف باشا (١) وأنه يعتقد أنها لم تصل الى غايتها بسبب قطع الاسلاك .

وسأله الرئيس عما اذا كان ما جاء بهذه الاوراق يتفق مع آرائه ، أم أنه أرغم على ارســـالها ؟ وعاد رفعت

(١) رئيس المحكمة العسكرية .

يؤكد ان البرقيات انما ارسلت بقرار من المجلس الذى كان يمثل الرأى العام فيه أعضاء برجع صبت بعضهم الى عهد محمد على ، وانه لم يرغم على شيء ...

وقال الرئيس أنه يرى من احدى البرقيات أنه تقرر ردم قناة السويس فهل كان ذلك من راى المتهم ؟ وأجاب رفعت بك بأنها كانت ضرورة قضت بها الحرب وأنه يأسف لذلك ...

ووجه اليه الرئيس هذا السؤال : « جاء فى احدى البرقيات المرسلة الى القسطنطينية أن المجلس العام امر محافظ السويس بأن يبلغ الادميرال الانجليزى ان المجلس القائم بالقاهرة هو وحده الحكومة الشرعية فى مصر، فهل كانت هذه عقيدتك ؟ »

وأجاب رفعت بشجاعة : « لقد قلت فى اليوم السابق أن قوة سمو الخديو قد أوقفت بمقتضى قرار المجلس العام الذى عقد فى القاهرة والذى تألف من كبار المصريين من العاصمة ومن البلاد ، وبناء على ذلك أصبح هذا المجلس هو الحكومة الحقيقية لمصر وقد أيدته وعضدته الامة كلها واضطلع بالدفاع عن الوطن » .

وسأله الرئيس : « هل وقعت على هذا القرار؟ وهل كان هذا باختيارك ؟ » فقال رفعت : « وقعت عليه بمحض ارادتى ولم أجبر انا ولم يجبر أحد غيرى على التوقيع » .

ورفعت الجلسة على أن تعقد فى اليوم التالى ، وكان احمد بك رفعت قد أدلى بأقوال للجنة قبل مجيء مستر برودلى فيها مطاعن واتهامات لرجال الجيش بأنهم لجأوا الى العنف والتهديد وأنه كان مرغما على ما فعل ...

فلما عقدت اللجنة فى الموعد المحدد ، سأله الرئيس عن سبب تناقض أقواله وطلب اليه أن يبين وجه الحق

فقال : « اذا سمحت لى أن أتكلم فى صراحة فانى اشرح هذا التناقض ، وان هذا حق يسمح به لاى مجرم عادى وأنا أطالب به » .

وقال الرئيس : « يمكنك أن تفعل ذلك اذا التزمت بالمسائل التي يدور حولها الكلام » .

وأجاب رفعت : « لقد عوملت أسوأ معاملة فى السجن فان ابراهيم أغا توتونجى ... »

وقاطعه الرئيس قائلا : « كف عن هذا ... ليس هذا هو الموضوع ، ونحن نعلم جميعا انه لم يشك من توتونجى الا عرابى وعبد الغفار » .

ورد السير شارلز ولسن قائلا : « ليس الامر كذلك وانى أشعر أن واجبى يقضى على أن أقول انه اثناء زياراتى الاسبوعية سمعت من جميع المسجونين تقريبا شكواهم من زيارات هذا الرجل ومن اساءاته » .

واستدعى الرئيس المسيو بورلى المستشار القضائى للحكومة وسأله مستر برودلى عما اذا كانت المحكمة ملزمة بأن تسجل اجابة المتهم كلها ، وأجاب بورلى أنها ملزمة ولكن يجب عليه أن يوجز .

ومضى رفعت فقص على اللجنة ما لقيه من اهانة وتهديد بالموت فى سجنه وقال : انه عقب ذلك استدعى للوقوف أول مرة أمام لجنة التحقيق .

***

قضت اللجنة نحو شهر ولم تضع يدها بعد هذه الاستجوابات على شيء تدين به عرابى ، وكانت أكثر أسئلتها للمتهمين جميعا ترمى الى ادانة عرابى وبعد ذلك يحق عليهم بالتبعية ما حق عليه ...

وكان برودلى ذات ليلة عقب الفراغ من استجواب رفعت عند عرابى ، فقص عليه عرابى أن شيئا ذا بال

حدث فى مقر اللجنة ، وذلك أنه بعد مغادرة السير شارلز ولسن السجن عاد أعضاء اللجنة فاجتمعوا بعد أن كانوا قد تفرقوا وأقاموا فى هذا المبنى حتى ساعة متأخرة من الليل ، واستطاع عرابى أن يسمع أن اجتماعا عقد فى الحجرة المجاورة وانه استمر بضع ساعات كما استطاع أن يرى من بين الواح الخشب فى نافذته أن رسلا من القصر كانوا يجيئون ويذهبون (١) ... وارتاب عرابى فى أن شيئا يدبر ..

وسمع برودلى مثل هذا الذى ذكره عرابى من رفعت ومن سجين آخر هو خضر بك خضر ، وظل فى حيرة الى أن علم من الحراس أن سليمان سامى استجوب فى مقر اللجنة ساعات متوالية ، فطلب برودلى من المسجونين أن يكتبوا له ما سمعوا وانطلق الى مسكنه ضائق النفس بما أيقن أنه يدبر فى الخفاء ...

وكان سليمان سامى قد أحضر من كريت فوصل الى الاسكندرية فى ٩ نوفمبر ، وظل تحت مراقبة أعوان الخديو منذ أن بلغ الاسكندرية حتى دخل السجن فى بناء الدائرة السنية فلم يتصل به أحد قط ، وذلك أنه اتفق معه على أن يكون شاهد اثبات !

فقد طلعت جريدة الاجبشيان جازيت بعد ٣ أو ٤ أيام من حضوره تعلن للنـاس نبأ مدهشا ، وذلك أن سليمان بك سامى اعترف بأنه أحرق الاسكندرية وانه فعل ذلك بأمر من عرابى باشـا ألقاه اليه على مرأى ومسمع من بعض الناس ، واعترف كذلك بأمر أعظـم خطرا ألا وهو أن عرابى أرسله ليقتل الخديو بقصره فى الرمل ، ولكنه قابل وهو فى طريقه الى القصر ، كلا من سلطان باشا وحسن باشا الشريعى ، وحالما رأى هذين

---

(1) How we defend Orabi P. 257

الرجلين ثاب الى رشده وندم على أعتزامه ما أعتزم واعترف لهما به ، ثم عاد أدراجه ...

قال برودلى : « وكان لدى ما قاله فى التحقيق كل من سلطان وحسن الشريعى فلم أجد فيه أقل اشارة الى شىء من هذا الذى لو أنه حدث لذكره سلطان على الافل اذا كان لديه أى سبيل لتأكيده » .

وكتب برودلى الى اسماعيل أيوب باشا يحتج ويذكر أن ما حدث فى غير حضوره يخالف ما اتفق عليه ولذلك فهو لا يتقيد بهاتيك الاقوال التى جاءت على لسان سليمان ويعدها كأن لم تكن .

وفرح رجال القصر وأعوان الخديو فرحا عظيما ، ولكن فرحتهم لم تطل ، فان جميع من ذكرهم سليمان سامى فى كلامه عندما واجهوه فى اليوم التالى أمام اللجنة رفضوا أن يشايعوه فيما ذهب اليه ، وأنكر حسن الشريعى وكان سجينا رواية سليمان ، كما أنكرها سلطان باشا كل الانكار ...

يقول برودلى : «وكان أحد الاوربيين من اشد الناقمين على الحركة القومية حاضرا عندما جاء وفد من قبل اللجنة يسأل سلطانا فى داره عن رواية سليمان ، ونفى سلطان نفيا باتا حدوث ما سئل عنه فقال زائره الاوربى: يا للأسف .. ان اجابة مخالفة لهذه كانت تحسم الامر كله » .

ويعقب برودلى على ذلك بقوله : « فهل كانت تؤلم بقية من الضمير عقل سلطان باشا فى أواخر أيامه ؟ انى أظن ذلك »

وكان يرد الى برودلى رسائل من مجهولين مما يدل على مقدار ما كان يساور الناس من خوف ، ومن أعجبها رسالة يعزوها برودلى الى أحد الاعضاء الماسونيين ،

قال مرسلها : « عزيزى الأخ : النصر للحق ! أتشرف بابلاغك أن سلطان باشا ينفى انه راى سليمان سامى فى طريقه الى قصر الرمل ، وقد أفضى الى كثير من الناس أخيرا بأن عرابى لم يحرق الاسكندرية ولا أصدر أمرا باحراقها وذكر ايضا أنه تحقق من ذلك بنفسه حينما ذهب الى عرابى ليتحدث اليه بشأن الجند الذين احاطوا بقصر الرمل يوم ١٢ يوليو ، فانه وجد عرابى خارج الباب الشرقى يسخط بأعلى صوته على أعمال النهب والحريق ويعنف الجند على ما حدث حتى لقد أخذ من أيدى بعض الجند ما نهبوه وأمر باحراقه ، وسأله سلطان من فعل هذا ؟ فأجاب عرابى انهم يقولون انه سليمان سامى ... ارجو منك أن تزور سلطان ، فان لديه الكثير مما يريد أن يقوله لك .. حقا انه فى انتظارك ، وسوف يؤكد لك ما أقوله الآن ... احرق هذا ولك الفضل .. من أخيك ؟ »

ويقول برودلى : « أما عرابى فلم يبد عليه أنه اهتم كثيرا بما أتهمه به سليمان ولم يؤلمه الا شدة شعوره بما يحيط به من خيانة هو ضحيتها .. قال : انى لم يعلم عنى قط انى أسأت أو الحقت الضرر بأى مخلوق، وقد كنت أحرس الخديو فى القاهرة مدة ثلاثة أشهر حراسة شديدة يوما بعد يوم ، ولو كنت أردت مرة أن أقتله لكان ذلك فى وسعى فى أية لحظة ، فلماذا أفكر فى قتله فى الوقت الذى كنت أعده من أسوأ أوقاتنا جميعا ؟ »

***

هـذا ما كان من أمر التحقيق وقد كان ما تبتغيه اللجنة اثبات التهم التى ذكرناها على عرابى ، ولكن برودلى كان من ناحيته يعد كل ما فى وسعه للدفاع لا

عن عرابى وحده ، بل عن كبار أنصاره ...

وأول ما وجه اليه برودلى اهتمامه هو الحصول على أوراق عرابى ، ففى ٢٣ أكتوبر زار برودلى عرابى فى سجنه ، وطلب اليه ما أخفى من أوراق» ويقول برودلى انه تحدث اليه طويلا فيما يلزم من ثقة تامة بين المحامى وموكله ، وفيما ينجم من خطر اذا أخفى الموكل عنه شيئا حتى اقتنع عرابى وقال : « لكى تحصل على ما تريد لابد لى أن أرى نجلى محمدا أو خادمى محمد بن أحمد، فانه لا تزال لدى أوراق كثيرة ، بعد أن أخذت كمية منها من بيتى فى القاهرة وكمية من خيمتى بالتل الكبير» .

واستعان برودلى بالسير ادوارد مالت والسير شارلز ولسن ، حتى سمح لمحمد بن أحمد خادم عرابى بالدخول على سيده مع محاميه ، ولثم محمد يد سيده فى احترام شديد وناوله ورقة عرف برودلى أنها من أميرة مصرية لم يذكر اسمها من زعيمات الحركة القومية وقد رجت فيها من عرابى أن يعطى الاوراق المطلوبة لمحاميه ، وأمر عرابى خادمه أن يعطى الاوراق للمستر برودلى ودله على الاماكن التى يجدها فيها ، ومضى الخادم وقد وعد أن يحضرها فى الصباح بعد أن أوضح له برودلى أهمية ذلك ... وجاء الخادم فى الصباح ومعه محمد بن عرابى فقالا: ان زوجة عرابى وقد أحاط بها الخوف قد اختفت وأخذت معها الاوراق، واذ ذاك غضب برودلى وخاطبهما محتدا ، فوعدا أن يبحثا مرة ثانية ، ثم عادا بعد ساعتين ومعهما الاوراق المطلوبة ، وفرح برودلى وزميله فرحا عظيما ، وحملا الاوراق الى القنصلية الانجليزية لتكون فى مأمن وليسهر بيمان على ترجمتها ...

ويقول برودلى : « لو أن معركة الدفاع استمرت حتى نهايتها المرة لكان لهذه الوثائق التى ألقى بها عرابى

فى أيدينا أهمية عظمى فى اثبات براءته من تهمة العصيان»
كانت تحتوى هذه الوثائق على الكتابين اللذين جاءاه من السلطان على لسانى محمد ظافر وأحمد راتب .. وهما وثيقتان على أكبر جانب من الخطورة فى صدد ما اتهم به عرابى من عصيان لانهما شهادتا براءته وفيهما رضاء السلطان عن أعماله حتى قبيل هزيمته فى التل الكبير ...

وكان فى تلك الاوراق كذلك ما يثبت كما يقول برودلى « أن الامة كلها كانت معه » على حد تعبير عرابى نفسه ، فقدجاءته منمصر كلها من أقصى الصعيد الى الاسكندرية كتب عليها مئات التوقيعات من أعيان البلاد وكبرائها وعلى بعضها آلاف ، وكلها تؤيد عرابى فى رفضه المذكرة المشتركة الثانية وتقرر الثقة التامة به وبوزارة البارودى الوطنية ، وتستنكر « اللائحة ومن يقبلها » ...

وكان من بينها فتوى موقع عليها من كبار العلماء ، ومؤداها أن الخديو بقبوله اللائحة قد انحرف عنالشرع وقد أورد فيها العلماء قوله تعالى : « يا أيها الذينآمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » (١)

ويعقب برودلى على هذه الوثائق بقوله : « انها كانت أكثر مما يلزم لنفى تهمة العصيان فى معناها العادى ، وانها لتبين أنه ان يكن قد ثار فانما فعل ذلك قائدا لخمسة ملايين من الاهالى وانه كان على رأس شعب مصر كله ؟ ...

واعتمد برودلى كذلك فى دفاعه على ماكتبه له أحمد بك رفعت والشيخ محمد عبده ويعقوب سامى باشا ،

(١) أورد برودلى فى كتابه ترجمة الفتوى وترجمة الآية الكريمة

وكان ماكتبه رفعت بك والشيخ محمد عبده يدور حول معنى عام هو أن الامة فى مجلسها الشـامل قد أعلنت كلمتها وأيدت عرابى فى الدفاع عن الوطن وقررت عدم اطاعة توفيق لانحيازه الى الاجانب ، وعلى ذلك فكل عمل ينسب الى عرابى وأصحابه بعد هذا التاريخ هو عمل مشروع لانه وليد ارادة الامة ... اما يعقوب سامى فقد كان أكثر اهتمامه بنفسه ..

وأثنى برودلى على رفعت بك لثقافتـه الفرنسية ، وذكائه وذوقه الادبى ، كما أثنى على الشيخ محمدعبده وقال : ان له بين هؤلاء الزعماء مكانة عظيمة فهو أكثرهم علما وفطنة ونورا ...

وقال برودلى : انه بزيارته لرفعت بك قد ازداد أملا وثقة وذلك لما ظهر له من شجاعته ودفاعه عن زعيمه ، وتصويره اياه أنه كان زعيم شعب بكل ما تحمله الزعامة من معنى وأنه ظفر بمحبة الناس وعطفهم عليه وأن حركة مصر القومية من أقوى الحركات وأنبلها ، وان الحق سوف يظهر وسـيعرف عرابى على حقيقتـه وتتبين قضيته الوطنية للعالم ...

أما يعقوب سامى فقد انخلع عنه عزمه وكان يبكى فى سجنه ويشكو مر الشكوى مما لحقه من اهانة ، كضربه والبصق على وجهه ، وقد تنكر لزعامة عرابى وتخلى عنه فى غير خجل ، ولما ناوله برودلى كتابا من عرابى يعبر له فيه عن اهتمامه بأمره ومواساته له قال : « أرجـو أن تبلغوا عرابى أنى لا أستحق هذه الكلمات الطيبة التى يرسلها الى » .

وكان لايهمل عرابى فى سجنه أن يرد على كل ما يقع عليه من اتهام لقضيته ، وكان يعنى بالقضية العامة أكثر مما يعنى بشخصه ، وكان يبدى رأيه فى شجاعة وصراحة

جديرتين حقا بأعظم الثناء والاعجاب ، واذا كان خصومه بعد الذي قدمناه من سيرته لايزالون فى حاجة الى برهان جديد على ابائه وقوته فليقرأوا هذا الذى أرسله الى جريدة التيمس من سجنه لينشر ويذاع على العالم ، وليتدبروا ماجاء فيه عن الخديو ومسلكه ، وكان ذلك ردا على جريدة الجوائب التى كانت تعترف ببطولته ، حتى صدر قرار السلطان بعصيانه فصارت تنعته بالعاصى وقد اطلع فى السجن على مقال نشرته وفيه طعن على الحركة القومية فكتب يقول : « سيدى .. اطلعت فى العدد ١١٠٥ من جريدة الجوائب تحت عنوان : « القبض على العاصى فى مصر » على مقال ذكر فيه أنه ألقى فى السجن عدد كذا وكذا من الضباط والعلماء والاعيان والتجار والمديرين وشيوخ البدو ، والآن باحماة الحرية اذا كان الجند هم العصاة فلماذا ألقى فى السجن من ذكر من العلماء والاعيان والقضاة حيث أذيقوا الهوان؟ واذا كانت الامة كلها بكافة طبقاتها تتجه اتجاها واحدا وتفكر تفكيرا واحدا فلماذا تميزون الجند باسم العصاة؟ انى أعلن باسم الحق انه لظلم مبين أن يعاملوا هذه المعاملة ، لقد كانت الحرب وفق قانون الله وقانون الانسان ، وقد أعلنت بناء على قرار موقر لمجلس عقد برئاسة الخديو ودرويش باشا مندوب السلطان ، وبعد أن غادر الجيش والاهالى الاسكندرية ذهب الخديو الى هؤلاء الذين كانوا يحاربون أمته ، الامر الذى ينهى عنه كل قانون .

لقد اجمعت الامة كلها على ضرورة وقف توفيق باشا لخروجه على الشرع الحنيف والقانون المنيف ، وطلبت الاستمرار فى أعمال الدفاع عن الوطن بقرار رفع الى جلالة السلطان ، أبعد هذا نكون عصاة ؟ اننا كنا ندافع

عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان ، وكل من يقول غير هذا كائنا ما كان فهو عبد للهوى والمال ، وأضيف الى ذلك أن علماء الاسلام والمسلمين فى كل بلاد العالم ، يسلمون اننا لم نتجاوز حدود ما أنزل الله فى كتابه وهم يستنكرون ما نلقى من سوء المعاملة لانه يتنافى مع العدل .

يا دعاة الحق ! هل من العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ويأخذ الاجانب أماكنهم ومن حضر الى مصر من الشراكسة والالبان والبلغار بحيث أن جميع الرتب حتى أحطها مثل رتبة اليوزباشى فى الجيش قد احتلها الاجانب دون أبناء مصر ؟ ولكنا سنجد بين حماة الانسانية من يدافعون عن الحق فى وجه طغيان هذا العهد الذى يسود منه وجه الانسان ... أحمد عرابى المصرى » (١)

هذا ما كتبه فى سجنبه عرابى الجاهل الجبان ! الا ما اجمل هذا الجهل وما أعظم هذا الجبن وما أحط ما ذكره عنه المغرضون من بهتان .

وكان برودلى فى شغل دائم باعداد دفاعه الذى أقامه على ما اقتنع به من أمور هامة وصل اليها بطول أناته واحاطته بموضوع القضية التى هو بصددها جملة وتفصيلا ، وكان من ذلك الذى اقتنع به نبل الدوافع التى دفعت عرابى فى حركته من أول الامر ، وموافقة توفيق اياه حتى ١٢ يوليو ، وكذلك موافقة السلطان الى ما بعد ذلك التاريخ ، هذا الى انضمام الامة كلها الى عرابى مما يجعل حركته حركة قومية عامة لا حركة فردية ، ويجعل سلوك عرابى مسلكا انسانيا فائقا أثناء الحرب

(١) How we defend Orabi P. 150

هذا من ناحية عرابى ، أما من ناحية خصومه فقد أعد برودلى الادلة على سخف التهمة القائلة باهانة الراية البيضاء وبطلان تهمتى الاشتراك فى فتنة الاسكندرية واحراقها ...

ثم انه اعتزم أن يقيم الادلة على عدم شرعية المحكمة العسكرية فى تاليفها على هذه الصورة ، وعلى ما كان فى اجراءات التحقيق من نقص قبل مجيئه هو وزميله ، وعلى ما لقى المسجونين من اهانة وتعذيب بقصد ارهابهم قبل استجوابهم وحملهم على غير ما يريدون ...

كذلك أراد برودلى أن يتبين كيف كان توفيق يطعن الانجليز فى رسائل منه الى الآستانة ، حتى اذا اطمأن اليهم ألقى بنفسه فى أحضانهم وأدار للسلطان ظهره...

ولكن قوة الدفاع لا تغنى شيئا فى جو كذلك الذى كان يحيط به وبزميله منذ مجيئهما ، فقد عمدت الحكومة المصرية وخاصة رياض ، ومن ورائه توفيق ، الى وضع الصعاب فى سبيله هو وزميله منذ حضورهما ، ولجأت لجنة التحقيق الى اساليب أقل ما توصف به أنها ملتوية ومن امثلة ذلك ما كان من أمر سليمان سامى ، ثم خروجها فى كثير من الاحوال على الاتفاق الذى وقعه برودلى وزميله بشأن ما يتبع من أصول أثناء التحقيق وفى ساحة المحكمة ...

والواقع أن السماح لعرابى بمحاميين انجليزيين ، قد ألقى الفزع من أول الامر فى نفس الخديو ورجال حكومته فقد يقلب التحقيق فرحهم غما ويكشف عن أمور ظنوا أنهم بانتصار الانجليز والقضاء على عرابى قد خلصوا منها الى الابد ، ولذلك لجأوا الى وسائل الغش والتدليس والارهاب واعداد شهود الزور والتجسس على رسائل برودلى وزميله الى حد فض الكتب وتلك أمور جعلت

عملهما شاقا محفوفا بالخطر ، وزادهما خوفا أنه لا يبعد أن تغمض الحكومة الانجليزية عينيها وتدع الخديو يصنع ما يشـاء بعرابى وزملائه ، ولن تحجم المحكمه العسكرية عن أن تعلن آخر الامر على الرغم من كل دفاع أنها اقتنعت باداانتهم ثم تحكم عليهم بالموت وينفذ حكمها فى الحال ويسدل الستار على المأساة ، وتذهب جهود برودلى وزميله عبثا ، وتتنصل انجلترا بعد ذلك من كل تبعة قائلة انها فعلت ما كان فى وسعها أن تفعله وهو السـماح لعرابى بدفاع حر ، ولم يكن فى وسـعها أن تتدخل فى حكم المحكمة العسكرية ...

وكان المتفق عليه من أول الامر بين بورلى نائبا عن الحكومة المصرية وبين برودلى تجنب الخوض فى الامور السياسية والاكتفاء بالاشارات التى يقتضيها المقام اذا دعت الضرورة الى ذلك، وقد أرسلت الحكومة الانجليزية الى مالت فى ١٣ أكتوبر رغبتها فى الا يسمح بمجادلات أو أدلة تتصل بالدافع أو الاسباب السياسية التى تبرر التهم المعلنة ، الا ماكان منها لاثبات أونفى تلك التهم» (١)

وقبل برودلى ذلك لانه سـمح له بشروط معقولة لاجراء التحقيق والمحاكمة ومن أهمها أن يسمح للدفاع بدعوة من يشاء من الشهود وأن يناقشـهم بحضـور المتهمين بصرف النظر عما اذا كانوا أدوا شهادة قبل ذلك أم لا ...

ولكن حدث بعد ذلك أن الحكومة المصرية وقد كان أخشى ما تخشاه هذا الشرط ، لم تتقيـد بما وافقت عليه ، وتجلى ذلك فى شـاهدين وقع عليهمـا برودلى مصادفة ، أما أولهما فهو على راغب وقد رأى برودلى فى الممر المؤدى الى مقر اللجنة وذلك فى ٢ نوفمبر فتحدث

(١) How we defend Orabi P. 45

اليه بالانجليزية حديثا مقتضبا فى حذر وخوف اذ كان يحيط به الجند قائلا : ان اسمه على راغب وهو الضابط البحرى الذى كان يحمل كتب عرابى الى الآستانة ويحمل كتب الاستانة اليه ، وانه حكم عليه بالنفى الى السودان ١٠ سنوات مع الاشغال الشاقة ، ولديه معلومات تفيد قضية عرابى ويرجو أن يؤدى الشهادة عنه ، ولكن حينما طلب برودلى استدعاءه بادرت الحكومة بارساله الى السودان ليمضى هناك ١٥ سنة لا ١٠ ، واما ثانيهما فشخص يدعى كارمى كان يقيم فى بيروت أثناء الحرب وكان يتمتع بالحماية البريطانية ، وقد كان كاتبا لدى أسرة الشمسى . وقد حدث أن أعيد الى وظيفته مدير الشرقية الذى فصل وقت الحرب ، وواتته الفرصة الآن للانتقام من شخصين ظن أنهما عملا على فصله وهما أمين بك الشمسى واحمد بك أباظة وكانا من أنصار عرابى ، فجىء بهما من سجن القاهرة الى سجن الزقازيق ، حيث القيا فى حجرة مظلمة والاغلال فى أيديهما ، وأرغما وهما من علية القوم على كنس السجن وتنظيفه ، وتصادف أن جاء كارمى فأرسلته أسرة الشمسى الى برودلى ليقدمه شاهدا وسرعان ما قبضت الحكومة عليه وقد أخبرها عنه جواسيسها وأخرج من مصر عنوة الى بيروت ...

وفى ٧ نوفمبر استدعت اللجنة برودلى وزميله وسألتهما عما ينويان عمله؟ قال برودلى : «ووجدنا أننا أمام اللجنة كأنما خضعنا لنوع من الاستجواب يقصد منه القضاء على ما أعددناه من اجراءات الدفاع ، كم يستغرق استجوابنا الشهود من أيام ؟ ومن يوجه الاسئلة عمليا ؟ وأى التراجمة يعول على ترجمته ؟ وهل يسمح للمتهمين بالكلام ؟ وهل لدينا ما يمنع عن ارسال أوراق عرابى الى اللجنة فى الحال ؟ ثم أليس المسجونون فى انجلترا

يقضى فى أمرهم بعد استجواب هين ؟ الى أمثال ذلك من أسئلة وجدنا أنها عقبات تدل على ما تنويه اللجنة ...»

وكان من أكبر الصعوبات كذلك فى طريق برودلى وصاحبه أن اللجنة كانت تستدعى شهود الاثبات وتسألهم فى غيابهما ، وكانت تلجأ الى ما تستطيع من وسائل التهديد والاغراء لحملهم على ما تريد ، وكانت تطلب اليهم أن يقدموا اليها كتابة ما يعرفونه عن الاتهامات ، وتوحى اليهم بما يفعلون (١)

وفى ١٤ نوفمبر منع رياض باشا المستر برودلى من زيارة موكليه فى السجن ما عدا عرابى بحجة أن موظفيه من الكتبة ينقلون انباء من المسجونين الى ذويهم خارج السجن مما يخشى منه أن يؤدى الى هياج .

وظل الافق هكذا مظلما أمام برودلى وصاحبه تتجمع فيه السحب من كل جانب ، وكانا يرسلان الى بلنت هذه الانباء السيئة وقد طالت اقامتهما بمصر وكثرت نفقات القضية كثرة أوشكت أن تعجزه ..

وفى رسالة من بيمان الى بلنت فى ١٧ نوفمبر تبين أن السحب قد تمزقت فى بعض نواحى الافق ، قال بيمان : « أكتب اليك هذه الكلمة لابلغك أن الامور تسير الآن سيرا طيبا ، فان شهادة سليمان سامى التى طرب لها الاتهام ما لبث أن تبين أنها لا تساوى قلامة ظفر اذ أنها لفقت لوقتها وليس فيما مضى من الاقوال ما يؤيدها ، وان السؤال القائم الآن هو : هل يطلق المسجونون بغير محاكمة أم هل تهيأ لهم الفرصة فى عدالة ليتكلموا مدافعين عن انفسهم ؟ وانى مقتنع هنا ان الحكومة تبذل كل ما فى وسعها للقضاء على اجراءات التحقيق لان الحقائق التى سوف يبرزها استجواب الشهود سوف تمس كل شخص

---

(1) S. H. B. p. 352

تقريبا ممن بيدهم السلطة الآن ، وسوف تكشف عن أشياء تتصل بالخديو مما لايحمد ، ولهذا السبب الاخير أحسب أن حكومتنا ستحس فى نفسها الميل الى أن تعرض على عرابى بعض شروط خشية أن يظهر التحقيق أن أكبر الآثمين فى مصر هو الرجل الذى أحضرنا جيشنا لنصرته ، فانى أكاد أجزم شخصيا أن الخديو وعمر لطفى هما مدبرا فتنة الاسكندرية لتكون ضربة لعرابى الذى أعلن قبلها مباشرة أنه يضمن الامن العام » (١) .

والحق أن بيمان قد تسقط هذه الانباء مما كان يتحدث به همسا فى الحلقات الانجليزية منذ مجىء دوفرين الى مصر فقد أوفدته الحكومة الانجليزية الى مصر لحل هذه المشكلة فبلغ القاهرة فى ١٦ نوفمبر ١٨٨٢

وأقام دوفرين بقصر النزهة يستفسر الانجليز وغيرهم وقد لقيه برودلى وصاحبه بقصر النزهة، يقول برودلى : « وفى حجرة من حجرات هذا القصر لقينى اللورد دوفرين وزميلى نابيير فى ١١ نوفمبر ، وهيأ لى فى الحال الفرصة ليسمع قضيتى ، فقصصت عليه كل ما حدث لنا منذ حضورنا حتى ساعة لقائه ، وكان يصغى فى صبر وصمت الى قولى ، ولم يتكلم الا قليلا ، شأن السياسى المحنك واقتنعت أنه آن للزعماء القوميين الا ييأسوا من العدالة»

وتلقى بلنت برقية من برودلى فى ١٨ نوفمبر هذا نصها : « أعتقد أنه من الممكن الوصول الى تسوية طيبة .. لا تهاجم ادارة الشئون الخارجية .. الحرص على السر أمر جوهرى » .

ولكن السحب ما لبثت أن تقاربت لتتجمع ثانية على الافق حيث يتبين ذلك من الرسائل الآتية :

فى ٢٠ نوفمبر أبرق برودلى يقول : « لندن تشاور

(١) المرجع نفسه ص ٣٥٤ .

دوفرين .. ضعف ميل الحكومة المصرية الى عقد تسوية وذلك لظنها أن الرأى العام فى انجلترا قد تغير بسبب أقوال سليمان سامى » .

وفى ٢١ نوفمبر ، أبرق يقول : « أزمة خطيرة ماثلة ، يؤكد اصدقاء الحكومة المصرية تصميمها على شنق عرابى لا تفادر لندن » .

وفى اليوم نفسه أرسل برقية أخرى يقول فيها : « لايعبر أى كلام فى استطاعتى عن مسلك الحكومة المصرية الشائن ، انها تضرب باتفاقنا واياها على اجراءات التحقيق عرض الحائط .. انها لاتبالى بشىء طالما أنها تعالج المسألة دبلوماسيا لشنق عرابى » .

وأبرق نابيير أيضا فى اليوم نفسه يشكو من الحكومة المصرية ويشير الى ما يرجى من معاونة دوفرين ، ولكن الوزارة المصرية ماضية فى سبيلها بسرعة نحو غايتها...

وعاد الى برودلى شىء من التفاؤل بعد بضعة أيام ، فأبرق الى بلنت فى ٢٧ يقول : « القيت بالبريد ما يشرح لك الموقف شرحا كاملا ، لدى ما يجعلنى أعتقد أنه لو وافق عرابى ومحمود سامى وطلبة موافقة صورية على تهمة العصيان أعنى الاستمرار فى الحرب على الرغم من أوامر الخديو ، فان الحكومة المصرية توافق على نفيهم أو اعتقالهم فى رأس الرجاء الصالح أو فى أى جهة أخرى »

ورد بلنت فى ٢٨ يقول : « لا أقبل الشروط المقترحة ورأس الرجاء بوجه خاص ، سأشاور أحد أصدقائى الليلة بشأن النفقات ، موقفنا من الوجهة السياسية فى منتهى القوة ، سيصلك الرأى القاطع بعد » .

وكان برودلى قد شرح الموقف فى كتابه الذى أرسله بالبريد قائلا : انه لم يبق صعوبة فى القضية الا حادث حريق الاسكندرية فانه وان كان عرابى برىء من حرقها

الا أن فى مسلكه أمورا تجعل للاتهام سبيلا للجدل والكلام ، ومن ذلك أنه لم يبذل اية محاولة لوقف النار والنهب ، كما أن صلته بسليمان سامى استمرت بعد ذلك ، ولم يعاقب المسئولين ، فضلا عن وجود أوراق فيها شراء كميات كبيرة من النفط ، هذا الى ما ظهر من الجند من الميل الى ازدياد الحريق بدلا من اطفائه ...

واقترح برودلى أن تقبل التسوية والا فأمامهم محاكمة طويلة لا يؤمن معها تقلبات الراى العام ، على أنه على استعداد لخوض غمار المعركة فى قوة حتى نهايتها ...

وكتب نابيير كذلك الى بلنت فى ٢٧ نوفمبر يقترح قبول التسوية ، وان كان على استعداد هو وزميله للمرافعة قائلين انهما قادران على أن يجعلا تهمة حريق الاسكندرية هباء ، وان يجعلا من مذبحة ١١ يوبيو مسألة حامية بينهم وبين خصومهم ...

وفى ٢٨ أبرقا معا الى بلنت يقولان : « قابلنا دوفرين طويلا ، نرجو منك أن ترسل الينا مستشاريك لنحصل على أحسن شروط ممكنة ، الابطاء يقضى علينا ، اعتمد على حكمنا ، لاجدوى من انتظار المعونة من ادارة الشئون الخارجية ، يميل دوفرين الى أن يزيد تعليماته لصالحنا يحكم دوفرين الحكومة المصرية ، الدفاع عن مسألة حريق الاسكندرية يحيط به شيء من الشك ، هذا هو مبعث القلق ، اغتنم الفرصة الحالية ، خدمات دوفرين الطيبة ضرورية جدا ، ابرق لنا بتعليماتك ، سنقابل دوفرين غدا فى الساعة العاشرة » .

وأبرق نابيير الى بلنت فى اليوم نفسه : « أقول لك بشرفى انى موافق على البرقية السالفة ، الامر يستدعى أشد الاستدعاء أن ترسل تعليماتك ، ليس ثمة أى مصلحة شخصية فيما طلبنا » .

وذكر برودلى فى كتابه أنه منذ ٢٧ نوفمبر رغبت جميع الجهات فى تسويه للموقف ، فالحكومة الانجليزية التى أعلنت من قبل عصيان الجند والتى سمت الحركة كلها ثورة عسكرية والتى ارسلت حملة لقمعها انفقت فيها ملايين الجنيهات لايمكنها أن تطلق عرابى بعد هذا بلا قيد ولا شرط ، ولن يوافق جلادستون على قرار مؤداه أن عرابى قد سقطت عنه تهمة العصيان بعد كل هذا ، ولكن الحكومة الانجليزية من ناحية اخرى لم تعد تقوى على أصدار حكم بالموت على عرابى ، وان كانت لا تعترض على الحكومة المصرية اذا القته فى السجن الى اى وقت تشاء .

وكانت تركيا تريد أن تنتهى هذه المسألة على اى وجه الا الكابوس الذى يزعجها وهو محاكمة عرابى ، ويعتقد برودلى انها استعانت بالمانيا لتتوسط لدى دوننجستريت لمنع ذكر ما من شأنه أن يمس السلطان من فضائح فى القاهرة ...

ورأت حتى الحكومة المصرية ما عدا رياض أن تتجه هذا الاتجاه وذلك بعد أن عجز سليمان سامى عن اقامة الدليل على عرابى وبعد أن أبلغ شريف باشا بأن الحكومة الانجليزية لا تستطيع أن تصدر حكما بالموت على عرابى، وأصبح هم الخديو أن يخرج العصاة من مصر جملة على حد تعبيره (١) ...

وفى ٢٨ نوفمبر أبرق بلنت الى برودلى يقول : « لا أقر شيئا أقل من نفى شريف : عدن ، مالطة ، قبرص فى حدود هذا أترك الامر لحكمتك »

واتفق على أن تكون التسوية كما يأتى : تستبعد جميع التهم عن عرابى ما عدا تهمة عصيان أمر الخديو

(١) How we defend Orabi p. 307

ويقدم الى المحاكمة متهما بهذه التهمة الاخيرة ويعترف بها ، وتصدر المحكمة حكمها عليه بالموت ، ولكن مرسوما خديويا بتعديل الحكم يتلى فى قاعة الجلسة ويقضى بنفيه من مصر ، ويصدر بعد ذلك قرار بتجريده من لقبه وممتلكاته ما عدا ممتلكات زوجته ، ثم يقسم عرابى بشرفه أن يذهب الى الجهة التى تحدد له والا يبرحها الا اذا سمح له بذلك ...

وقد كان هذا الاتفاق من وضع اللورد دوفرين ، ويقول برودلى : ان الحكومة المصرية قبلته على الرغم منها ، وقد غضب رياض غضبا شديدا اذ كان يصر على موت عرابى ، وسوف يستقيل عقب تنفيذه وان لم يذكر سبب استقالته ...

وأوعز رجال السراى الى مراسلى الصحف الفرنسية فأثاروا حملة شديدة على الانجليز وعلى عرابى ، حتى لقد أبرقوا الى صحفهم بأن هناك اتفاقا سابقا بين الحكومة الانجليزية وعرابى ...

وينتقد برودلى مسلك الحكومة المصرية انتقادا شديدا ويقول : انها بدل أن تظهر شيئا من الصفح والتسامح يبعد عنها الشبهات قد ادت بما فعلت الى اظهار نفسها بمظهر المغلوبة على أمرها ... الامر الذى لا يليق بكرامة أية حكومة ، ولكن الخديو هو الذى كان يدير ذلك كله من وراء ستار .

ولم يكن عرابى حتى ٢٩ نوفمبر يعلم شيئا من هذا كله ، فلما ذهب اليه برودلى فى صباح ذلك اليوم ومعه ترجمانه المستر سانتلا ، قص عليه القصص وقال : لا تخف ... نجوت من القوم الظالمين ..

وفكر عرابى قليلا ، وقد اخذته الدهشة ، ثم قال : « اعترف بصراحة انى كنت افضل المحاكمة لاسمع أوربا

كلها قضيتى ، والقى من اتهمونى وجها لوجه فى ساحة المحكمة » وتساءل عرابى : « أليس يرجى ان يفضى ما عسى أن يلقى من ضوء على المسائل المصرية فى المحكمة الى تحقيق الاصلاحات التى عجزت الحرب عن تحقيقها؟»

وذكر له مستر برودلى مايتعرض لهمن الخطر منجانب محكمة كهذه ؟ فتدبر ، ثم قال : « اذا قبلت ما تتحدث عنه من شروط ، فماذا عسى أن يكون مصير اخوانى ؟» وأبلغه محاميه أنهم سيعاملون مثل معاملته ...

وأطرق عرابى لحظة ، ثم صاح قائلا : « كيف أقول انى عاص ؟ ألم أفعل ما أمر به السلطان والخديو؟ واذا كان الخديو قد انحاز الى الانجليز فهل أسمى أنا عاصيا لانى أطعت ارادة الامة المصرية ؟ » .

وحار برودلى لحظة ماذا يقول ، ثم أجاب بقوله : « ان الحكومة الانجليزية لايمكنها أن تتراجع عما أعلنته ولذلك قضت الضرورة بهذا الحل » .

ولكن عرابى سأله : « وهل عاملت الحكومة الانجليزية عدوا غلب على أمره من أعدائها مثل هذه المعاملة من قبل ؟ » .

وكان اللورد راندلف تشرشل قد سأل جلادستون هذا السؤال فى البرلمانالانجليزى قبلذلك بثلاثة أسابيع ورد جلادستون بأن حال نابليون بعد فترة المائة يوم هى أشبه شىء بحال عرابى اليوم .

وذكر برودلى ذلك لعرابى ، فقال عرابى : وأين أنا من نابليون حتى أعامل بما عومل به ؟ فذكره برودلى بأن الذى عقد هذه المقارنة هو خصمه الذى يقرر مصيره .

ونهض البطل السجين وأخذ يمشى فى غرفته جيئة وذهابا وعلى وجهه علامات التفكير العميق ، وظل على هذه الحال زمنا ليس بالقصير ، ثم توجه الى محاميه

قائلا : « عندما جئت الى هنا أول مرة ائتمنتك على حياتى وشرفى ، وانى أفعل الآن مافعلتهحينداك ، ولذلك فانى مستعد ان أقبل نصحك ، فأما ما يتصل بالالقاب فلست أعبــأ بأن أفقــدها لانى ما سعيت اليها ، وأما الممتلكات فليس عندى الا ما خلفه لى أبى وهو لا يكاد يطعمنا الخبز ، انى لست أنتظر أن تغير انجلترا ماعقدت عليه العزم الآن ، ولكنى على يقين انها سوف تفعل ذلك فى المستقبل وساكتب لك كتابا يتيح لك من السلطة ما توافق به على ما تراه عادلا مترفا من الشروط ، ولكنى ارجو منك أن تكون شهيدا على انى افعل ذلك ابتغاء انقاذ اخوانى أكثر مما أفعله من أجل شخصى » (١)

وكتبعرابى هذا الكتاب، وذكر فيه انه بدع للمستر برودلى أن يفعل مايراه لصالحه « مع تذكر قضــــايا اخوانى السياسيين وغيرهم من المواطنين المسجونين » وانه يثق أن ذلك سوف يكون كما يشاكل شرف انجلترا « حيث اننا ابرياء جميعا من التهم الوحشية الموجهة الينا » .

هذا موقف عرابى المؤمن بعدالة قضيته ، والذى ظن أن خصومه فى مصر يريدون وجه الحق وما كانوا يريدون الا رأسه بأى ثمن وعلى أية صــورة ، ولو أتيحت له محاكمة عادلة على أيدى قضـــاة عادلين لكانت البراءة الناصعة عاقبته فى غير مشقة ، فليقبل حكم الظروف وقد حرم حكم القضاء ...

كان على برودلى بعد ذلك ان يعد تمثيل المهزلة مع المسئولين، وكان بورلى قد استقال لانه « لا يستطيع الاشتراك فى مهزلة سياسية كهذه » كما قال ، ويذكر برودلى أنالخديو هو الذى أوعز اليه بهذا ففعله مشايعة

(1) How we defend Orabi P. 824

لبقية بنى جنسه الفرنسيين ولذلك كان على برودلى ان يتصل بتجران باشا الذى حل محله وقد بذل تجران أقصى‌ما فى وسعه ليكتم غضبه من اضطلاعه بهذا العمل

وكان على ممثلى المهزلة أن يبحثوا فى القانون العثمانى عن مادة تنطبق على مثل هذا العصيان ، فوجدوا مأربهم فى المادة ٩٦ من القانون العسكرى ، والمادة ٥٩ من قانون العقوبات ...

وكتبت لجنة التحقيق الى المحاميين تبلغهما انها رأت تقديم عرابى الى المحكمة العسكرية بمقتضى هاتين‌المادتين وتسألهما ان كان لديهما اعتراض على هذا ...

ورد برودلى وصاحبه انهما لا يعترضان ، وعلى ذلك أرسل اسماعيل أيوب باشا عضو المجمع الشعبى العام وضيف عرابى فى كفر الدوار (١) الى رؤوف باشا عضو ذلك المجلس العام أيضا (٢) يقول انه بعد استجواب عرابى باشا اقتنع بتقديمه الى المحكمة العسكرية وفقا للمادتين المشار اليهما .

على هذه الصورة فرغ من اعداد المهزلة فى ٢ ديسمبر واتفق على أن يكون تمثيلها فى اليوم الذى يليه ...

***

كانت قاعة مجلس النواب المصرى (٣) قد أعدت من أول الامر لانعقاد جلسات المحكمة العسكرية ، ووضعت فيها المقاعد لجمهور كبير يشهد الحكم على عرابى بالموت ومما يذكره المستر برودلى وقد شهد القاعة عقب مجيئه الى مصر انه لم يكن فيها مكان للدفاع ...

وشاءت الاقدار لهذه القاعة التى كانت مجالا لنواب الامة والتى كان فيها منبر حريتهم ، والتى هى الآن مقر

---

(١ ، ٢) هذا تعقيب برودلى على اسميهما .

(٣) قاعة مجلس الشيوخ الحالية .

مجلس شيوخها الموقر ، الا تشهد حكما كهذا على زعيم الحركة القومية فى مصر احمد عرابى باشا .

وكان تمثيل المهزلة فى مكان غير هذا الحرم الشعبى الجليل ، فقد اختيرت قاعة من قاعات مبنى الدائرة السنية حيث كان المسجونون ، وحيث كان مقر لجنة التحقيق ...

وفى صباح ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بدأ تمثيل المهزلة ، فتأهب رؤوف باشا رئيس المحكمة العسكرية بملابسه الرسمية ووسامه المجيدى الاكبر ، وتأهب بقية القضاة بأوسمتهم وملابسهم الرسمية كذلك فى حجرة مجاورة ودخل قاعة الجلسة بعض الانجليز من العسكريين ، والمدنيين ، وبعض الاوربيين وعدد صغير من الاوربيات وفريق من مراسلى الصحف الاجنبية ، كالتيمس ، وستاندارد، والديلى نيوز، والديلى تلغراف، والنيويورك هرالد ، والجرافيك ، والالستراسيون وغيرها ، ولم يكن شهود الجلسة أوالملهاة يزيدون فى مجموعهم عن أربعين

قال برودلى : « ... ودنا منى اسماعيل أيوب باشا وفى يده ورقة وقال انه يأمل الا أعترض على قراءته من أجل بعض المظاهر فقط ، عبارة من وضعه ، فأجبته فى غير التواء أن له أن يفعل ما يقضى به رأيه ، ولكن اذا استعملت أية رقعة غير الرقعتين اللتين اتفق عليهما فسيعلن عرابى أنه غير مذنب ... فتنهد تنهيدة طويلة فى هدوء ودس رقعته تحت المنشفة ولم يعرف عنها شىء بعد » ...

أما الرقعتان المتفق عليهما ففى احداهما عبارة قصيرة وقع عليها عرابى هى « انى بارادتى وعملا بنصيحة محامى أقر ما يتلى على الآن من اتهام » وفى الثانية يتعهد كجندى أن يبقى فى المكان الذى تحدده له الحكومة

الانجليزية وفقا للحكم الذى يتلى عليه ...

وكان مراسلو الصحف المصورة يرسمون القاعة ومن فيهـا تاركين موضع القضـاة فى أوراقهم خاليا حتى يحضروا وكذلك موضع المتهم ، وقد أعد الذين لم يبلغهم نبأ المهزلة أوراقا كثيرة وافلاما يحسبون أنهم سيملأونها بالاوصاف والانباء ...

يقول برودلى : « وفى الساعة الثامنة دخل القضاة التسعة قاعة الجلسة ، وجلسوا على كراسيهم ذات الظهور المخملية الحمراء . وجلس السير شارلز ولسن على يمين المكان الذى خصص للسجين ، وجلست أنا وراء قمطر يواجه هذا المكان ، وكانت المنصة المخصصة لممثل الاتهام خالية ...

وبعد دقائق رأيت عرابى من الباب المفتوح يقطع الفناء ومعه نابيير فى ردائه التقليدى وعثمان شريف وحارسان شركسيان ودار عرابى حول مؤخرة القاعة ، وبعد أن مر بمقعد طويل كان مخصصا لجلوس نحو ٢٠ شخصا على الاقل ، جلس بجوارى ، واتخذ المستر نابيير كذلك مكانه الى جانبى ، وساد الصمت العميق هنيهة ، وكان يبدو على عرابى بعض الاضطراب العصبى أول الامر ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه ، وتناول رؤوف باشا ورقة وتلى ما بها وهذا نصها :

« أحمد عرابى باشا ... أنت متهم الآن أمامنا بناء على قرار لجنة التحقيق بجريمة عصيان سمو الخديو ، مخالفا بذلك المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة ٥٩ من قانون العقوبات العثمانى ، فهل أنت مذنب أم غير مذنب ؟ »

وقد نهض عرابى بمجرد أن أخذ رؤوف باشا يتلو هذه العبارة ، فلما فرغ منها أجاب عرابى قائلا : « ان

محامى سوف يرد منى » .
ونهضت وتلوت الترجمة الفرنسية لاعتراف عرابى وأبرزت الاصل العربى وعليه خاتمه وقرأه كاتب كان يجلس على مقربة من الرئيس ، ونظر رؤوف باشا الى عرابى متسائلا ، فأومأ براسه علامة الموافقة ، فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة الى الساعة الثالثة بعد الظهر ..

وفى الموعد المحدد ازدحمت القاعة بشهود الجلسة وحضر عدد غير قليل من السيدات وكانت بينهن زوجة نابيير ، وكان الطريق أمام الدائرة السنية مزدحما بالناس وانعقدت المحكمة ، فناول رؤوف باشا كاتب الجلسة نص الحكم وأمره بتلاوته ، فتلاه ... وبعد فترة قصيرة من السكون ناوله ورقة أخرى واتجه الى عرابى قائلا : « أحمد عرابى .. ستسمع المرسوم الصادر من سمو الخديو ، وتلا المرسوم المذكور » ...
وكان الحكم يقضي بالموت على عرابى ، والمرسوم يستبدل به النفى المؤبد ، وانفضت الجلسة بعد عشر دقائق وأسدل الستار على المهزلة ...

وتقدم المهنئون الى عرابى وتزاحم عليه مراسلو الصحف مصافحين اياه فى حماسة وقدمت له بعض السيدات الاوربيات باقات من الزهور فتقبلها شاكرا .

ويذكر مستر برودلى أن زوجة زميله المستر نابيير كان أمامها باقة من الزهور صغيرة كانت أعدتها لترسلها الى عرابى بعد المحاكمة فأخذها أحد الجالسين من غير شعور ووضعها فى يد عرابى ، ولقد أثار هذا كثيرا من اللغط وخاصة من جانب أعوان الخديو ، اذ عجبوا أن تفعل ذلك سيدة على مرأى من الناس ، ولكن هذا اللغط ما لبث أن ذهب بظهور حقيقة ما حدث .
وأعيد عرابى الى السجن ليبقى فيه ريثما ينفذ الحكم

## إلى المنفى

كان أول شيء فعله عرابى بعد عودته الى سجنه أن صلى لله وأطال سجوده شكرا له سبحانه ، ولما خرج من الصلاة وجد محامييه فى الحجرة فوجه اليهما بعد الله شكره ، وأعادا عليه تهنئتهما وخرجا بعد حديث جرى بينهما وبينه ، وتركاه ليكتب لصديقه مستر بلنت الذى أبلى فى سبيل انقاذه ما أبلى

وذكر برودلى انه علم علم اليقين أن الوطنيين من أهل القاهرة قد باتوا ليلتهم فى فرح عظيم وان لم تخرج مظاهر الفرح من بين جدران المنازل خوفا من الحكومة والخديو ، فوزعت الصدقات والملابس وأطعم الفقراء ، واقيمت الصلوات وكان فرح الناس منبعثا من أعماق نفوسهم أو على الاصح مستقرا فى أعماقهم .

وزاره برودلى صباح اليوم التالى وأخبره أنه لم يبق لديه مما يشغل باله الا قلقه على اخوانه المسجونين ، ورغبته أن يبين لاهل أوربا حقيقة اعترافه الشكلى بعصيانه أمر الخديو ...

وطاب عرابى نفسا بما ذكره له برودلى من انه يأخذ على عاتقه قضية اخوانه ، وأنه لن يألو جهدا فى العمل على انقاذهم ...

وكتب عرابى الى جريدة التيمس كتابا تاريخيا طويلا قال فيه ، بعد أن اثنى أعظم الثناء على محامييه ، أنه

اتبع ما أشارا به عليه وذكر « أن الوزراء الانجليز قد أعلنوا قبل ذلك اكثر من مرة أنى ثائر ولست أتوقع أن يغيروا رأيهم فجأة » وأشار الى براءته من تهمتى المذبحة والحريق، وقال : «انه يغادر مصر مرتاح الضمير وملء نفسه الثقة فى المستقبل لانه يعتقد أن انجلترا لن تستطيع أن تعوق الاصلاحات التى حارب فى سبيلها ، وعما قريب ستلغى الرقابة الانجليزية الفرنسية ، وتتخلص مصر من قبضة الموظفين الاجانب الذين يشغلون كل منصب دون المصريين ، وستطهر محاكمنا الوطنية من العيوب. وستوحد القوانين ويكون لها سلطة ، وسيكون للأمة مجلس نواب ذو رأى مسموع وله حق التدخل فى شئون الشعب المصرى ، وسيطرد المرابون من القرى ، وعندما يرى الشعب الانجليزى تحقيق هذا كله يستطيع أن يتبين أن عصيانى كان له مسوغ عظيم .

انى ابن فلاح مصرى وقد بذلت جهد طاقتى فى سبيل الحصول على هذه الاصلاحات لوطنى العزيز الذى أنتمى اليه والذى أحبه اشد الحب ، ولكن سوء حظى حال بينى وبين ما أردت ... واذا لم تقف انجلترا فى وجه هذه الاصلاحات وسلمت مصر للمصريين كما تقتضيها ذمتها وشرفها فيومئذ يتبين للعالم كله حقيقة مساعى عرابى العاصى وحقيقة أغراضه » .

وأثنى عرابى أعظم الثناء على مستر بلنت « الذى لم يدخر جهداً ولا مالا ليعيننى فى ساعة محنتى وحاجتى، فى حين تخلى عنى جميع أصدقائى المصريين الذين كانوا يلازموننى فى أيام اليسر »

واختتم رسالته بقوله : « انى أغادر مصر مقتنعا كل الاقتناع أنه كلما مرت الايام اتضح للعالم عدالة قضيتنا شيئا فشيئا وسوف لا تندم انجلترا على ما أظهرت من

انسانية وتسامح ازاء رجل حاربها وحاربته » .

وبعد أربعة أيام من صدور الحكم على عرابى قدم الى المحكمة العسكرية كل من محمود سامى وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى وطلبه عصمت ، وكان مصيرهم مثل مصيره ، وكذلك كان مصير محمود فهمى ويعقوب سامى بعد هؤلاء بثلاثة أيام ...

واتفق أخيرا على أن تكون سرنديب منفى عرابى ؛ فذهب اليه برودلى وبيمان يبلغانه بذلك فى ٨ ديسمبر فارتاح عرابى لذلك المكان ، قائلا : « انى أخرج من مصر بستان الدنيا لاذهب الى سرنديب جنة آدم » ، وأخذ يحدث بلنت عما يذكره التاريخ القديم من قصة هبوط آدم وكيف أنه حل بهذه الجزيرة فصارت تعرف بجنة آدم كما ذهبت حواء الى الحجاز فصار يعرف بجنة حواء ... واستبشر عرابى وشاع فى نفسه السرور .

ويذكر برودلى أن اللورد شارلز برسفورد كان يجمع المعلومات عن أسباب الحرب أثناء اقامته بالقاهرة فأحب أن يعرف ما يقول عرابى ، وحمل نابيير الى عرابى هذه الرغبة فكتب له تاريخا موجزا للأيام السابقة لضرب الاسكندرية ، ثم وصف كيف قررت الحرب وكيف بدأت

وكان عرابى شديد التطلع الى معرفة ما تكتبه عنه الصحف الاوربية ، وقد آلمه تغير الصحف العربية ، وتنكرها له ولحركته ، وترجم له التراجمة أقوال بعض الصحف الاجنبية كجريدة التيمس وستاندارد والديلى نيوز ، فسرى عنه كثيرا ، وكان ذلك من أسباب كتابته لجريدة التيمس .

وكتبت جريدة « تروث » الانجليزية (١) تمتدح عرابى وتثنى على الحركة القومية فى مصر ، فسر عرابى لهذا

---

(١) Truth

سرورا عظيما وأعجبه اسمها وترجمته بالعربية «الحق» وقال : انه يريد أن يعبر عن الحق فى جريدة «الحق» ، فكتب الي محررها المسترلابوشير رسالة افتتحها بقوله : « أرجو أن تسمح لى بأن أقدم اليك أصدق شكرى على ما أعلنته دائما من الحق فيما يتصل بى وباخوانى فى أيام محنتهم ، واني مقتنع كل الاقتناع ببراءة مقاصدك وأنك أردت دائما أن تظفر بما يتفق مع الحق من عدالة وليس من شك فى أن أولى العدل من الرجال الذين يجودون بالعون لمن لحقهم سوء الحظ، فىساعة حزنهم»

وبعد ، فانه لما كان لايعنيني شيء أكثر مما يعنيني رخاء وطني وتقدمه وسعادة أهله ، وذلك على الرغم من اني أغادره الآن الى الابد ، فاني أحب أن أذكر لك بعض الامور الجوهـرية التى لو روعيت جلبت الخير الكثير لوطني وأفادت أهله فائدة عظيمة ، وأحسب أنه لن يبلغك هذه الامور فى غير هوى مثل رجل مجرب فقد كل ما يملك فى سبيل حب وطنه » .

ومضى عرابى يذكر ما يرجوه من أوجه الاصلاح معقبا على كل وجه بما يفسره ، فأشـار الى ضرورة وجود مجلس نواب تام السلطة على أساس انتخاب حر ، كما هو الحال فى الامم المتمدنة ، يسأل أمامه الوزراء وينعقد لمدة محدودة لا تنقص عن خمس سنوات ، والى ضرورة المساواة بين المصريين فى المعاملة وفى الضرائب ، والغاء السخرة بحيث يكافأ الناس على ما يؤدون من أعمـال لان حياة الفقير تتوقف على عمله اليومى ، والغاء الربا فى القرى ، ووضـع قانون عادل يطبـق فى المحاكم ولا يعتدى عليه أحد ، وأن تكون وظائف الدولة للوطنيين جميعا على أساس الكفاءة والاستعداد ، ولا بأس من أن يستخدم بعض الاجانب مع مراعاة الحالة الاقتصادية

واختتم رسالته بقوله : « واذا وافقت انجلترا على اقتراحاتى هذه فلست أبالى بالنفى أو بأى شىء آخر يخبئه لى القدر » (١) .

ومازال يسعى برودلى حتى رفعت الحواجزالخشبية الفليظة التى كانت تفصل بين الردهات والحجرات ، واستطاع المسجونون السبعة أن يلتقوا فى ١٣ديسمبر ، فكان لقاء اهتزت له نفوسهم ، عناق وضغط على الأيدى ودموع فى المآقى ، وأصبحت حجرة عرابى ملتقاهم كل يوم حيث كانوا يتجمعون أمامه وينظرون اليه جميعا كما كانوا يفعلون من قبل نظرتهم الى كبيرهم وزعيمهم ؛ وكانوا لايبرمون أمرا الا برأيه ولا يتناقشون فى شىء الا فى مجلسه ..

وامتلأت الحجرات بالزائرين والزائرات من الاقارب القاهريين والقرويين ؛ وكان اقارب المسجونين جميعا يذهبون الىحجرة عرابى فيلثمون يده ويحظون بالجلوس ساعة بين يديه واعينهم لا تتحول عن وجهه ...

وأحضر الخدم ما يلزم من متاع فى المنفى ، من سرر وكلل وستائر وبسط وآنية وغير ذلك حتى امتلأت به الحجرات ...

وطلب اليهم صديقهم المستر برودلى أن يعد كل منهم قائمة بأسماء من تريد أن يرافقوه الى المنفى ليحمل تلك القوائم الى وزير الداخلية وكان حينذاك اسماعيل باشا أيوب الذى حل محل رياض ...

وذهب برودلى فقابلالوزير، وبلغه الوزير أنالحكومة تفكر فى أن ترسل بعض المنفيين الى هنجكنج ، فغضب برودلى ، لان فى ذلك اخلالا بالشروط المتفقعليها ، وبعد جدال طويل عدل الوزير عن رأيه ، ولكنه أبدى اعتراضا

---

(١) How we defend Orabi P. 388

على القوائم وأصر على وجوب انقاصها ، ولم يجد برودلى بدا من أن يعود بها الى المسجونين لينقصوها وقد وقع ذلك من نفوسهم وقعا سيئا ، ولكنهم نزلوا على حكم الضرورة . .

وفى ١٤ ديسمبر صدر أمر الخديو بمصادرة أملاك الزعماء السبعة وأموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك أى عقار فى الدولة المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة ما ، مع صرف معاش سنوى لكل منهم بما يكفي معيشتهم ...

وما أن صدر هذا القرار حتى سلكت الحكومة مسلكا حقيرا ، اذ أسرعت بارسال جند اقتحموا منازل الزعماء فى غلظة ولم يراعوا حرمة شيء ، وكانوا يقلبون الامتعة رأسا على عقب ، ولايسمحون بدخول أحد أو خروجه الا بعد تفتيشه ، ولقد بلغت بهم الغلظة والقحة أن كانوا يقتحمون على السيدات خدورهن ، وكانت السيدات فى تلك الايام لايرين الرجال الا والنقاب على وجوههن ، وللقارىء أن يتصور مبلغ ما نالهن من ألم وفزع ...

ولقد شكا الزعماء الى برودلى مما حل بزوجاتهم وبيوتهم ، وذهب برودلى فقابل اسماعيل ايوب فتظاهر بأنه لا يعلم شيئا من هذا ، وأحاله الى رئيس الشرطة أو الحكمدار ، وهو حينذاك عثمان باشا غالب ...

ويقول برودلى : ان غالب باشا ظل ساعة يتحدث فى غير ماجاءه من أجله ، ثم أشار الى قمطر فى حجرته ، وقال : انه مليء بصور عرابى الفوتوغرافية ، وانه حطم فى محال بعض المصورين زجاجات لصورة عرابى وصادر آلافا مطبوعة منها ، وقال : أنه لا يعرف وقد فشل عرابى ، ماذا يريد الناس منه بعد ذلك ؟

وبعد الحاح برودلى وعد غالب ألا يدخل الجند بيوت

الزعماء ، والا يفتشوا الداخلين والخارجين على هـذه الصورة المهينة ، ولكنه لم ينفذ ما وعد به ...

ويذكر برودلى أن زوجة نابيير أرسلت الى زوجها كتابا من منزل على فهمى تبلغه بأن الجند اقتحموه ، وروعوا السيدات واقتحموا الحجرات وطلبت من زوجها ان يأتى اليها لانها تخشى أن يمنعها الحرس من الخروج

وذهب برودلى ونابيير الى هناك ، وتصادف أن كان الخديو فى طريقه من عابدين الى قصر الاسماعيلية وكان مارا بمنزل على فهمى ، فما راعه الا سيدة حاسرة الرأس تعترض عربته فتوقفها وتصيح به : « يا توفيق حاربت الرجال ، ألم يكفك هذا حتى تحارب النساء ؟ انك ترانى الآن بغير نقاب وفى وضع ينال من شرفى ، ولكن عار ذلك يلحقك كما يلحقنى » وتقدم بعض من شهدوا المنظر ، فقادوا هذه السيدة فى رفق الى منزلها وهى زوجة على باشا فهمى ، ولم يعد الخديو يسلك بعد هذا الطريق.. وشكت السيدة ألمها الى برودلى وصاحبه من وراء ستار بكلمات تتخللها اجهاشات مؤلمة ..

ولم تكف الحكومة عن هذا الطغيان الا بعد أن تدخل دوفرين فى الامر ، فلم يجد برودلى مناصا من الشكوى اليه ...

وحدث أن أبدت الحكومة تعنتا فى أمر جديد ، وذلك أن السفينة لا تتسع للزعماء جميعا ومن معهم ، وعلى ذلك فلن يسافروا معا ، وكتب اثنان منهم رسالة وقعا عليها ليرسلاها الى الحكومة وقد دعيا فيها للخديو بالتوفيق ، وما أن رآها عرابى حتى صاح بيعقوب سامى غاضبا أشد الغضب : « هل وقعت على هذه الرسالة ؟ انى أوثر أن أمزق اربا قبل أن أفعل شيئا كهذا ، لقد قلت وما زلت أقول : أن توفيق لم يكن يصلح لان يحكمنا

فكيف اكذب اليوم وادعو له ؟ اننا على أية حـــال لم نبلغ هذا القدر من السقوط » .

وفى ٢٤ ديسمبر ، نشرت « الوقائع المصرية » أمرا خديويا آخر بتجريد الزعماء السبعة من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها ، ومحو أسمائهم من سجلات ضباط الجيش المصرى الى الابد

وفى ٢٥ ديسمبر ، وهو يوم عيد الميلاد ، زار برودلى عرابى وأصحابه فى ســجنهم ، وهنـــاه عرابى وزملاؤه بالعيد ، ولم يجد عرابى لديه ما يقدمه له هدية وذكرى غير مسبحته وبساطه ، وتقبلهما برودلى شاكرا وتبادل وعرابى واصحابه الصور ، وقد أعربوا له جميعا عن خالص مودتهم وعظيم شكرهم له ولزميله وللمستر بلنت

وابت الحكومة الا أن تمضى فى تعسفها وتتمادى فيه قبل سفر الزعماء، اذ تلت عليهم قرار تجريدهم مـــن رتبهم والقابهم على مرأى ومسمع من الجند والناس..

أحضرت عربتان الى باب الدائرة الســـنية ، وامر المسجونون فجأة ،بعد الساعةالثانية بقليل . أنينزلوا فى غير ابطاء ، ولم يبلغهم أحد عما يراد بهم ، ولـــكن هذا العمل لا يختلف عن معاملة المجرمين العاديين ...

ونزل الزعماءوهم يخشون أن يكون فى الامرغدر جديد فأمروا بالدخول فى العربتين ، وسارتا بهم فى حراسة بعض الضباط الى قصر النيـــل ، حيث اصطف بعض الجند على هيئة مربع ، واجتمع فى احدى الشرفات عدد من عســاكر الانجليز وضباطهم يشـــاهدون ويصفقون ، ووضع الزعماء وسط المربع ، واخذ أحد الضباط يتلو عليهم قرار الخديو ، ولما فرغ من تلاوته صاح الجند : « يعيش سمو الخديو » ، وسئل الزعماء عن سيوفهم ، وشاراتهم أين هى ؟ وهو سؤال سمج ، لانهم بملابسهم

المدنية وليس معهم شيء ، ثم أعيدوا الى العربتين فسارتا بهم الى مقرهم فى السجن ونفوسهم مليئة بالسخط على هذه الافعال الحقيرة ...

وكان قد اجتمع عدد من الناس خارج قصر النيل ، فنظروا الى عرابى وصحبه فى حسرة وألم ولم يستطع الا واحد ان يهتف : « حماكم الله » ثم اندس فى الجموع، وكان يشهد الحادث خادم مصرى كان قد استأجره المستر برودلي منذ أن جاء الى مصر ويدعى حسن وكان شديد الميل لعرابى وقد زاد تأثره وهو يقص على برودلى ماراى وعقب على غياب السيوف والشارات التى كانت تكسر وتنتزع لو أنها وجدت ، بقوله : « الله أكبر احتى الخديو لم يستطع أن ينال من عرابى » .

وذهب برودلي ونابيير الى السجن ، واخذا يهدئان خواطر الزعماء بالكلمات الطيبة ، ويقول برودلى : انه تنفس الصعداء اذ علم أن السفينة ماريوتس (١) دخلت قناة السويس فعلا لتكون على أهبة السفر من السويس الى سيلان فى مساء اليوم التالى ...

وبقيت مسألة هامة ، فليس مع عرابى ولا أحد من أصحابه مال ، وقد بذل برودلي مساعيه حتى صرف لكل منهم ثلاثون جنيهـــا مقدما ممـــا قرر صرفه لهم بسرنديب ...

وقد كتب بيمان بعد ذلك بنحو سنة معقبا على ذلك فى احدى الصحف (٢) فكان مما قاله : « ان عرابى الذى كان يستطيع أن يجمع لنفسه مليونا من الجنيهات لم يجد ما يشترى به ملابس له عند سفره وقد أرسل له بعض أصدقائه حقيبة مليئة بالملابس والقطار على أهبة

---

(١) مريوط .

(٢) Fort Nightly Revieus, November 1983

السفر ، وكانت أسرته تعيش وهو فى السجن على صدقات يدفعها بعض محبيه سرا وكنت أنا الذى أحملها اليها بيدى .. ولست أكتب هذا بدافع عبادة البطولة ، وآنما لابين لماذا اختار الشعب المصرى رجلا نشأ من طبقة الفلاحين وتمسك به لانه يعرف ما يشكو منه ، وكيف يدافع عن حقوقه المكتسبة ، وآثر ذلك على أن يظل خاضعا للسلطان الموروث » .

وفى ٢٦ ديسمبر ، تأهب عرابى وأصحابه للسفر ، وأرسلت اليه بعض فضليات السيدات على يد برودلى كثيرا من الهدايا (١) فى حذر خوفا من توفيق ، فارسلت احداهن حقيبتين انجليزيتين كبيرتين واخرى مصحفا فخما وثالثة سجادة للصلاة ، ورابعة حقيبة مليئة بالملابس وخامسة سلة جميلة ...

ولندع لبرودلى وصف هذا الرحيل ، يقول : « كان المفروض أن يبرح القطار الخاص قصر النيل الى السويس فى الساعة العاشرة على وجه التحديد ... وفى الساعة الاخيرة بلغنا أن الرحلة ستؤجل الى موعد آخر بسبب رداءة الجو فى السويس ، ولكنا أخذنا الحيطة فتركنا حسن عند السجن لينظر ماذا يحدث خشية أن نفاجأ مفاجأة أخرى ...

وأقبل حسن قبيل الساعة العاشرة منقطع الانفاس من شدة الجرى فأبلغنا أن الزعماء غادروا لتوهم الدائرة السنية وكان نابيير فى شغل بالبحث عن متاعه لانه كان يتأهب لمرافقتهم حتى السويس ، فركبت عربة واسرعت الى قصر النيل ...

وكان منظر القصر واضحا فى نور القمر الساطع الذى

---

(١) لم يذكر برودلى أسماءهن واكتفى بقوله بعض العظيمات ولعلهن من الاميرات .

كاد يمحو نور المشاعل التى حملها بعض الحراس المصريين وكان أمام عربات القطار بعض شهود الرحيل وكان بينهم السير شارلز ولسن والمستر ماكنزى ولاس وعثمان باشا غالب ...

وكان القطار عظيم الطول يكاد يمتد من أول الفناء الى آخره ، وكان فى مقدمته السيدات ومعهن أطفالهن وفى مؤخرته الخدم والمتاع الثقيل وفرقة من الجند الانجليز تحت اشراف الميجور فريزر ، وبعض الجند والضباط المصريين الذين كلفوا أن يرافقوا المنفيين حتى السويس ، وخصصت فى وسط القطار عربة من عربات الدرجة الاولى لعرابى وأصحابه ، وكانوا قد أخذوا أماكنهم فى القطار عندما بلغ قصر النيل... وبدا عليهم من البشاشة أكثر مما كان يبدو على وجوه فريق مثلهم من الانجليز لو كانوا فى مثل موقفهم ، وأسرعت الى النوافذ لاسمعهم بعض كلمات التوديع ، وأعاد عرابى على كلمات ثنائه وشكره الطيبات ..

وكان الامر بالرحيل على وشك أن يصدر، ولكن بيمان أعلن أن رجال الشرطة عند منزل عرابى منعوا زوجة ابنه وأختها من مغادرته ... وما الحيلة ؟ لقد حانت ساعة الرحيل ، ولم يكن ناظر محطة القاهرة يسمح بأى تأخير للقطار وكان الحى الذى يقع فيه بيت عرابى بعيدا وعندئذ قال السير شارلز ولسن لعثمان غالب باشا فى لهجة حاسمة ان القطار لن يبرح مكانه الا اذا حضرت السيدتان ، وأرسل غالب باشا عربته ليجىء بهما ... وأعقب ذلك فترة صمت محير .. وقد جاء بعض الخدم يحيوننى ، وبحث المستر نابيير عن مكان له ولحقائب عرابى وتقدم بعض الضباط الانجليز فصافحوا عرابى وجلس الى جانبه الميجور فريزر ، الامر الذى ارتاح له

عرابى ارتياحا ظاهرا ووصلت أخيرا سيدتان تلبسان ملابس بيضاء وسرعان ما توارتا فى احدى العربات بين فريق السيدات ، ولم يكد يغلق الباب عليهما حتى صدرت اشارة برحيل القطار ، وغاب عرابى وأصحابه وراء جدر قصر النيل ...

هكذا أخرج عرابى ليلا الى حيث لايرجو له خصومه عودة ، لم يره من الشعب المصرى أحد ، ولا ودعه من محبيه أحد ، وتنفس توفيق وحزبه الصعداء مرة ثانية

***

ولئن حيل بين عرابى وبين بنى قومه وأخرج على هذه الصورة المدبرة ، فها نحن أولاء نودعه على صفحات التاريخ بما هو أهل له من الاجلال والاحترام ...

أخرج عرابى من مصر مغلوبا على أمره واسدل الستار على حركته ، ومهما يكن من حقد خصومه عليه ومن محاولاتهم المتصلة النشيطة لتشويه حركته منذ أن ذاع صيته بحادث عابدين ، فان شيئا واحدا هوحسبه من المجد والفخر سوف يبقى على الرغم من كيدهم وسوف تزيده الايام وضوحا ورسوخا ، الا وهو أن عرابى كان الزعيم القومى الاول فى مصر ، فهو أول فلاح من أعماق القرى هتف بحرية مصر واستخلص لها الدستور وأنف أن يخضع لحكم الفرد ، وفرق بين ما هو حركة اسلامية عامة وبين ما أصبح بحق فى مصر حركة قومية مصرية قوامها أن يكون أبناء مصر من الفلاحين هم السادة وهم مصدر كل سلطة لانهم عماد الثروة ودافعو الضرائب ، ولانهم قبل ذلك أهل البلاد وأصحابها الحقيقيين ... وهذه هى الديموقراطية بأحدث معانيها كما يفهمها الناس اليوم ...

كانت حركة عرابى حركة قومية على الرغم من باطل

المبطلين، وقد جحد بها كثيرون من خصومه وأستيقنتها أنفسهم ولم يستطع حتى كرومر نفسه كما ذكرنا من قبل أن ينكر قومية هذه الحركة وقد جاء فى موضع آخر من كتابه قوله : « ان حركة عرابى أكثر من أن تكون مجرد فتنة عسكرية . لقد كان فيها الى حد ما طبيعة الحركة القومية الحقيقية ، ولم تكن هذه الحركة موجهة كلها أو فى جوهرها ضد الاوربيين والتدخل الاوربى فى الشئون المصرية ولو أن النفور من الاوربيين والتجنى عليهم كانا يسيطران على عقول قواد هذه الحركة ، انما كانت هذه الحركة الى مدى عظيم موجهة من المصريين ضد الحكم التركى » (١) .

ولقد بينا فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب كيف التفت الامة حول عرابى وقد تجلى هذا المظهر بوجه خاص فيما جادت به طوائفها جميعا أثناء القتال ، كما تجلى فى المجلس العام الذى مثلت فيه طوائف الامة جميعا حتى الامراء فكان هذا المجلس بحق مؤتمرا وطنيا عاما يتكلم باسم الامة ...

وممن كتبوا عن عرابى فأنصفوه وأنصفوا حركته السير ماكنزى ولاس الذى رافق اللورد دوفرين الى مصر ، قال : « لم يظهر من عهد محمد على أو من قبل ذلك بزمن بعيد رجل فى مصر كان له على البلاد من السيطرة مثل ما كان لعرابى ، فانه لم يقتصر أمره على أن الشرطة والجيش كانا رهن اشارته بحيث يستطيع أن يأخذ بالارهاب كيف يشاء ، بل كان يتمتع كذلك بعطف كل الطبقات فى مصر تقريبا . ولم يحصل عرابى على نفوذه أو يحافظ عليه بالارهاب لانه عند بدء حركته لم يكن لديه أية قوة يضر بها أحدا ، ولم يعلم عنه انه فى أثناء

(١) M. E. Cromer p. 251

قوته ذبح شخصا أو شنقه أو رماه بالرصاص ؛ ولو أنه خاض معركة انتخابية خالية من وسائل الغش ، وكان خصمه فيها توفيق ، لفاز عليه بأغلبية هائلة من أصوات الناخبين الاحرار » (١)

وقال فى موضع آخر : « اذا كنا لم نرد أن نقيم نظاما دائما فى مصر فلماذا ذهبنا الى هناك ؟ واذا كنا لم نرم الى اقامة حكومة صالحة حقا فلماذا قضينا على الحزب القومى الذى كان لديه فرصة لاقامة نظام من أى نوع ، كان خيرا مما يصنع الخديو الذى أعدناه الى سلطته» (٢)

وكذلك ممن أنصفوا عرابى اللورد شارلز برسفورد الذى اشترك فى ضرب الاسكندرية فقد كتب فى جريدة التيمس بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٣ : « حقا أن من الممكن أن تسمى حركة عرابى حركة قومية ، فقد نعتها بعض الانجليز بهذا فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ عندما تحرجت الامور تحرجا خطيرا ، وكان منهم بعض الضباط البحريين من ذوى المكانة والذين حضروا فى الاسطول الذى جاء الى الاسكندرية ... ونحن اذا نظرنا الى المسألة من وجهة النظر المصرية لايخالجنا أدنى شك فى أن عرابى كان يحظى بعطف الشعب المصرى.. ويستطيع عرابى واصحابه أن يقولوا انهم كانوا يحاربون فى سبيل الاصلاح ، وأن الدليل الذى يؤيد عدالة قضيتهم هو أن انجلترا آخذة فى تنفيذ اصلاحاتهم بالذات ، ويستطيعون كذلك أن يبرهنوا بحقيقة أخرى هى أنهم لم يأخذوا من الشعب قرشا واحدا الا ما رأوا أنه ضرورى لخير الشعب ، الامر الذى يعد نادرا فى الشرق » ...

اما برودلى فيقول عن عرابى : « انى لا أكتفى بأن اقول ان الامة كلها كانت فى جانب عرابى ، بل انى أقرر

---

(١) Egypt and Egyptian Question p. 379

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٧ .

فى غير خوف من نقض آرائى أن عرابى واصحابه قد أظهروا فى أداء رسالتهم أمانة تامة واعتـــدالا وروحا انسانية تشرفهم على مدى العصور» .. وقال فى موضع آخر : « ليس يخامرنى أقل شك فى أن عرابى واصحابه كانت لديهم كل القدرة على أن ينهضوا بحكم أمتهم حكما شعبيا وأن ينفذوا فى جدارة كل التغييرات والاصلاحات التى خلفوها لنا بصفتنا ورثتهم وخلفاءهم ، لم يكن عرابى من ذوى الاحلام أو من ذوى التحمس ، وانما كان - اذا قيس بالمقيـــاس المصرى - رجــــلا متعلما ذا مقدرة ملما بشئون وطنه وما تحتاج اليه بلاده ، وهب كثيرا من النشاط وقدرا عظيما من أمانة الفرض » ...

وكان الامراء والعلمــاء والاعيان وهم صفوة الامة ، يحترمون عرابى ويرفعون قدره .. كتب اليه الامير ابراهيم باشا وهو بكفرالدوار فكان‌مما خاطبه به قوله : « الى صاحب السعادة حامى حقوق مصر أحمد عرابى باشا » (١)

وأثنى الامير فى كتابه على همته ونخوته وعبر له عن مودته ومحبته ...

وقال الشيخ محمد عبده فيما كتبه للمستر برودلى بعد أن ذكر ما كان بينه وبين عرابى من خلاف فى الرأى قبل يوم عابدين : « ان الاجتماعات العامة المتنوعة التى عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برئاسة سلطان باشا حولت فى الحال مقام عرابى من قائد جيش الى قائد مصر ، وحينئذ أصبحت وسلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرابى » (٢)

وقال برودلى عن الشيخ محمد عبده : « انه أمدنا بقدر كبير من المعلومات عن‌الايام الاولى للحركة القومية ،

(١) How we defended Orabi p. 381

(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص ٢٢٧

ووصف وصفا حيا كيف أصبح عرابى بطل مصر الذائع الصيت ، وكيف أن آلافا من الآباء المصريين أطلقوا على أبنائهم أسمه وكيف ذهب اسم توفيق من الارض » (١)

وكانت أميرات الاسرة الخديوية ما عدا زوجة توفيق وأمه ، يعطفن على عرابى ويتحمسن لقضيته ومن بينهن الاميرة أنجه هانم ارملة المرحوم سعيد باشا التى أهدت الى عرابى خيمة زوجها ، وقد كتبت هذه الاميرة الى المستر برودلى بعد الحكم على عرابى تثنى عليه أعظم الثناء وتشكره على صنيعه ، وقدمت اليه والى زميله هدايا غالية ...

وذكر برودلى حديثا طويلا جرى بينه وبين أميرة لم يذكر اسمها وكان يشير اليها بقوله الاميرة ثم يضع خطا مكان اسمها ومما قالته هذه الاميرة : « كانت تعطف كل واحدة منا على عرابى سرا لاننا عرفنا أنه يعمل لخير مصر ، وقد ظننا فى وقت ما أن توفيق يؤيده ، ولـكنا لما رأيناه ينوى ان يخون مصر كرهناه أشد الكره ، وقد بذل كل ما فى وسعه ليشقينا منذ ذلك الوفت ، ولقد حدثته الاميرة انجه التى نجلها كل الاجلال ولكن فى غير جدوى، وذهب توفيقعقب ذلك الى الاسكندرية وانضم الى الانجليز ، ومنذ ذلك الوقت اتجهنا صوب عرابى للدفاع عن الوطن ••• وكانت حماستنا له لا تعرف حدا وكنا نكتب له جميعا الرسائل والبرقيات نهنئه ونشـــد ازره ... وقد كتبت له الاميرة ـ خطابا عظيم الحمق ـ تعرض عليه أن تتزوجه لانها تراه منقذ مصر » (٢)

وذكر بلنت فى كتابه « انه رجع الى يومياته بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٧ ، فوجد فيها أنه زار الاميرة نازلى التى يعد حديثها ممتعا فى أىجماعة منجماعات الدنيا ،

---

(١) How we defended Orabi p. 200

(٢) نفس المصدر صفحة ـ ٣٩٤

والتى كانت تعطف على عرابى أشد العطف ومما ذكرته الاميرة قولها : « كان عرابى أول وزير مصرى حمل الاجانب على طاعته وقد رفع المسلمون رؤوسهم فى عهده على الاقل ولم يجرؤ اليونانيون ولا الايطاليون على الاعتداء على القانون ، وقد أخبرت توفيق بذلك أكثر من مرة . والآن ليس هنا من يحفظ النظام فان المصريين وحدهم هم الذين يقعون تحت سلطان الشرطة ويفعل الاوربيون ما يشاءون » (١)

وقد أورد برودلى رأيا لشخص لايمكن المرء أن ينتظر منه كلمة طيبة عن عرابى وذلك الشخص هو توفيق نفسه ! قال برودلى : « اتيح لى أن أرى توفيق مرتين وذلك عندما سمح أن يلقانى فى قصره بعابدين... وبعد أن قدم لى سيجارة بدأ الحديث فأكد لى أن أوربا أخطأت فهم آرائه فيما يتصل بالتحقيقات الاخيرة ، فهو لم يرد قط موت المسجونين ولا اعتنق هذه الفكرة وكان تغيير الحكم عليهم تجربة سارة للتسامح أملتها عليه ارادته.. وحاولت أن أتكلم قليلا عن عرابى فقال الخديو انه يرى حتى فى هذا الوقت أن عرابى من خيار الرجال ، وأنه لم يصدق لحظة قط أن عرابى أراد أن يقتله ، ولو أنه كان ينوى شيئا من هذا لاستطاع أن ينفذه فى فرص عديدة أتيحت له عندما كان واياه فى القاهرة (٢) ...

هذا جانب مما يقوله المنصفون عن عرابى وحركته من ناحية حياته العامة ، أما من الناحية الشخصية فكان من أبرز صفاته كما رأينا من سيرته الورع وخشية الله والوفاء والاباء الذى قل أن كان له فيهما نظير بين أقرانه والايثار الذى جعله يقدم مصلحة مصر وقضية مصر على مصلحته الشخصية ، وقد رأينا كيف خرج من الحرب

(١) S. H. B. p. 394

(٢) How we defended Orabi p. 381

صفر اليدين كما قال المستر بيمان ، كما رأينا أنه لم يكن يخطو خطوة واحدة بدافع الطمع الشخصى ، وقد تجلى ذلك فى حرصه الشديد الذى هو من صفات

الزعامة الصادقة على قضية مصر وهو فى محنته واهتمامه بأن يرد على كل مطعن يوجه اليها دون أن يعنى قليلا أو كثيرا بما يقال عن شخصه ...

***

أقلعت بعرابى وأصحابه السفينة مريوتس من السويس فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم ٢٧ ديسمبر ، وهى سفينة انجليزية حمولتها نحو ١٤٠٠ طن وقد استأجرتها الحكومة المصرية لنقل هؤلاء المنفيين ...

ولم يقتصر الامر على هؤلاء السبعة المنفيين فقد صدرت فى مصر بعد ذلك أحكام اخرى على عدد كبير جدا من المصريين ، فصدر الحكم على الروبى باشا والسيد حسن موسى العقاد بالنفى ٢٠ سنة فى مصوع ، وعلى أحمد عبد الغفار بالنفى ٨ سنوات خارج مصر وعلى أحمد بك رفعت بخمس سنوات كذلك خارج مصر وعلى الشيخ محمد عبده بثلاث سنوات قضاها فى بيروت ...

وحكم على نحو ٣٥ غير هؤلاء بالنفى مددا تتراوح بين سنة وخمس سنوات ، وقضى على طائفة من كبار الاعيان بتجريدهم من الرتب والامتيازات وان يقيم كل منهم فى بلده مدة معينة ، تحت رقابة الحكومة المحلية مع دفع تأمين مالى كبير ، وكذلك قضى على عدد من كبار الباشوات بأحكام كهذه وان خلت من التأمين المالى ...

أما العلماء فقد قضى بتجريد عدد كبير منهم من رتبهم وشارات شرفهم وامتيازاتهم ومن هؤلاء الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى والشيخ أحمد عبد الغنى ...

وفضى على عدد كبير من الموظفين والعمد والاعيان بمثل هذا الحكم ، كما فصل أكثر من ٢٥٠ ضابطا من ضباط الجيش وجردوا من رتبهم وامتيازاتهم وحرموا من مرتب الاستيداع ومعاش التقاعد ...

ومن اكبر مآسى هذه الاحكام ما حكم به على يوسف أفندى أبو دية ، فقد كان هذا الضابط ياورا لعبد العال قائد دمياط وارسله فى امر الى عرابى بكفر الدوار ؛ وتصادف أثناء مروره بطنطا أن شهد فيها تلك الفتنة التى أشرنا اليها بين الاجانب والمصريين ، فذهب الى المدير ابراهيم باشا أدهم فألفاه متمارضا فعبر له عن أسفه وكان فى كلامه شيء من اللوم ، ولما أخبر عرابى بذلك بادر عرابى باصدار أمره بالقبض على أدهم باشا والتحقيق معه ...

ومن المؤلم حقا أن يقبض بعد هزيمة عرابى على هذا الضابط الامين ثم يتهم باثارةالفتنة فى طنطا ويحكم عليه بالموت ، وينفذ عليه هذا الحكم فيشنق وهو برىء ... ومما يزيد فى معنى هذه المأساة أن الخديو أصدر عفوا عنه ولكن البرقية المرسلة بهذا العفو لم تصل الى المختصين الا بعد أن شنق الشهيد ... وحسبنا هذا الحادث وحده للدلالة على ما كان يسود هذه الفترة التى أعقبت الثورة من ارهاب وبطش ومظالم كثيرة ...

***

وفى ٩ يناير سنة ١٨٨٣ رست السفينة مريوتس بميناء كولومبو بسرنديب ونزل الزعماء السبعة ليعيشوا بالجزيرة ما بقى من أعمارهم كما كان مقررا فى حكم النفى

وان المرء ليمتلىء الما وحنقا على هذا الحكم الجائر الذى يقضى بحرمان هؤلاء الامجاد الميامين من وطنهم الذى أحبوه فى غير ذنب الا هذا الحب ...

ولو أن عرابى قدم الى محكمة عادلة تريد احقاق الحق

لما كان هناك شك فى براءته من جميع ما نسب اليه من تهم ، فقد راينا كيف عجزت لجنة التحقيق مع اضطغانها عليه من أن تدينه فى تهمتى تدبير فتنة الاسكندرية واحراقها

أما العصيان فلم يكن له أى أساس أو شبه أساس كما بينا ، وانما قضت الظروف أن يقر عرابى اقرارا صوريا جانبا منه وهو عصيان أمر الخديو وذلك بالاستمرار فى الحرب بعد أن طلب وقفها ...

وما سمعنا انه فى تاريخ المحاكمات فى الدنيا كلها تقدم الحاكمون يساومون المتهم على أن يقبل كيت وكيت ثمنا لاعفائه من الموت !

كذلك ما سمعنا أن متهما يتفق معه على ما يحكم به عليه قبل مثوله أمام القضاء ، ولو أن عرابى ضمن أن يكون قضاته ممن يطمئن الى عدالتهم ما قبل هذا الوضع وهو متاكد من البراءة ...

ومن أبلغ الظلم فى هذه المهزلة الهازلة أن يمن على امرىء برىء بأن ينفى بدل أن يموت كان من التفضل عليه أن يظلم هذا الظلم الفادح بحرمانه بقية حياته من العيش فى وطنه ومن ممتلكاته التى إحلها الله له ومن أهله وعشيرته وقد كان بنو مصر جميعا أهله وعشيرته ...

ولكن هكذا شاءت سياسة انجلترا ، فان حملتها جاءت الى مصر لاسباب بسطناها تتلخص فى تحقيق حلمها القديم ، ولكنها ادعت أنها جاءت للقضاء على العصاة ، ولو برىء هؤلاء العصاة فكيف كانت تبرر انجلترا مجيئها الى هذه البلاد ؟ ذلك ما جعل دوفرين يقترح ما اقترح، وذلك ما قامت عليه مهزلة المحاكمة وما نتج عنه هذا النفى أو هذا الظلم العظيم ..

# الحياة فى سرنديب

تبلغ مساحة هذه الجزيرة التى نزل بها عرابى وأصحابه نيفا وخمسة وعشرين ألف ميل مربع، وتكثر بها سلاسل الجبال بالجنوب ويتخللها كثير من السهول الواسعة الخصبة التى تنمو فيها غابات عظيمة وعرة المسالك كثيرة الاحراج والالفاف ... وتبلغ أعلى قمة فيها ٨ آلاف قدم ، ومن أشهر هذه القمم قمة جبل آدم وتبلغ مايزيد عن ٧ آلاف قدم ..

ومناخ الجزيرة استوائى ولكن احاطة البحر بها يلطف حرارتها ، ومن أشهر مدنها كولومبو وهى عاصمتها واهم ثغورها ، ثم جافنا وكندى وكالوتارا ..

والتربة عظيمة الخصوبة وتكثر فيها أشجار الفاكهة والخضر وجوز الهند ويزدرع فيها الشاى والبن والارز والقطن والتوابل والطباق ، وتعد سيلان من أعظم حقول الشاى فى العالم ..

ومن حيواناتها الفيلة والنمور والدببة والجاموس والغزلان ، وتكثر فيها أنواع الزواحف وأنماط الطيور

وقد حل بها البرتغاليون منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، والهولنديون منذ منتصف القرن السابع عشر ، وفى سنة ١٧٨٥ امتلكها الانجليز وكانت ملحقة بمدراس ، ثم جعلوا منها مستعمرة قائمة بذاتها سنة ١٨٠١ ..

ومن سكانها الاصليين قبائل السنهاليز ، وأصلهم من الهنود من حوض نهر الكنج وقد حلوا بها منذ القرن السادس قبل الميلاد ولغة هؤلاء أقرب الى الهندية الحديثة وديانتهم البوذية ، ثم قبائل التامل وقد نزحوا اليها من جنوب الهند وديانتهم الهندوكية

ويقطن الجزيرة عدد من المسلمين من أصل عربى أو من أصل هندى . وهم من أذكى سكانها وأكثرهم نشاطا

كما أن بها بقايا البرتغاليين والهولنديين وعددا من الاوروبيين من مختلف الاجناس وعددا من أهل جاوة والملايو وغيرهم من الاسيويين

ويقول عرابى فى مذكراته المخطوطة ان تعداد اهلها زمن اقامته بها كان نحو ثلاثة ملايين ، منهم ٢٥٠ ألف مسلم ، وأن السنهاليز والتامل أهل دعة وسكون يكرمون الغريب ويحسنون معاملته ..

***

ويتحدث عرابى عن نزوله بالجزيرة قائلا : « وفى غروب يوم ٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخلت الباخرة الى ميناء ثغر كولومبو بجزيرة سيلان والقت مرساها فحضر الينا وكيل حكومة سيلان ، وحيانا تحية القدوم ، وابلغ موريس بك (١) بأن الحكومة أعدت أربعة بيوت لذوى العائلات منا وفيها الخدم وكل ما يلزم من أسباب الراحة كالسرر المفروشة اللازمة للنوم والكراسى وأدوات المطبخ والسفرة والدواليب وغير ذلك وذخيرة ثلاثة أشهر ضيافة لنا ، ولكن على حساب مصر ، وثمن تلك الادوات ثلاثة آلاف جنيه ، ثم أمضينا تلك الليلة فى الباخرة المذكورة ، وفى صباح غرة ربيع الاول سنة ١٣٠٠ الموافق ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ خرجنا الى البر فوجدنا رصيف الميناء

---

(١) مرافقهم المنتدب من قبل الحكومة المصرية

مزدحما أيما ازدحام باخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة وأهل جاوه والهند والملايو وأعيان طائفتى التامل والسنهاليز أهل البلاد من عباد الاوثان على مذهب بوذا وكانوا يشيرون الينا بالسلام وزيادة الاحترام

ثم تقدمت لنا العربات فركبنا وتوجهنا الى البيوت المذكورة وكان قد خصص لنا بيت عظيم يسمى « ليك هاوس » ومساحة بستانه ١٤ فدانا وأعظم أشجاره من جوزالهند والموز وغيره ، فتوجهنا اليه والناس مزدحمون على جانبى الطريق من الميناء الى البيت المذكور يهتفون لنا بالترحيب والاكرام الى أن وصلنا الى المنزل المذكور وأخذنا معنا طلبة باشا عصمت وعبد العال باشا حلمى ليقيما معنا حيث أنهما تركا عائلتيهما بمصر ، وكذلك توجه محمود باشا سامى مع محمود باشا فهمى ليقيما فى منزل واحد لان الاول ترك أهله وأولاده بمصر أيضا ، وانفرد كل من على باشا فهمى ويعقوب باشا سامى فى بيت على حدته لوجود عائلتيهما معهما

ولما دخلنا البيوت المعدة لنا ، أخذت تلك الطوائف تتوافد علينا للسلام بوجوه باشة وقلوب مليئة بالمحبة والحنان ليلا ونهارا »

وكان عدد من رافقوا الزعماء السبعة من الاهل والخدم ٤١ ، وكانوا عند وصـولهم كأبناء أسرة واحدة جمعت بينهم المحنة كما جمعت الصداقة من قبل ووثقت الغربة أواصر المحبة ..

وبعد ثلاثة أيام من وصول الزعماء الى الجزيرة أقام لهم كثير من أعيانها وتجارها الولائم ، واشترك فى ذلك المسلمون وزعماء السنهاليز والتامل ، وقد استمرت تلك الولائم بضعة أيام، وكان يدعى اليها كبار سكان كولومبو، فعرفوا زعماء المصريين وألفت تلك الاجتماعات بينهم .

وأقام عرابى وأصحابه لهؤلاء وليمة كبيرة وصفها عرابى بقوله : « وبعد ذلك أقمنا وليمة جامعة لاعيان المسلمين والانجليز والتامل والسنهاليز وكان عدد المدعوين اليها ٢٠٠ شخص من مختلف الاجناس والمذاهب ، والمعتقدات .. شكرا لهم على حسن حفاوتهم بنا » .

وكانت الحكومة المصرية قد أرجأت تقرير ما يلزم ثمنا لمعيشة كل من المنفيين حتى تعلم حال الجزيرة من حيث رخص الاسعار أو غلائها ، وفى فبراير سنة ١٨٨٣ وصل الى الجزيرة حاكم جديد هو السير آرثر جوردن فخاطب الحكومة المصرية فقررت لعرابى ٥٠ جنيها شهريا ولكل من أصحابه ٣٨ جنيها ..

وكان عرابى وأصحابه يقضون أوقاتهم فى القراءة والكتابة ، وتعلم اللغة الانجليزية وفى التزاور بينهم وبين حكام الجزيرة وأعيانها .

وكتب عرابى الى صديقه برودلى كتابا فى ٢٤ يناير سنة ١٨٨٣ ، كان مما جاء فيه : « وقد لقيتنا السلطات هنا فى الجزيرة بالحفاوة وأعدوا بيوتا لراحتنا وزودونا بقدر كبير من الاطعمة الدسمة التى كفتنا وأسرنا بضعة أيام .. ونجد الجزيرة ملائمة لسكنانا كل الملاءمة بمناخها ، ونعتزم أن نرسل أبناءنا الى المدارس المحلية وأن نتعلم نحن اللغة الانجليزية... ويبعث اليك اخوانى وأبناؤهم خالص مودتهم ، وانى أرجو أن تذكرنا لاخى أحمد بك رفعت اذا كان عندك والى أمك العزيزة التى هى موضع اجلالنا جميعا »

وأبى وفاء بلنت الا أن يزور صديقه فى منفاه ، وقد اضطر أن يبقى بلندن كما رأينا ليدبر وسائل الدفاع عنه فلم يستطع أن يزوره فى مصر

يقول عرابى : « وفى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٨٣ ، حضر

صديقنا المستر بلنت من انجلترا لزيارتنا وتهنئتنا على نجاتنا من أيدى خصومنا ، وبوصول القطار كولومبو ، هرع جميع سكان الثغر المذكور لاستقباله حيث كانوا على استعداد تام لذلك قبل وصوله ، وقد أخذنا نحن واخواننا واولادنا زورقا بخاريا وذهبنا الى القطار المذكور ثم صعدنا اليه وحظينا بمقابلته ومقابلة السيدة الفاضلة الليدى آنا بلنت وكان بمعيتهما القس لويس صابونجى ، ثم نزلنا بعد ذلك الى الرفاص وعدنا الى البر والزوارق الاهلية محيطة بنا يهتف من فيها بعبارات الترحيب ويشيرون بأيديهم علامة للسلام والاعظام ..

ولما وصلنا الى البر تكاثرت علينا جموع المحتفين بقدوم السير ولفرد اسكاون بلنت حتى تعسر علينا الوصول الى المركبات ،ولولا تدخل الشرطة لمنع ذلك البحر الزاحف من التكدس حولنا لاضطررنا الى الوقوف فى الميناء الساعات الطوال ...

ثم ركبنا العربات وتوجهنا الى سراى مورجن المعدة لاقامة ذلك الضيف الكريم مدة ضيافته ، وهى كائنة على بعد ثلاثة أميال من الميناء بجهة متوال ، مشرفة على البحر ، وكان الناس مصطفين على جانبى الطريق الموصل الى السراى وهم يحيون المستر بلنت ونحن معه فى المركبة بوجوه باشة وأسارير نضرة حتى وصلنا قصر الضيافة»

وبالغ أهل المدينة فى الحفاوة بضيف عرابى وبزوجته فوضعوا الزينات على الدار التى نزل فيها ، وأقاموا أقواس النصر على مقربة منها وزينوها للناظرين بالاغصان من كل صنف وبالازهار المختلفة الالوان ، وكتبوا عليها بالانجليزية : « مرحبا بالصديق الوفى المستر ولفرد اسكاون بلنت »

واعدوا له مأدبة كبيرة شهدها أكثر من ٢٠٠ مدعو ،

وخطب بعض الخطباء مرحبين بالضيف العزيز ، وأثنوا على وفائه واخلاصه ، ورد بلنت شاكرا لهم حفاوتهم وشريف احساسهم ...

وأقام بلنت وزوجته بالجزيرة ٢٢ يوما ، وكان لمقامه بين الزعماء أثر طيب ، فقد أخذ قبيل مجيئه يدب دبيب الخلاف بين عرابى وبعض اخوانه وخاصة محمود فهمى باشا الذى استوحش المنفى فاضطربت أعصابه ، وهو فى الحق منذ أن أسلم نفسه للانجليز فى الميدان الشرقى لا يخلص الود لعرابى ، ولعله كان يرجو من وراء ذلك أن يخفف عنه ، فلما نفى مع المنفيين ضاق صدره واخذ يكره عرابى ويرد اليه سبب ما لحقه ...

وأعاد بلنت الوئام بينهم ولم يختلفوا بعدها أبدا ، وان كان محمود فهمى باشا ليخفى فى نفسه ما لايستطيع أن يبديه من السخط والنفور .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٣ زار عرابى فى كولومبو اثنان من اللوردات الانجليز ، هما اللورد روزبرى واللورد ماكدونالد واستطلعا رأيه فى حركة المهدى بالسودان ، وكان يترجم الحوار بينهما محمود فهمى باشا ، فسألا عرابى هل محمد أحمد هو المهدى المنتظر عند المسلمين ؟ وأبدى عرابى دهشته قائلا : وماذا يعنيكم من أمره ؟ فقالا : ان أمره يهم انجلترا فان فى الهند ٦٠ مليونا من المسلمين يعتقدون أن المهدى المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، وأجاب عرابى بأن كل داع الى الخير والاصلاح هو مهدى ولكنه لا يكون المهدى المنتظر ، وقال اللوردان ان الحكومة الانجليزية أرسلت جيشا مكونا من عشرين ألفا بقيادة هكس وسألا عرابى هل يكفى هذا الجيش للتغلب على المهدى ؟ فقال عرابى : « نحن نرى أن وجود قائد انجليزى على جيش يكون من صالح المهدى

فانه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هـذه القيادة ؛ واذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قويا يخشى جانبه » .

ونصح عرابى بمقابلته فى منتصف الطريق بأن تقيمه مصر أميرا على السودان على أن يكون تابعا للتاج المصرى وتنبأ عرابى باندحار حملة هكس ، وفى اليوم التالىأذاعت البرقيات هلاك الحملة كلها ...

وفى شهر ينـاير سنة ١٨٨٤ زار عرابى فى كولومبو مهراجا سلطنة لاهور ، يقول عرابى : « فلقيناه بما يجب لجلالته من التعظيم والاحترام وكان بمعيته مستشار انجليزى حتى لا ينبس نبسة الا حفظها الرقيب عليه فى حبة قلبه ، وبعـد نصف سـاعة عادا الى دار حكومة سيلان » .

ووردت الى عرابى بكولومبو رسالة خطيرة من المستر بلنت فى أواخر سنة ١٨٨٤ ذكر فيها بلنت أن الحكومة الانجليزية تفكر فى تعيين عرابى سفيرا مؤقتا الى المهدى لرفع الحصار عن غوردون على أن يعزل توفيق ويعين أمير غيره يستطيع الاتفاق مع المهدى ، وأن النية متجهة الى اعادة اسماعيل بشرط أن يكونعرابى رئيسا لوزارته باعتباره زعيم مصر المختـار ، وطلب بلنت رأى عرابى ، فأبرق اليه أنه يرفض ذلك وانه يؤثر المنفى على مثلهذه العودة وهذا الحكم تحت رئاسة اسماعيل الذى لايشـاكل مبادئه وخطته ، وقد ادى مقتل غوردون الى الانصراف بالضرورة عن هذه المسألة ...

وكان لغوردون قبـل ذلك مسـاع لاعادة عرابى الى وطنه ، فقد كتب بلنت فى جريدة «البولمولجازيت» فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٧ مقالا جاء فيه قوله : « يجب

ان أشير الى أن الحكومة الانجليــزية أدركت خطــأهــا واعتزمت اصلاح موقفها وذلك بأن تعيد عرابى بعد سنة أو سنتين من نفيه وتساعد على تشكيل الحزب الوطنى من جديد ويؤيد رأيى هذا كتاب وصلنى من الجنرال غوردون وانى أسمح لنفسى باذاعة محتوياته لاول مرة ، فقد كتب لى من الكاب يبلغنى بميله وعطفه على عرابى باشا طوال مدة الحرب ولما عاد الى انجلترا فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ تفضــل بزيارتى ليــؤكد لى عزم الحكومة ونياتها وها أنذا حين رجعت الى مذكراتى التى كتبتها عن هذه المقابلة وجدت اننىكتبت فيها : «زارنى الجنرال غوردون وتناول معى الغداء بمنزلى الكائن بشارعجيمس وقد تبين لى انه كان يعطف عطفا تاما على عرابى ابان الحرب وقال الجنرال : انه اتى ليدرس معى أمر انشاء حكومة حرة فى مصر تحت ملاحظة انجلترا » ...

وكانتحياة الزعماء بالجزيرة حياة رتيبة لا تغير فيها ولكنهم لم يشعروا بالملل وذلك لما كان بينهم وبين سكان الجزيرة من صلات الود ومن تبادلالمراسلات والزيارات

وفى سنة ١٨٨٨ ،توفى لعرابى أبن فى الثالثة من عمره كان اسمه صالح ، وقد كان مصابا بالدفتريا ، وحزن عليه حزنا شديدا ...

وحدث بعد ذلك سنة ١٨٩١ أن قضى عبد العال باشا حلمى نحبه فى شهر مارس ، وكان لوفاته حزن عميق فى نفوس أصحابه ، ورأوا فى مصيره شبح مصيرهم فعظم عليهم ذلك ، وقد ذكر عرابى نبأ وفاته بقوله : « وفى سنة ١٣١٠ توفى شهيد الوطنية والغربة عبد العال باشا حلمى ودفن فىقرافة قسم مردانة أيضا وضريحهمشهور يزار ، ومن كراماته ما شهدناه من أجتماع أسراب الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة حتى واريناه التراب ،

وقد أخذ العجب من الناس كل مأخذ » .

وفى سنة ١٨٩١ ، زار السير توماس لبتن صاحب مزارع الشاى المعروفة باسمه ، عرابى باشا ودعاه الى زيارة مزارعه على نفقته ، على أن يصحبه من يشاء من اخوانه ، وقد رحب عرابى بهذه الزيارة ترويحا للنفس واستجلاء للجنان من أكداس الصدأ الذى اصطلح عليه

وعين السير توماس اثنين من وكلائه الانجليز لمرافقة عرابى ، ولم يذهب مع عرابى من أصحابه الا على باشا فهمى وكان أشدهم اخلاصا ومحبة له ...

يقول عرابى : « فقمنا من كولومبو ومعنا أخونا على باشا فهمي والوكيلان المذكوران الى مدينة كندي العاصمة القديمة ومقر الحكومة بطريق السكة الحديد فوصلناها بعد أن قطع بنا القطار ٧٢ ميلا ، ومن ثم ركبنا قطارا آخر الى نوراليه وهى آخر محطة للسكة الحديدية ، فبلغناها بعد قطع ٢٠ ميلا ، ومن هناك ركبنا المركبات وصعدنا الى سطح جبل هناك واقمنا ليلتين فى فندق يقال له جراند أوتل ... ولما سمع المسلمون بمقدمنا حضروا لزيارتنا والاحتفال بنا زرافات ووحدانا ... فشكرناهم على حسن ترحيبهم بنا.. وفى اليوم الخامس وصلنا الى دمبتنا وهناك استقبلنا أهلها من المسلمين وغيرهم بكل بشاشة واكرام ، وبعد أن تغدينا فى نزلها امتطينا جيادا كانت معدة لنا وصعدنا الى سراى السير توماس لبتن البعيدة عن النزل بحوالي أربعة أميال..وهناك وجدنا أسباب الراحة متوفرة فأقمنا شهرا كاملا فى ضيافة صديقنا سالف الذكر ... ولايجاد نوع البن اليمنى فى بلادنا المصرية أرسلنا الى صديقنا المرحوم أحمد باشا المنشاوى تقاوى تكفى لزرع ٢٠ فدانا حتى يعم انتشاره ، كما أرسلنا له لهذا الغرض أحسن أنواع

المانجة والموز الاحمر والاصفر المضلع أيضـــا وغيره من الاصناف المتعددة من الفـــاكهة الزكية الرائحة اللذيذة الطعم مما رجوت انتشاره فى مصر ، وبعثنا اليه أيضا بأنواع الحبهان والقرنفل والمنلا الطيبة الرائحة ... ثم زرنا مصانع صديقنا السير لبتن بجهة بيراسيا ومكثنا بها شهرا أيضا » ...

وفى سنة ١٨٩٢، أى بعد نحو عشرسنوات من مجيئه الى كولومبو ، انتقل عرابى الى مدينة كندى ، وسوف يظل بها حتى يعود الى مصر... وقد امر الحاكم بسفره اليها فى صالونه الخاص بالسكة الحديد ...

وقد سبق عرابى الى مدينة كندى محمود سامى ، ويعقوب باشا سامى وطلبة باشا عصمت ، ثم انتقل اليها بعد قليل على باشا فهمى ، ولم يبق فى كولومبو غير محمودفهمى باشا وكانقد أصيب بالفالج فىجنبه الايسر

وذهب محمود باشا فهمى الى كندى لتبديل الهواء ونزل ضيفا على محمد عرابى نجل عرابى باشا ، وهناك قضى نحبه فى ١٧ يوليو سنة ١٨٩٤ ...

يقول عرابى : « ومدينة كندى هذه كائنة فى واد ذى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال وبها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك طائفة السنهاليز ... وفى المدينـــة المذكورة ضريح للسيد شهاب الدينعلى مرتفع منالارض يصعد اليه بمرتقى نحو ٢٠ سلما ومسجده عظيم متقن وهو حرم المدينة... وهناكمسجد آخر لطائفة الملاى ، وكنيسة للبروتســـتانت وأخرى للكاثوليك ، ومعـــابد لطائفتى السنهاليز والتامل .. ويبلغ تعداد هذه المدينة ٢٠ الف نفس ، منهم نحو ١٠ آلاف من المسلمين وكلهم على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه » ...

وصار لعرابى مكانة عظيمة بين سكان هذه المدينة ،

وقد سارع المسلمون باستيراد الطرابيش من الخارج ، ولبسها اسـوة به وبأصـحابه ، وبلغ من حبهم لعرابى واجلالهم له انهم كانوا يطلقون عدة طلقـات من مدفع بجوار المسجد الذى كان يؤدى فيه صلاة الجمعة كل اسبوع

وذهب لعرابي صيت فى الجزر المجاورة مثل ملاديف ولاكاديف وفى الهند وبورما والملايو ، وقد ارسل اليه سلاطين هذه الجهات وبعض مهراجات الهند كثيرا من الهدايا وظلـوا على مودته حتى عاد الى مصر ، وكان يستشيره سلطان جاوا فى كل أموره ويعد رأيه دستورا لايمكن نقضه ، ولما كان عرابي ممنوعا من مغادرة الجزيرة كان ينيب عنه بعض أولاده فى اجابة الدعوات التى ترسل اليه ومن ذلك دعوة أمير حيدر اباد فى الهند ودعوات سلطان جاوا وبعض سلاطين الملايو وغيرهم فى جهات كثيرة

وظل بعض أصحاب عرابى وهم قلة قليلة فى مصر على الوفاء له فكانوا يرسلون اليه الكتب ، ومن هؤلاء احمد باشا المنشاوى ومحمد بك الزمر وخضر بك خضر ، والنجدى بك والشيخ احمد عبد الغنى ، والشيخ محمد خليل الهجرسي وكان منفيا بالحجاز ، وقد ضرب هذا الاخير المثل الاعلى فى الوفاء ، وذلك أنه لما انتهت مدة نفيه وهى خمس سنوات أرسلت اليه الحكومة آذنا بالعودة الى وطنه فرفض أن يعود « حتى يعود عرابى وحتى يموت توفيق أو يتنحى عن عرشه » ...

وداب الشيخ الهجرسى على ارسال كتبه الي عرابى من الحجاز، وكان اذا سمع عن احد رجال الثورة الباقين انحرافا عن مبادئها كتب الى عرابى ليسقطه من حسابه، ويتبين هذا فيما كتبه عن امين بك الشمسى فقد قابله أثناء الحج فكتب الى عرابى كتابا جاء فيه : « وقد زار المدينة عدة اناس منهم أمين الشمسى الزقازيقى ، وانى

لالتمس من دولتكم ألا تخاطبوه أبدا فى هذه الغربة حتى تنقضى هذه الكربة فانه أسيف على ضياع بعض أمـــواله وتغير بعض أحواله بسبب هذه المسألة ولا أسف له على المهم الاكبر من ضياع القطر وما حل باعظم رجال الدين فى هذا الامر لان أمثاله فى خدمة الدنيا فقط ، اســأل الله الكريم بجاه هذا النبى العظيم أن يردكم الرد الجميل مع الحظ والنصر والسعد الجزيل » ...

وظل على الوفاء له من الانجليز المستر برودلى ، فلم تنقطع رسائله اليه الا بعد وفاته ، وقد ارسل الى أولاده بعد وفاة أبيهم يذكر لهم أنه على استعداد لمعاونتهم فى المطالبة برد أملاك أبيهم ..

وكان صديقه بلنت وزوجته آنا بلنت حفيدة اللورد بيرون يرسلان اليه الرسائل المملوءة بالعطف والمودة ، وكانت آنا تكتب العربية فى طلاقة (١)

وكتب له غير هـــذين عدد من المعجبين بحركته من الانجليز وخاصـــة بعض أصحاب الصحف والمجلات ، وكانوا يسألونه كثيرا عن حوادث ثورته ..

وقد ذكر لى أحد أبنائه أنه علم ممن لا يجهل ولا يكذب ان كثيرا من الرسائل تبادلهـــــا والده ومصطفى كامل فى اول حركتـــه وان فارس نمر باشا حصل على الرســـائل التى كانت لدى مصطفى كامل ...

وفى فبراير سنة ١٩٠٠ سمحت الحكومة المصرية لطلبه باشا عصمت بالعودة الى مصر حيث ساءت صحتــه وقررت جمعية من الاطباء وجوب سفره فى تلك السنة ودفن بمدافن الامام الشافعى

وفى اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى بكندى يعقوب باشا سامى ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى ، وكان قد صدر

---

(١) بين يدى بعض كتبها الى عرابى بخطها العربى وعبارتها العربية

العفو عنه ولكنه قضى نحبه قبل أن يصل اليه النبأ...

واصيب محمود باشا سامى البارودى برشح فى القرنيتين أفقده البصر وقرر الاطباء ضرورة عودته الى مصر لمعالجته فى المناخ الذى نشأ فيه ، وعفا عنه الخديو عباس حلمى فعاد الى مصر وردت اليه ممتلكاته المصادرة وجملة ريعها ولكن لم يعد اليه بصره ، وتوفى سنة ١٩٠٤

وقد حدث فى ١٢ مايو سنة ١٩٠١ ، أن زار الجزيرة ولى عهد انجلترا الملك جورج الخامس - فيما بعد - فاستقبل عرابى ورحب به وسأله عن صحته وعن حاله وكانت هذه الزيارة سببا فى عودة عرابى ، ولندع لعرابى أن يصف كيف كانت عودته ، قال : « عرضت على سموه أنى أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكا لنا من الاسر فتكرم علينا بأنه سيسعى لدى الخديو فى تحقيق أمنيتنا ، ثم دارت المخابرة بين سموه وبين الحكومة الانجليزية والحكومة المصرية فى هذا الشأن ...

وفى ٢٤ من الشهر المذكور ، جاءنا تلغراف من حاكم الجزيرة يقول فيه انه قادم الى كندى ليبلغنا شخصياً صدور أمر الخديو بالعفو عنا وعودتنا الى وطننا العزيز، وعند حضوره توجهنا اليه وشكرناه على سعيه وعرضنا عليه أن لنا الحق فى السفر على نفقة الحكومة التى حملتنا الى تلك الجزيرة

وفى اغسطس بارح على فهمى باشا جزيرة سيلان ، وبلغ القاهرة فى أول سبتمبر من السنة المذكورة ...

وفى ٤ سبتمبر بارحنا مدينة كندى صباحا وكان صالون الحاكم معدا لنا فأقلنا القطار الى كولومبو ، أما احتفال أهل كندى بوداعنا فقد كان عظيما حتى غصت أرصفة المحطة بالمودعين وفى مقدمتهم محمد أفندى يوسف والدكتور كيت طبيب عائلتنا وابراهيم لبى وغيرهم ، ولما

وصلنا ثغر كولومبو نزلنا فى منزل صديقنا المحترم كرمجى جعفرجى ، واقمنا به فى انتظار السفينة المسماة برنس هنرى الالمانية الآتية من الصين ، وفى تلك المدة دعينا لتوزيع المكافآت على الناجحين من تلاميذ مدرسة ميردانة الاسلامية التى افتتحت بحضورنا على نفقة المسلمين .

وفى أصيل ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ دخلت السفينة البرنس هنرى ميناء كولومبو ، وتغطى وجه المـاء بالزوارق والرفاصات ، وتكدست جموع المودعين تكدسا هائلا حتى لم نتمكن من الوصول الى السفينة الا بشق النفس ، وهناك تليت علينا قصائد التوديع من نخبة أهل سيلان ثم سلمت الينا فى محافظ من الفضة الخالصة البديعة الصنع ...

ولما استقر بنا المقام فى السفينة بعد مغـادرة تلك الجموع المكتظة بها اقلعت بعد ساعتين باسم الله مجريها ومرساها تمخر فى عرض المحيط الهندى لاول مرة ، وقبلتهـا كنانة الله العزيز الحكيم ، وكانت حمولتهـا ١٢٫٠٠٠ طن وسرعة سيرها بنسبة ١٦ عقدة فى الساعة وهى مستوفية لاسـباب الراحـة وكانت الرياح هادئة ، وبعد قليل غابت شواطىء الجزيرة عن الانظار ...

على هذا النحو مرت الايام والليالى حتى وصلنا خليج عدن والسفينة تتهادى فى مياه البحر الاحمر... وبعد أن قطعت نحو ثلاثة آلاف ومائتى ميل وست فى ميناء السويس وذلك فى غروب يوم ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ ، فقضينا تلك الليلة فى السفينة وفى الصـباح ودعنا من فيها وخرجنا الى البر ونحن نتنفس الصعداء ونلهج بالدعاء لله سبحانه وتعالى بالوصـول الى بلادنا سالمين بعد مرور ١٩ عاما تحملنا فيها آلام الفراق »

## العائد الذى نسى

غاب عرابى عن مصر ١٩ عاما ، وأقام بها الاحتلال الذى جاء للقضاء على العصاة فحسب هـذه الاعوام التسعة عشر ، وعمل الاحتلال فى هذه السنين الطويلة على مد جذوره وبسط فروعه ، على الرغم من وعوده المتكررة بالجلاء ، بل بفضل هذه الوعود التى لم يكن يقصد بها الا خدعة المسئولين ...

لم تكد تمضى خمسة أشهر على دخول الانجليز مصر حتى تمت لهم السيطرة على الجيش والشرطة ، أما جيش الثورة فقد حله توفيق بجرة قلم كما ذكرنا بتهمة العصيان ، وأحل الاحتلال محله جيشا جديدا هزيلا فى قبضة سردار انجليزى ، ولم يكن للروح المعنـوية سبيل الى قلوب رجاله ، بل كان السبيل للرهبة والنظر الى الانجليز نظرة السادة الذين أعادوا للخديو سلطته فهو مدين لهم بكرسيه ، واذا كان « أفنديـنا » يظهر الخضوع والولاء للانجليز صغارهم وكبارهم ، فكيف بالجند ؟ وبلغ هذا المعنى أقصى مداه فى حادث الحدود فى يناير سنة ١٨٩٤ ، فقد أبدى الخديو ملاحظات على فرقة من الجيش المصرى بقيادة ضـابط بريطانى عند وادى حلفا ، وعاب على الجيش سـوء نظامه ، فعد السردار اللورد كتشنر كلام الخديو اهانة له ولـكرامة

انجلترا ، وكان جزاء الخديو وقد بلغ الفيوم عند عودته الى القاهرة أن منع منعا صريحا من دخول العاصمة الا أن يعلن ثناءه على الجيش وادارته ليكون هـذا بمثابة اعتذار منه ، ولم يجد الخديو بدا من الاذعان ، ثم سمح له بعد ذلك بدخول عاصمته ، وثبت فى نفوس الجند أن سلطة أى ضابط بريطانى أكبر من سـلطة الخديو ، وأن الرقى والاسعاد لمن كان له عند الانجليز حظوة ...

واما الشرطة فقد عين رئيس عام لهم من البريطانيين كان له سلطة الاشراف التام عليهم ...

وسيطر الانجليز على الشئون المالية ، وذلك بأن الفوا الرقابة الثنائية ، وعينوا مستشـارا عاما ماليـا انجليزيا فى أوائل سنة ١٨٨٣ لا يبرم أمر من الامور يتصل بالمال الا باذنه ...

وقبض الانجليز على ناصية الحكم والادارة ، فـكان لكبار موظفيهم وصغارهم فى الدواوين الكلمة العليا ، والجاه والهيبة ، تكفى كلمة من أحدهم لنقض أى أمـر لاى وزير ، والدليل على ذلك فى هذا البلاغ الذى أصدرته الحكومة البريطانية الى سفيرها فى مصر ليحمله الى شريف باشا بمناسبة اصراره على الاحتفاظ بالسودان : «مادام الاحتلال المؤقت قائما فيلزم أن تكونوا على يقين من أن النصائح التى تزجونها لسمو الخديو وحكومته يؤخذ بها وتنفذ ، ويجب أن يعلم النظار والمديرون صراحة ، أنه ما دامت انجلترا مضطلعة بالمسئولية فى مصر ، فان حكومة جلالة الملكة لابد أن تطمئن الى تنفيذ سياستها المرسومة والا وجب على النظـار والمديرين أن يتركوا كراسيهم .»

أما الدستور فيا أسفا عليه ، قد الغاه الاحتلال واحل

محله فى مايو سنة ١٨٨٣ ما عرف بالقانون النظامى ، وبمقتضاه انشىء مجلس شورى القوانين وأنشئت الجمعية العمومية ، وهما هيئتان لا سلطة لهما ولا شبه سلطة الفرض منهما خداع الامة بأن لها مجلسين ، بدلا من مجلس واحد ، وشتان بين هـذين وبين ذلك المجلس النيابى الذى كانت الوزارة مسئولة أمامه والذى وضعت وزارة البارودى أو وزارة الثورة دستوره ، فجعلت به الامة مصدر السلطات كما هو الحال فى الدساتير الحديثة

هكذا قضى الاحتلال على كل شيء ، وجعل همه بث هيبة انجلترا فى نفوس المصريين والقضاء فى عنف على أية محاولة لبعث الروح الوطنية مهما كان من ضآلتها ، وألقيت مقاليد الامور الى كرومر أحد بناة الامبراطورية وأحد أساطين الاستعمار ...

وكان دعاة الاحتلال والسنته يلقون فى روع الناس أن حركة عرابى لم تكن الا عصيـانا أهوج بعثـه الطمـع الشخصى، وأنه لولا أن تداركت انجلترا البلاد من فوضى هذا العصيان الاحمق للحق بها الهلاك ...

وثبت فى أذهان ناشئة الجيل الذى أعقب الاحتـلال أن عرابى هو سبب النكبة وأن « هوجة » عرابى هى التى جلبت الاحتلال ، ومما يؤسف له حقا أشد الاسف أن بعض المصريين ما يزالون حتى الآن يرددون هذا الكلام

وشاع الانحلال القومى فى الامة ، وماتت روح المقاومة وخيل للناس أن الاحتلال قوة لا تقاوم أبدا وأن هؤلاء الانجليز المتسلطون لن يغلبهم غالب ...

وفى هذا الجو الكئيب وصل أحمد عرابى باشا زعيم الثورة القومية الى مصر ، فلم يجد أحدا من الجيل الناشىء يذكره ويذكر ثورته الا بالسوء من القول ، ولولا بقية ممن شهدوا الثورة وعرفوا حقيقة أمرها ، ما لقيه

فى مصر أحد ...

يقول عرابى بعد أن وصل السويس : « وهناك نزلنا فى منزل الشيخ البخارى ، بعد أن كتبنا الى محافظ البندر مصطفى بك ماهر الذى كان من تلاميذ السيد عبد الله نديم وكان معروفا بحبه للحرية والوطنيـة ، فأنكرنا واعرض عنا ولم يرد علينا ، فأرسلنا برقية الى قائمقام الحضرة الخديوية فخرى باشا (١) فكتب الى مصلحة السكك الحديدية بحجز صالون لنزولنا وعائلتنا ومن معنا من السويس الى القاهرة على نفقة الحكومة.. وفى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠١ ، برحنا السويس ووصلنا القاهرة قبيل الغروب، وكان ازدحام الناس لتوديعنا فى محطة السويس عظيما ، وكذلك عند استقبالنا فى الزقازيق ، وبنها ، وخاصة فى القاهرة ، فان ازدحام الناس بلغ أشده ، بالرغم من اعلان المحافظة بعدم التجمهر والاحتفاء ...

ولما نزلنا فى محطة القاهرة أخذنا المركبات الى منزل أولادى الكائن بشارع الملك الناصر فى شارع خيرت ، واجتمعنا بهم بعد غياب ١٩ عاما و ٤ أشهر » ...

وعاش عرابى فى منزل أولاده بشارع خيرت كما يعيش عامة الناس ، الرجل الذى كانت مصر كلها فى قبضته ، والذى خلعت الامة طاعة الخديو لتطيعه فى الدفاع عن وطنه ، والذى أيده السلطان وراسله ، والذى لم تجد انجلترا بدا من اعداد حملة تحاربه وتحارب مصر المتوثبة فى شخصه ...

وكانت جريدة « اللواء » تناصر عباس فرأت أن تتلقى عرابى لقاء كريها ابتغاء مرضاته ، كما رأى شوقى شاعر

(١) كان الخديو بأوروبا وتصادف انه وصل الى الاسكندرية فى اليوم الذى وصل فيه عرابى الى السويس

الامير أن يهجو الزعيم العائد تزلفا الى الامير وعملا بسنة قديمة للشعراء ، مؤداها أن يمتدح الشاعر من يرضى عنه أميره وأن يذم من يغضب عليه ذلك الامير دون أن يكون بين الشاعر وبين من يمدح أو يذم أية صلة ...

وقالت جريدة « اللواء » وهى تعلم أنها كاذبة فيما تقول : أن اللورد كرومر جاء بنفسه الى محطة القاهرة لاستقبال عرابى وذلك لتلقى فى روع الناس أن عرابى من صنائع الانجليز ...

ونشر شوقى قصيدة قال فى مطلعها :

صغار فى الذهاب وفى الاياب أهذا كل شأنك ياعرابى؟

وفى مثل هذا الهذر من شاعر الامير صورة من أخلاقه وصورة من روح العصر كله ، ودليل على ما نقوله من اجتماع عوامل كثيرة على تشويه سيرة عرابى ، كان القصر أيام توفيق وأيام ابنه عباس من أهمها ...

ولو صدقت جريدة « اللواء » لخف الى المحطة مع كرومر مئات من المصريين للقاء عرابى والحفاوة به لا ليظهروا له مودتهم ، ولكن ليظهروا تملقهم لعميد الاحتلال صاحب القوة والجاه فى مصر ...

قال عرابى : « غير أن رجوعنا الى وطننا العزيز لم يرق فى نظر خصومنا الجهلاء ظنا منهم أننا بعنا ذلك الوطن للانجليز على اتفاق بيننا وبينهم ، فأوعزوا الى بعض الجرائد المأجورة ، وفى مقدمتها جريدة « اللواء » بالتنديد بنا ، والخروج علينا بألسنتها فوجهت الينا سهام جهلها وضغتها »

ولولا أن انجلترا قد وثقت كل الثقة من أن عودة عرابى لن تسبب لها متاعب فى مصر ما أعادته ...

ولم يكن عرابى ليستطيع بعد أن بسط الاحتلال سلطانه على هذه الصورة أن يعيد حياته سيرتها الاولى

من الجهاد والعناد ، فان الرماد الكثيف يطمر الجمرات التى اشعلها بالامس وجعل نارها تتأجج ...

وستبقى هذه الجمرات تحت الرماد حتى يهيىء الله لها زعيما فلاحا آخر ، هو سعد زغلول فما هو الا أن ينفخ فيها من روحه القوية حتى تنبعث جبارة عاتية لا يطفئها طغيان ...

وسوف تكون ثورة سعد فى تاريخ مصر هى البعث لثورة عرابى وتكملتها ، فعلى يد سعد تعود القومية المصرية التى بدأها عرابى ، وعلى يد سعد يخذل الاحتلال الذى خنق ثورة عرابى ، وعلى يد سعد يبعث الدستور الذى هتف به فى مسمع الزمن أحمد عرابى حين واجه توفيق يوم عابدين بأنه جاء يتكلم باسم الامة التى تطلب الدستور ، ولا ترضى غيره قاعدة للحكم ...

## غريب في الوطن

رأى عرابى وقد أصــدر الخديو عفوه عنه أن أدب اللياقة يقضي عليه أن يتقدم اليه بالشكر ، وقد تصادف كما ذكرنا أن بلغ عبــاس الاسكندرية عائدا من احدى رحلاته فى اليوم الذى بلغ عرابى فيه السويس عائدا من منفاه ، فأبرق الى القصر يعبر عن شكره للخديو ويهنئه بسلامة العودة ويستأذن فى المثول بين يديه ... ولكنه لم يظفر من القصر حتى بالرد عليه ..

وزار عرابى الوزراء فى بيوتهم ، فلم يرد أحدهم له الزيارة ، وقد تألم عرابى لذلك كثيرا ، اذ أنه ما زارهم الا لان الواجب يقضى بذلك ، قال فى مذكراته : « وما فعلت ذلك الا قياما بالواجب » .

وخشى كبار الموظفين الاتصال بعرابى ، والا أغضبوا الخديو ، وكذلك أصدر كرومر أوامره للوزراء الا يتصل به أحد خشية أن يستغل اسمه فى تنبيه الاذهان الى مذلة الاحتــلال ، كما أشــار الى ذلك بلنت فى بعض مذكراته ... وهكذا يعامل عرابى معاملة من أساء الى وطنه ، وليس فى مصر حينذاك من أحسن الى مصر مثله

واحس عرابى انه غريب فى وطنه ، فقد أنكره أكثر من كانوا يلتفون حوله ابان ســـلطانه ، ومنهم من كان يود لو وجه اليه حينذاك عرابى نظرة ، أو حياه بتحية

ولولا بقية من أولى الفضل والاباء ممن كان الوفاء فيهم طبعا لضاق عرابى بالحياة فى وطنه وفضل عليها حياته فى المنفى ، وكان فى مقدمة هؤلاء الذين تنكروا له على فهمى باشا زميله فى الثورة وفى المنفى ، وابراهيم فوزى باشا مأمور ضبط القاهرة ابان الثورة ، والشيخ محمد خليل الهجرسى الصديق الوفى ، والزبير باشا ، ومحمد بك الزمر ، والسيد باشا شكرى المهندس وأحمد بك ناشد مدير الشرقية فى أثناء الحرب ، ورزق حجازى بك من رجال الثورة ، وعبد الحميد باشا العبادى ، وأحمد حمدى باشا ، والشاعر حافظ بك ابراهيم ، والدكتور محجوب ثابت ، ومحمد بك أبوشادى المحامى وعلى بك آصف ، ونفر قليل مما كانوا يجلون عرابى ويحبونه ...

ومما يؤسف له أن البارودى لم يزره الا بعد عودته باسبوع ، ثم انقطع عنه ولم يزره بعدها أبدا ... وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ جاء صديقه المستر بلنت الى مصر، وزاره فى منزله ، وكان يزوره دائما كلما جاء الى مصر ، وفى ٢٤ من هذا الشهر جمع بلنت بينه وبين الشيخ محمد عبده بحديقته بالشيخ عبيد وقد شهد هذا اللقاء على باشا فهمى .

وتعانق الزعيم الشيخ ، والاستاذ الامام عند اللقاء ، وقد اجتمعت ذكريات الثورة فى هذه اللحظة ، ولكن عرابى ما لبث أن أغلظ للامام فى القول حين تشعب الحديث الى الثورة وحوادثها ولامه على مصانعته الخديو فى بعض ما كتب ...

وكان عرابى يؤدى صلاة الجمعة فى جامع الرماح بالناصرية ، أو بمسجد السيدة زينب ، أو بمسجد الحسين رضى الله عنهما ، وكان يتزاحم عليه الناس

لرؤيته والسلام عليه ...

وقد حدثني كثيرون ممن رأوه في تلك الايام ، فقالوا انهم لن ينسوا قامته الطويلة ولا لحيته البيضاء ولا وجهه الذى تنبعث منه هيبة شديدة ويشع منه الايمان والورع في وقت واحد ، ولا مسبحته التي كانت لاتفارق يده ، ولن ينسوا اقبال الناس عليه كلما رأوه واشارتهم اليه ، وتزاحمهم لرؤيته اذا كان جالسا في دكان ، او في مسجد ، وقولهم : هذا هو عرابى ، وسؤال بعضهم بعضا : هل رأيت عرابى ؟ ها هو ذا عرابى ...

وكان عرابى يخرج أصيل كل يوم في فصل الصيف للرياضة ، فيذهب في عربته الى الجزيرة أو شارع الهرم فيقضي ساعة أو بعض ساعة ، وكان وجهاء المدينة في الشوارع التي يمر بها ينهضون وقوفا اذا مر بهم وهم جلوس أمام منازلهم حسب عادة الناس في تلك الايام ويحيونه برفع أيديهم الى رؤوسهم اجلالا له ، وكان يرد عليهم تحياتهم شاكرا لهم جميل صنعهم ...

***

وكان من أشد ما يتألم منه عرابى وهو مقيم مع أولاده بعمارة البابلي بشارع خيرت ، ضيق ذات يده ، فان المعاش لم يكن يكفيه هو وأسرته الكثيرة العدد ...

وحق للرجل أن يتألم ، فقد كان من الجحود أن يظل هذا الزعيم محروما من أملاكه التي حللها الله له ، فيعيش وهو الابى الكريم حياة المعسرين ، وقد كانت مصر كلها طوع يمينه ذات يوم ... وذلك ما كان يبث في نفسه الشعور بالغربة في وطنه ، فهل هذا جزاء ما قدمت يداه من خير لهذا الوطن ، وما بذل من جهود في سبيل اصلاحه والنهوض به ؟

وقضى عرابى أياما كانت شديدة الوطأة عليه ؛

يحسبه الجاهلون غنيا من التعفف ، وانه ليقـــاسى مما هو فيه العذاب الاليم ...

وكتب عرابى للخديو ، يرجو منه رفع هـذا الحيف عنه ، فما رجع من كتابته بطائل ، ولم يظفر حتى برد ، وكتب للحكومة فأعرضت عنه أشـد أعراض ، وكانت حجته في تلك المكاتبات أن مصـادرة أملاكه لا تتفق مع العدالة ولا مع الشرع لانه لم يصدر بناء على حكم شرعى ثم ان العفو صدر عنه فرجع الى وطنه ، فلم يكن العفو ناقصا لا يشمل العقوبة كلها ؟

وكان يكرر عرابي ما أورده على أنه حديث وهو : « مال المسلم على المسلم حرام » ...

ونسي عرابى ، أو لعله تناسي أن العفو عنه لم يكن بارادة عباس ، وانما كان بشفاعة ولى عهد انجلترا ، وهى شفاعة لا ترد ، ولو أنها شملت اعادة ما أخذ منه لاعيد اليه دون أن ينقص درهما واحدا ...

واشتكى عرابى الى من كانوا السبب فى نفيه ، ولكن الانجليز كانوا يحيلونه على الحكومة المصرية قائلين : انهم لا يستطيعون التدخل فى مسالة هى من اختصاص الحكومة المصرية ، وذلك هو دأبهم ، يتدخلون فى كل شيء تقضي مصلحتهم بالتدخـل فيه ويحنجون حين لايريدون التدخل فى أمر بأن ذلك من اختصاص الحكومة المصرية ...

والواقع أن مصادرة ممتلكات عرابى وأصحابه على الصورة التى تمت بها لا تستند الى شيء من القانون أو الشرع فالمعروف أن تباع أملاكه ويؤدى اليه ثمنها ، أما أن تؤخذ هكذا بغير حكم قضائى وليست وفاء لدين أو تعويضا عن مال سلب ، فهذا ما لم يسبق به حكم فى مصر ولا فى غير مصر ...

ولقد يئس عرابى من اقناع أولى الامر برد حقه المغتصب ، يقول فى مذكراته : « ومن حيث أن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع الحق ، ولا ترد على من يتظلم اليها أو هى لا تقدر على الاجابة ولا على أى عمل ضد ارادة الانجليز ، كما أن الحكومة الانجليزية لا تريد أن تتوسط فى اقامة العدل ودحض الظلم ورد املاكى المنهوبة بقوة الاحتلال وتحيل شكواى على حكومة سمو الخديو وهى لا تقدر على عمل ما بدون أمر الانجليز ، فقد تركت لاولادى وحفدتى من بعدى وذريتى جيلا بعد جيل الحق فى المطالبة بحقوقى وأملاكى المنهوبة من الحكومة المصرية ومن المجلس النيابى المصرى حين تسترد الامة حريتها واستقلالها ومجلسها النيابى ، واني واثق بأن أمتي المصرية الكريمة لن تنسانى ، ولن تترك أولادى حين يأتى اليوم الذى تعرف فيه حقيقة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطنى حر » .

ونحن نقول : انه قد حان أن تنصف مصر عرابى وأن تعرف حقيقة أعماله الوطنية كما يقول ، ولقد دأب أبناؤه عملا بوصية أبيهم ورغبة فى الوصول الى حقهم المهضوم ، بالشكوى الى ولاة الامور منذ أن تألفت الوزارة الوطنية الثانية برئاسة الزعيم القومى الثانى ، سعد زغلول ، ولئن حالت دون احقاق هذا الحق مشاغل وظروف لا داعى لتفصيلها الآن فانا نحسب أن الوقت الذى ترد مصر فيه الجميل لعرابى هو هذا الوقت الذى تقتلع فيه ما بقى من جذور الاحتلال ...

ويسرنا أن نثبت فى هذا التاريخ آخر خطوة رسمية حتى يومنا هذا ، فقد تقدمت اللجنة المالية الى مجلس الوزراء فى صيف سنة ١٩٤٧ بمذكرة جاء فيها : « وقد استخرجت مصلحة الاملاك بيانا عن مساحة هذه الاملاك

من الملفات المحفوظة ، فوجدت أنها ١٢ س ، ٦٩ ط ، ٤٦١ ف ، وقدرت ثمنها حسب الاسعار الحالية بمبلغ ٤٢٢ر٤٨٦٦١ جنيها .

وقد طالب ورثة عرابى باشا مرارا وتكرارا باعادة أملاك مورثهم اليهم . تلك الاملاك التى يقدرونها بتسعمائة فدان ، الا أن هذه المطالبات كان نصيبها الحفظ فى ٢٤ مارس سنة ١٩٣٨ ، ٢ يوليو سنة ١٩٤٠ ، ٢٧ مايو سنة ١٩٤٢ » .

ومن أجمل ما ذكرته اللجنة المالية قولها :

« وتذكر وزارة المالية أن مسـألة اعادة املاك احمد عرابى باشا المصادرة ، الى ورثته يجب أن ينظر اليها بمنظار اليوم ، لا بمنظار الامس الذى انقضى بآثاره ونتائجه وتقادم عهده وانقضى عليه زهاء ثلثى قرن ، تعاقبت فيها أجيال وتغيرت فيها النظريات والعقائد ، واصبح ينظر الى الثورة العرابية بأنها كانت حركة وطنية صميمة فى مصريتها ، نبيلة فى أغراضها ، سامية فى مقاصدها ، وقد دافع عرابى باشا عن المبادىء والحريات التى يحارب من أجلها العالم الآن والتى يضحى لها بالملايين من البشر ، وان النظرة الحديثة الى عقوبة مصادرة الاملاك لا تعتبرها عقوبة عادلة رادعة ، كما كان يؤخذ بها فى العصور الماضية ، بل عقوبة متعدية الى غير الشخص المقصود بذاته ، الى ورثته الابرياء الذين لم يقدموا على جرم أو يقترفوا ذنبا يستحقون عليه الحكم بالفقر ، والعوز ، والحرمان » .

## قضى الزعيم نحبه

على تلك الحال التى ذكرنا قضى عرابى أيامه فى مصر بعد عودته من المنفى ، يتلقى أصحابه فى منزله ويزورهم فى منازلهم ، وكانوا يتجاذبون ذكريات الماضى ويألمون مما آلت اليه مصر من حكم المستعمرين لها وقضائهم على دستورها ، وكان هؤلاء الاخوان يحدثون عرابى عن عباس وكيف أخذ يناهض الاحتلال حتى اذله كرومر وأرغمه على مصانعة الاحتلال ، وعن تخاذل النفوس أيام أن كان عرابى فى منفاه ، وكان الاسى يرمض جوانح هؤلاء الذين خاضوا غمار الثورة وشعروا بالعزة القومية قبل الاحتلال ، وهم لايملكون اليوم الا أن يسألوا الله أن يجعل لمصر مخرجا مما هى فيه ...

وكان عرابى فى أواخر أيامه يكثر من تلاوة القرآن ، ويحرص على أن يؤدى أبناؤه الصلوات فى أوقاتها وكان يؤمهم ويحرم على الذكور منهم التحلى بأية حلية ذهبية ويحفظهم القرآن الكريم ، وقد قرأ عليه أحدهم نهج البلاغة وهو غلام ، وكان يحبذ لهم الجد والاحتشام ، ومن ذلك أنه غضب على اكبر أبنائه لانه حلق لحيته ولم يرض عنه حتى أطلقها مرة ثانية ...

وكان عرابى يتألم كلما سمع الناس يثنون على حركته القومية ويعدونها الخطوة الاولى لما بعدها من نهوض ،

كما كان يتالم جدا اذا علم ان الجيل الناشيء يجهل هذه الحركة التى لم تجد دفاعا عنها ، والتى عمل الاحتلال على أن يصورها صورة بعيدة كل البعد عن حقيقتها . .

حدثنى أحد أبنائه أن أباه قال له ذات مرة غاضبا لما رآه من جهل الجيل الجديد بحركته : ان هذه الحركة سوف يقيض الله لها من يفهمها حق الفهم من أبناء الجيل القادم الذين يفطنون الى ألاعيب الاحتلال وتثور نفوسهم عليه وحينئذ يعرفون ما فعلناه من أجل الوطن ويعملون على هذا الطريق ...

***

والحق أن الاحتلال قد أضل الناس كثيرا عن ثورة عرابى ، وساعد الاحتلال عدة عوامل ، منها الخوف ، والجهل ، وعدم التمكن من نشر شيىء عن هذه الثورة بقصد الدفاع عنها ، لان هذا يغضب الاحتلال من جهة ويغضب الخديو من جهة أخرى ، اذ كان عباس يحقد أشد الحقد على عرابى معتقدا أنه أراد يوما ان يخلع أباه ويقيم حليما بدله .

وكان الاحتلال ينشر فى مدارسنا أن عرابى جاهل ، أحمق ، مغرور ، ساق البلاد الى الفتنــــة والخــــراب

ولم ينصف عرابى الا صديقه بلنت حين نشر سنة ١٩٠٧ كتابه « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » ولكن هذا الكتاب لم يقرأه الا عدد من الانجليز ، فلم يكن له اثر يذكر فى مصر ...

وكل ما استطاع عرابى أن يفعله للدفاع عن نفسه وعن قضية الوطن هو أنه كتب لبلنت بناء على طلبه ، تاريخا موجزا لحياته وحركته سلمه اليه الشيخ عبيد فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٣ فنشره بلنت فى آخر كتابه عند طبعه ..

ظل عرابى حتى السنوات الاخيرة من عمره مرتفع الهامة منتصب القامة حتى أشرف على السبعين وهو قوى البدن جم النشاط ، الى أن أصيب بمرض أقعده ذلك هو السرطان الذى اصابه فى المثانة ...

وتولى علاجه ثلاثة من الاطباء هم : أحمد بك عيسى ومحجوب ثابت ، وانيس أنسى ، ولكن هذا الداء قد استعصى على العلاج ...

وكان عرابى قد دون مذكراته عن الثورة فى ثلاث كراسات كبيرة (١) تكلم فيها عن حوادث الثورة جميعا ، فلم يترك ناحية منها الا ذكرها .. وقد حرص على كتابة ثلاث صور منها ، احداها محفوظة بدار الكتب المصرية ، والثانية والثالثة لدى أبنائه ..

***

وفى ٢٦ يوليو سنة ١٩١٠ فرغ من كتابة هذه المذكرات وقد اختتمها بذكر جميع من فتحوا مصر وتغلبوا عليها منذ عهد الفراعنة حتى الاحتلال البريطانى ووضح كيف تخلصت مصر منهم جميعا ، ثم قال : « فعلى الجيل الجديد أن يجد ويجتهد ويعمل ليلا ونهارا على استرداد مجده واستقلاله وحريته المسلوبة منه ومطالبة الانجليز بالجلاء حتى ينكشف عنه هذا البلاء ، ثم انى أدعو الشعب المصرى ألا يقلد التمدن الاوربى المزيف حتى لايرتكب المنكرات التي نهى الله عنها وأن يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ، وأن يترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وان يقيم شعائر الدين الحنيف ويحيى مناسكه ، فلا عز ولا انتصار بغير الدين وهو وحده يكفل لمن اتبعه باخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة ، ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الاخاء بين أبناء وطنهم وينزعوا ما فى

(١) طبع الجزء الاول منها بعنوان : كشف الستار عن سر الاسرار

قلوبهم من غل وضغينة ويعملوا يدا واحدة وقلبا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز كلمة دينهم ، فاذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم للسمع وأصختم الى نصائح حكيم مجرب ، عندئذ يخرج الله أعداءكم ويولى عليكم خياركم والله على كل شيء قدير » ...

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١١ اشتدت وطأة المرض على الزعيم الشيخ وكان قد انتقل الى منزل فى المنيرة فأوصى أولاده بنشر مذكراته مهما قابلهم من عقبات ليعلم الناس حقيقة أعماله وما أراده من الخير لوطنه ، وأن يلحوا على المطالبة بحقهم حتى ينالوه ...

***

وغاب الزعيم الشيخ عن وعيه ٣٦ ساعة لم يتكلم فيها أو يفتح عينيه أو يدرى شيئا مما حوله ، ثم وافاه الاجل المحتوم فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١١ الموافق ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٩ ، فاصبح فى ذمة الله وسجل التاريخ

ولم يكن لدى أولاده من المال ما يكفى لتجهيزه ودفنه فاضطروا الى عدم اعلان نبأ وفاته حتى اليوم التالى ، حتى قبضوا معاشه ، اذ صرفت وزارة المالية المرتبات والمعاشات فى هذا اليوم بمناسبة عيد الفطر المبارك ...

ولم يشيعه الى مقره الاخير رجل رسمى واحد ، أو يحضر فى مأتمه ، ولكن مصر الوفية التى طغى عليها الاحتلال فتباعدت عنه فى حياته ، أبت الا أن تكرمه ميتا فأحاط بنعشه الالوف من أبنائها وتألفت من هؤلاء جنازة شعبية عظيمة سارت فى صمت وخشوع من داره بالمنيرة حتى قبره بالامام الشافعى حيث أهيل عليه التراب ، بين ترحم المترحمين وبكاء الباكين ...

وستنقضى العصور والاعوام ، ويبقى فى أذهان بنى الاجيال القادمة أن أحمد عرابى كان زعيم القومية المصرية الاول وكان الفلاح المصرى الاول الذى دعا الى حرية

قومه وحارب فى سبيلها ونفى وذاق ألم الفاقة والحرمان من أجل مصر ، وكان صاحب الصيحة الاولى وصاحب الخطوة الاولى فى سبيل الكرامة القومية والنهوض بمصر على أساس الدستور والحرية ، جزى الله عرابى جزاء المحسنين عن امته وأسكنه فسيح جناته ...

# فهرس

الصفحة

# وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

# هذا الكتاب

فى الشهر الماضى ظهر القسم الاول من كتاب « احمد عرابى الزعيم المفترى عليه » وهذا هو القسم الثانى من الكتاب الذى الفه المرحوم محمود الخفيف . ومحمود الخفيف هو شاعر وناقد ومؤرخ من كبار الادباء والكتاب الذين ظهروا فى بلادنا بعد ثورة ١٩١٩ . وهذا الكتاب الذى نقدمه هو نموذج لفكر هذا الكاتب الكبير واسلوبه . وقد صدر هذا الكتاب فى طبعته الاولى قبل الثورة واثار غضب الملك فاروق والسلطة الحاكمة آنذاك .. لقد اثارهم ان مؤلف الكتاب دافع فيه دفاعا علميا وعاطفيا مجيدا عن احمد عرابى حيث جعل شعار كتابه عندما كان ينشره مسلسلا فى مجلة الرسالة القديمة : « اما آن للتاريخ ان ينصف هذا الزعيم الفلاح ؟! » . ولذلك اتجهت السلطات الحاكمة فى ذلك الحين الى تشريد مؤلف الكتاب محمود الخفيف ، وكان موظفا كبيرا فى وزارة المعارف ، فصدرت قرارات عديدة بنقله من مكان الى مكان بقصد ازعاجه وارباك حياته ، كما كان معروفا لدى الجميع انه من « المغضوب عليهم » من السلطات مما جعله يعيش فى ظروف معنوية ومادية صعبة . ولقد كان محمود الخفيف كاتباً لامعا ، ولعله أبرز كتاب التراجم الأدبية والتاريخية فى مكتبتنا العربية المعاصرة كلها ، فقد كتب عن «تولستوى» و « ملتن » و « لينكولن » وكتب هذا الكتاب الرائع الذى نقدمه اليوم الى القراء العرب فى كل مكان قسمه الثانى والاخير . ولكن محمود الخفيف لم ياخذ حقه الادبى الكامل بسبب الحرب التى واجهته فى حياته وبسبب انصرافه الكامل للعمل الفكرى والثقافى وانصرافه عن الحياة الاجتماعية والعلاقات العامة . وكتابات محمود الخفيف ـ كما سوف يظهر للقارىء بوضوح من خلال هذا الكتاب الهام ـ تتميز بالثقافة الواسعة وبالاسلوب الممتع ، فقد كان الى جانب ثقافته العلمية والتاريخية شاعرا ، كذلك يتضح لنا ايضا من هذا الكتاب بالذات يقظة ضميره القومى بصورة رائعة ، ففى هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق الدفاع عن عرابى بل لعلها الوثيقة الوحيدة التى كتبت بهذا العمق والشمول ، وعرابى زعيم ظلمه الكثيرون ، وعلى راسهم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ... فجاء كتاب محمود الخفيف لينصفه بالحق والعلم ، وليقدم نموذجا رائعا للكتابة التاريخية ... كيف يمكن أن تصبح هذه الكتابة علما راقيا وادبا رفيعا فى نفس الوقت .

**١٥ قرشا**